الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

المصادر العربية
مؤرخو القرن السادس (٢)

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكّار

مدخل الى كتاب الاعتبار

تراجم اسامة من :

- تاريخ دمشق لابن عساكر
- خريدة القصر وجريدة العصر للعماد الاصفهاني
- معجم الادباء لياقوت الحموي
- بغية الطلب في تاريخ حلب لابن العديم
- وفيات الاعيان لابن خلكان
- المقفى الكبير للمقريزي .

توطئة

بسم الله الرحمن الرحيم

اعتدت فيما تقدم من مجلدات ان يكون موضوع التوطئة الاساسي الحديث عن حياة المؤلف أو المؤلفين ، وهذا ما سوف أبدله في هذا المجلد ، ذلك ان موضوعه الاساسي أشبه بمذكرات شخصية فيها ترجمة لحياة المؤلف وتعريف بوسطه وعصره ، وهذا المؤلف هو الفارس العربي ، الشاعر الاديب والسياسي أسامة بن منقذ ، الذي غالبا اذا ما أريد التعريف به قيل « صاحب كتاب الاعتبار ».

ويعد كتاب الاعتبار على رأس ادبيات عصر الحروب الصليبية وأهمها ليس لما حواه وانفرد به من مواد اخبارية ثمينة جدا فحسب بل لتميزه باللون العربي الذقي ، فنحن لدى تعاملنا مع نصوص المصادر العربية للحروب الصليبية نلاحظ أنها ركزت على افعال الحكام والقادة الذين كان جلهم من أصل غير عربي ، تركماني أو كردي أو غير ذلك ، وهمشت دور العناصر العربية السياسية والقبلية ، حتى باتت صورة الصراع اشبه بصراع بين قوى أجنبية مسلمة من جانب ومسيحية من الجانب الآخر على بلاد الشام ومصر والجزيرة .

وصحيح ان القوى السياسية العربية من التكتلات القبلية قد تأثرت كثيرا إثر قدوم السلاجقة ، وهو ماشاهدناه في الجزء الاول من هذه الموسوعة ، لكن الآن من خلال ماكتبه أسامة مع معطيات أخرى يمكننا التأكيد على ان دور القوى العربية والتكتلات القبلية ظل فعالا واساسيا ، واذا ما أضيف لهذا حقيقة كون سكان بلاد الشام عربا في المدن والارياف . هنا يمكننا شطب مقولة الصراع بين

قوتين أجنبيتين ، واستبدالها بأخرى بأن الصراع بين غزاة أجانب في كل شيء قدموا من اوروبا وبين أصحاب البلاد العرب .

وحتى تزداد الفائدة من كتاب الاعتبار صنعت له مدخلا وخاتمة ، أودعت في المدخل عدة تراجم لاسامة ، كما اودعت في الخاتمة ترجمتين لاثنين من الاعلام الذين كان لاسامة بهم علاقة مباشرة .

وعلي أن أشير إلى أن كتاب الاعتبار نشر اكثر من مرة ، اعتمادا على مخطوطة وحيدة مبتورة الأول كانت موجودة في مكتبة دير الاسكوريال قرب مدريد في اسبانيا ، ومن أشهر الذين عملوا على تحقيق هذا الكتاب فيليب حتي ، وقد نشرها في برنستون بالولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٣٠ ، وقد بذل الدكتور حتي جهودا كبيرة لدى تحقيقه لنص الكتاب ، لكنه اخفق في كثير من الاماكن في الوصول الى القراءة الصحيحة ، وتميز الدكتور حتي بأنه أودع في الحواشي رسم الكلمات التي لم يتوصل الى قراءتها بالشكل الصحيح أو شك بها ، وكان لهذا فوائده الجليلة ، لأن مخطوطة الكتاب مفقودة الان ، وبعد الدكتور حتي أعيد نشر الكتاب كاملا او مختصرا اكثر من مرة وفي أكثر من مكان ، ومع هذا ظلت النجاحات هي هي .

ويخيل لي أنني في عملي الآن تمكنت من تقويم النص وازالة مشاكله ، وساعدني على ذلك عدة عوامل ، بينها الانتماء الجغرافي، والممارسة الطويلة والخبرة المعمقة بكتب التراث العربي ، ولتخصصي الآن وانقطاعي شبه الكامل للعمل في أحداث الحروب الصليبية .

ان لغة أسامة في كتابه « الاعتبار » واصطلاحاته ممازالت قائمة حتى الآن في بيئة مدينة حماه ، وهي مدينتي التي نشأت بها ، فضلا عن أنني عشت عدة سنوات في المنطقة القريبة من شيزر ، وكان لهذا فوائده .

الكتاب الآن بين يدي القراء جميعا ، وأملي كبير في أن أكون قد وفقت في عملي ، والله المستعان وله الحمد والمنة ، ومنه جل وعلا أسأل دوما التوفيق والسداد .

وصلى الله على سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين .

سهيل زكار

دمشق ٩ . ٤ . ١٩٩٥

اسامة بن مرشد بن علي

ابن المقلد بن نصر بن منقذ بن نصر بن هاشم
ـ ابو المظفر الكناني ، الملقب بمؤيد الدولة

(من تاريخ دمشق لابن عساكر)

له يد بيضاء في الادب والكتابة والشعر .
ذكر لي انه ولد سنة ثمان وثمانين واربعمئة ، وقدم دمشق سنة اثنتين وثلاثين وخمسمئة ، وخدم بها السلطان وقرب منه ؛ وكان فارسا شجاعا ، ثم خرج الى مصر فاقام بها مدة ، ثم رجع الى الشام وسكن حماة ؛ واجتمعت به بدمشق ، وانشدني قصائد من شعره سنة ثمان وخمسين وخمسمئة .

قال لي ابو عبد الله محمد بن الحسن بن الملحي : الامير مؤيد الدولة اسامة بن مرشد بن منقذ شاعر اهل الدهر ؛ مالك عنان النظم والنثر ، متصرف في معانيه ، لاحق بطبقة ابيه ، ليس يستقصى وصفه بمعان ، ولايعبر عن شرحها بلسان ، قصائده الطوال لايفرق بينها وبين شعر ابن الوليد (١) : غير محتفل في طولها ، ولايتعثر لفظه العالي في شيء من فضولها ، والمقطعات فاحلى من الشهد ، والذ من النوم بعد طول السهد ، في كل معنى غريب وشرح عجيب .
كتب على حائط دار سكنها بالموصل :

دار سكنت بها كرها وماسكنت
روحي الى شجن فيها ولاسكن

والقبر استر لي منها واجمل بي
ان صدني الدهر عن عودي الى وطني (٢)

وكتب الى اخيه :

عجمتني الخطوب حينا فلما
عجزت ان تطيق مساغا

لفظتني وسالمتني فقد عا
د حذاري امنا وشغلي فراغا

واخو الصبر في الحوادث ان لم
يلقه الحين مدرك ماراغا (٣)

وكتب على حائط جامع :

هذا كتاب فتى احلته النوى
اوطانها ونبت به اوطانه

شطت به عمن يحب دياره
وتفرقت ايدي سبا اخوانه

متتابع الزفرات بين ضلوعه
قلب يبوح ببثه خفقانه

تأوي إليه مع الظلام همومه
وتذوده عن نومه أشجانه

لكنه لا يستكين لحادث
خوف الحمام ولايراع حنانه

ألفت مقارعة الكماة جياده
وسرى الهواجر لايني ذملانه

يومان أجمع دهره إما سرى
أو يوم حرب تلتظي نيرانه (٤)

أنشدنا أبو المظفر :

نافقت دهري فوجهي ضاحك جذل
طلق وقلبي كئيب مكمد باكي

وراحة القلب في الشكوى ولذتها
لو أمكنت لا تساوي ذلة الشاكي(٥)

وانشدني ايضا:

اصبحت لااشكو الخطوب وانما
اشكو زمانا لم يدع لي مشتكي

افنى اخلائي واهل مودتي
واباد اخوان الصفاء واهلكا

عاشوا براحتهم ومت لفقدهم
فعلي يبكي لاعليهم من بكى

وبقيت بعدهم كأني حائر
بمفازة لم يلق فيها مسلكا (٦)

وانشدني ايضا :

احبابنا كيف اللقاء ودونكم
خوض المهالك والفيافي الفيح

ابكيتم عيني دما فكانما
انسانها بيد الفراق جريح

فكأن قلبي حين يخطر ذكركم
لهب الضرام تعاورته الريح (٧)

وانشدني ايضا :

يامؤيسي بتجنيه وهجرته
هل حرم الحب تسويفي وتعليلي

يبدي لي اليأس تصريحا فتكذبه
طماعي وأرى والامال تملي لي

وقد رضيت قليلا منك تبذله
فما احتيالي اذا استكثرت تقليلي (٨)

وانشدني ماقاله في ضرس له قلعة :

وصاحب لاتمل الدهر صحبته
يشقى لنفعي ويسعى سعي مجتهد

لم يبد لي مذ تصاحبنا فحين بدا
لناظري افترقنا فرقة الابد (٩)

وانشدني :

ومماذق رجع النداء جوابه
فاذا عرا خطب فابعد من دعي

مثل الصدى يخفى علي مكانه
ابدا ويملا بالاجابة مسمعي (١٠)م

وانشدني مما عمله بقيسارية :

اراني نهار الشيب قصدي وطالما
تجاوز بي ليل الشباب سبيلي

وقد كان عذري ان اضلني الدجى
فهل لي عذر والنهار دليلي (١١)

وانشدنا :

اذا ماعدا دهر من الخطب فاصطبر
فان الليالي بالخطوب حوامل

وكل الذي يأتي به الدهر زائل
سريعا فلا تجزع لما هو زائل (١٢)

وانشدني :

لاتخدعن باطماع تزخرفها
لك المنى بحديث المين والخدع

فلو كشفت عن الهلكى باجمعهم
وجدت هلاكهم في الحرص والطمع (١٣)

وانشدني :

لادر درك من رجاء كاذب
يعترنا بورود لامع لال

ابدا يسوفنا بنصرة خاذل
ووفاء خوان وعطفة قال

ويرى سبيل الرشد لكن مالنا
عزم مع الاهواء والامال (١٤)

وانشدني مما قاله بمصر :

انظر الى صرف دهري كيف عودني
بعد المشيب سوى عاداتي الاول

تغاير من صروف الدهر معتبر
واي حال على الايام لم يحل

قد كنت مسعر حرب كلما خمدت
اضرمتها باقتداح البيض في القلل

همي منازلة الاقران احسبهم
فرائسي فهم مني على وجل

امضى على الهول من ليل واهجم من
سيل واقدم في الهيجاء من اجل

فصرت كالغادة المكسال مضجعها
على الحشايا وراء السجف والكلل

قد كدت اعفن من طول الثواء كما
يصدي المهند طول اللبث في الخلل

أروح بعد دروع الحرب في حلل
من الدبيقي فبؤسا لي والحلل

وما الرفاهة من رأيي وطري
ولاالتنعم من همي ولاشغلي

ولست ارضى بلوغ المجد في رفة
ولاالعلا دون حطم البيض والاسل (١٥)

وانشدني بعد ماقاله في خروجه من مصر ، قال :

اليك فلا تثني شؤونك شاني
ولاتملك العين الحسان عناني

ولاتجزعي من بغتة البين واصبري
لعل التنائي معقب لتداني

فللاسد غيل حيث حلت وانما
يهاب التنائي قلب كل هدان

ولاتحملي هم اغترابي فلم ازل
غريب وفاء في الورى وبيان

وفيا اذا ماخان جفن لناظر
ولم يرع كف صحبة لبنان

ارى الغدر عارا يكتب الدهر وصمة
ويقراه مابين الملا الملوان

ولاتسأليني عن زماني فانني
انزه عن شكوى الخطوب لساني

ولكن سلي عني الزمان فانه
يحدث عن صبري على الحدثان

رمتني الليالي بالخطوب جهالة
بصبري على مانابني وعراني

فما اوهنت عزمي الرزايا ولالها
بحسن اصطباري في الملم يدان

وكم نكبة ظن العدى انها الردى
سمت بي واعلت في البرية شاني

وماانا ممن يستكين لحادث
ولايملأ الهول المخوف جناني

وان كان دهري غال وفري فلم يغل
ثنائي ولاذكرى بكل مكان

وماكان الا للنوال وللقرى
وغوثا لملهوف وفدية عان

حمدت على حالي يسار وعسرة
وبرزت في يومي ندى وطعان

ولم ادخر للدهر ان راب او نبا
والخطب الا صارمي وسناني

لان جميل الذكر يبقى لاهله
وكل الذي فوق البسيطة فان (١٦)

الأمير مؤيد الدولة أبو المظفر اسامة بن مرشد
من خريدة القصر وجريدة العصر للعماد الاصفهاني

ابن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ بن محمد بن منقذ بن نصر بن هاشم بن سرار بن زياد بن زغيب بن مكحول بن عمرو بن الحارث ابن عامر بن مالك بن مالك بن عوف بن كنانة بن بكر بن عذرة بن زيد اللات بن رفيدة بن ثور بن كلب بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة بن مالك بن حمير بن مرة بن زيد بن مالك بن حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن عابر بن ارفخشد بن سام بن نوح بن لمك بن متوشلخ بن اخنوخ بن يرد بن مهلائيل بن قينان بن انوش بن شيث بن ادم عليه السلام .

اسامة كاسمه ، في قوة نثره ونظمه ، يلوح من كلامه امارة الامارة ، ويؤسس بيت قريضه عمارة العبارة ، نشر له علم العلم ، ورقي سلم السلم ، ولزم طريق السلامة ، وتنكب سبل الملامة ، واشتغل بنفسه ، ومحاورة ابناء جنسه ، حلو المجالسة ، حالي المساجلة ، ندي الندى بماء الفكاهة ، عالي النجم في سماء النباهة ، معتدل التصاريف ، مطبوع التصانيف ، اسكنه عشق الغوطة ، بدمشق المغبوطة ، ثم نبت به كما تنبو الدار بالكريم ، فانتقل الى مصر فبقي بها مؤمرا مشارا اليه بالتعظيم ، الى ايام ابن رزيك فعاد الى الشام ، وسكن دمشق مخصوصا بالاكرام ، حتى اخذت شيزر من اهله ، ورشقهم صرف الزمان بنبله ، ورماه الحدثان الى حصن كيفا مقيما بها في ولده ، مؤثرا بلدها على بلده ، حتى اعاد الله دمشق الى سلطنة الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن ايوب في سنة سبعين ، ولم يزل مشغوفا بذكره ، مستهترا باشاعة نظمه ونثره ، والامير العضد مرهف ولد الامير مؤيد الدولة جليسه ، ونديمه وانيسه ، فاستدعاه إلى دمشق وهو شيخ قد جاوز الثمانين ، وكنت قد طالعت

مذيل السمعاني ووجدته قد وصفه وقرظه ، وانشـدني العـامري له باصفهان من شعره ماحفظه ، وكنت اتمنى ابدا لقياه ، واشيم على البعد حياه ، حتى لقيته في صفر سنة احدى وسبعين بدمشق وسألته عن مولده ، فقال : سنة ثمان وثمانين واربعمائة ، يوم الاحد السابع والعشرين من جمادى الاخرة . وانشدني لنفسه البيتين اللذين سارا له ، في قلع ضرسه :

وصاحب لا امل الدهر صحبته
يشقى لنفعي ويسعى سعي مجتهد

لم القه مذ تصاحبنا فحين بدا
لناظري افترقنا فرقة الابد (١٧)

لو انصفت فهمك ان كنت منتقـدا ، فـرقيت عن مـرقب وهمـك مجتهدا ، وغصت بنظر فكرك في بحار معانيه ، لغنمت من فرائد درره ولآليه ، ولعلمت ان الشعر اذا لم يكن هكذا فلغـو ، وانه اذا لم يبلغ هذا الحد من الجد فهجر ولهو . ومـن الذي اتـى في وصـف السـن المقلوع ، بمثل هذا الفن المطبوع ، فهل سبقه احد الى معناه ، وهـل ساواه في هذا النمط سواه .

وانشدني ايضا لنفسه ، في معنى قلع ضرسه :

وصاحب صاحبني في الصبا
حتى ترديت رداء المشيب

لم يبد لي ستين حولا ولا
بلوت من اخلاقه مايريب

افسده الدهر ومن ذا الذي
يحافظ العهد بظهر المغيب

ثم افترقنا لم اصب مثله
عمري ، ومثلي ابدا لايصيب

- ٥٤٦٠ -

فاعجب لها من فرقة باعدت
بين الفين وكل حبيب (١٨)

وانشدني لنفسه من قديم شعره :

قالوا نهته الاربعون عن الصبا
واخو المشيب يحور ثمت يهتدي

كم حار في ليل الشباب فدله
صبح المشيب على الطريق الاقصد

واذا عددت سني ثم نقصتها
زمن الهموم ، فتلك ساعة مولدي (١٩)

تعجب من مقاصد هـذه الكلم ، وتعـرض لموارد هـذه الحـكم ، واقض العجب كل العجب ، مـن غزارة هـذا الادب ، ولولا ان المداد افضل ماترقم به صحائف الكتـب ، لحـررت هـذه الابيات بمـاء الذهب ، فهذا ابلغ من قول ابي فراس بن حمدان:

ماالعمر ماطالت به الدهور
العمر ماتم به السرور

ايام عزي ونفاذ امري
هي التي احسبها من عمري (٢٠)

فالفضل للمتقدم في ابتكار المعنى وللمتأخر في المبالغة ، حيث ذكره في بيت واحد ولم يجعل له نصيبا من العمر الا ساعة مـولده . فجميع الحياة على الحقيقة نصب ، والم وتعب .
وانشدني ايضا لنفسه من قديم نظمه :

تجرم حتى مللت عتابة
واعرضت عنه لااريد اقترابه

اذا سقطت من مفرق المرء شعرة
تأفف منها ان تمس ثيابه (٢١)

وانشدني من قديم قوله في السلوان ايضا :

لم يبق لي في هواكم ارب
سلوتكم ، والقلوب تنقلب

اوضحتم لي سبل السلو وقد
كانت لي الطرق عنه تنشعب

الام دمعي من هجركم سرب
فان ، وقلبي ومن غدركم يجب

ان كان هذا تعبدني ال
حب فقد اعتقتني الريب

احببتكم فوق ماتوهمه ال
ناس وخنتم اضعاف ماحسبوا ٢٢)

تأمل هذه المعاني والابيات ، بعين التأني والثبات ، تعرف ان قائلها من ذوي الحمية ، والنفوس الابية ، والهمم العلية ، وكل من يملكه الهوى ويسترقه ، قلما يطلقه السلو ويعتقه ، الا ان يكون كبيرا غلب عقله هواه ، واستهجن في الشهوات المذمومة نيل مناه . وقوله : « فقد اعتقتني الريب » في غاية الجودة ونهاية الكمال ، اعذب من الزلال ، واطيب من السحر الحلال ، والعب بقلوب المتيمين من نسيم الشمال .
وقوله ايضا من قديم شعره :

اذا اختفت في الهوى عني اساءته
ابدى تجنيه ذنبي قبل اجنيه

-٥٤٦٢-

كذلك انسان عيني لايزال يرى
عيبي ، ولست ارى العيب الذي فيه (٢٣)

وقوله ايضا :

يادهر مالك لايصد
ك عن اساءتي العتاب

امرضت من اهوى ويأ
بى ان امرضه الحجاب

لو كنت تنصف كانت الا
مراض لي وله الثواب (٢٤)

قد قيل في مرض الحبيب كل معنى بكر ، مخترع لديه ومبتدع فكر ، الا ان هذه الابيات لطيفة المغزى ، طريفة المعنى ، مقصدها سهيل ، وموردها سهل ، لو سمعتها في البادية عقيل لم يثبت لها عقل ، ولا شك ان حبيبه عند استنشاق هوائها ، فاز ببرء مهجته وشفائها .

هذه الابيات كنت نقلتها من تاريخ السمعاني فلما لقيت مؤيد الدولة قرأتها عليه ، وكنت اثبتها على هذا الوجه ، ابصر مني العينان ، وان لم يحط السمعان ، من انباء تاريخ السمعاني ، الحاوي للمعاني ، ابياتا رواها ، وناظمها بماء الحكمة رواها ، وقد بددتها في كتابي هذا غيرة من الملتقط ، وحفظا لها من العيي المشتط المشترط . واما اشعاره التي انشدنيها بدمشق سنة احدى وسبعين من نظمه على الكبر قوله حين قلت له : هل لك معنى مبتكر في الشيب

لو كان صد معاتبا ومغاضبا
ارضيته وتركت خدي شائبا

لكن رأى تلك النضارة قد ذوت
لما غدا ماء الشبيبة ناضبا

ورأى النهى بعد الغواية صاحبي
فثنى العنان يريغ غيري صاحبا

وابيه ، ماظلم المشيب وانه
املي ، فقلت عساه عني راغبا

انا كالدجى لما تناهى عمره
نشرت له ايدي الصباح ذوائبا(٢٥)

وهذا معنى مبتكر في الشيب لم يسبق اليه :
وقوله

انستني الايام ايام الصبا
وذهلت عن طيب الزمان الذاهب

وتذكرت حالي فكل مأربي
فيما مضى ماهن لي بمأرب

وقوله :

نهار الشيب يكشف كل ريب
تكفل ستره ليل الشباب

ينم على المعايب والمساوي
كما نم النصول على الخضاب

فهل لي بعد أن ضحى بفودي
نهار الشيب ، عذر في التصابي

وقوله :

افدي بدورا تمالوا
على الملال ولجوا

قد كنت احسب اني
من هجركم لست انجو

هذا الذي كنت اخشى
فأين ماكنت ارجو

وقوله :

قل للذي خضب المشيب جهالة
دع عنك ذا فلكل صبغ ماح

او ماترى صبغ الليالي كلما
جددنه يمحوه ضوء صباح

وقوله في محبوس :

حبسوك والطير النواطق انما
حبست لميزتها على الانداد

وتهيبوك وانت مودع سجنهم
وكذا السيوف تهاب في الاغماد

ماالحبس دار مهانة لذوي العلى
لكنه كالغيل للاساد

وانشدني قوله في الشمعة :

انظر الى حسن الشمع يظهر لل
رائين نورا وفيه النار تستعر

كذا الكريم تراه ضاحكا جذلا
وقلبه بدخيل الهم منفطر (٢٦)

وقوله :

لارمين بنفسي كل مهلكة
مخوفة يتحاماها ذوو الباس

حتى اصادف حتفي فهو اجمل بي
من الخمول واستغني عن الناس

وقوله :

العجز لاينقص رزقا ولا
يزيده حول ولافحص

كل له رزق سيأتيه لا
زيادة فيه ولانقص

قدضمن الله لنا رزقنا
جاءت به الاثار والنص

فما لنا نطلب من غيره
لولا قنوط النفس والحرص

وقوله في نفاق الدهر :

نافقت دهري فوجهي ضاحك جذل
طلق ، وقلبي كئيب مكمد باك

وراحة القلب في الشكوى ، ولذتها
لو امكنت ، لاتساوي ذلة الشاكي

قد تمكنت كلمة « لو امكنت » فما احسنها موقعا ، واجملها موضعا ، ثم قارن اللذة بالذلة وهما متجانسان .
وقوله :

اذا حال حالك صبغ الشباب
سقى عهده الغيث من حائل

فماذا الغرور بزور الخضا
ب لولا التعلل بالباطل

وقوله من قديم شعره :

أأن غض دهري من جماحي اوثنى
عناني او زلت باخمصي النعل

تظاهر قوم بالشمات جهالة
وكم احنة في الصدر ابرزها الجهل

وهل انا الا السيف فلل حده
قراع الاعادي ثم ارهفه الصقل (٢٧)

وقوله :

لاتوص عند الموت إل
لا بالوديعة والديون

ودع التشاغل بالحطا
م كفاك شغلك بالمذون

فوصية الاموات بالا
حياء من شعب الجذون

وماحسن بيت المعري :

يوصي الفتى عند الممات كأنه
يمر فيقضي حاجة ويعود

ورأيته وقد اهدي له دهن البلسان ، فسألت عنه ، فقال : كتبت الى المهذب الحكيم ابن النقاش هذه الابيات على لسان :

ركبتي تخدم المهذب في العلـ
ـم وفي كل حكمة وبيان

وهي تشكو اليه تأثير طول الـ
ـ عمر في ضعفها ومر الزمان

فبها فاقة الى ما يقوي
ـها على مشيها من البلسان

كل هذا علالة ، ما لمن حا
زالثمانين بالنهوض يدان

رغبة في الحياة من بعد طول ال
ـ عمر ، والموت غاية الانسان

وقوله:

لاتحسدن على البقاء معمرا
فالموت اسر مايؤول اله

واذا دعوت بطول عمر لامريء
فاعلم باذك قد دعوت عليه

وقوله

يارب عفوا عن مسـ
يء خائفـ ما كان منه

متيقن ان سوفـ يصـلـ
ي النار ان لم تعفـ عنه

لما انشدني في الشيب لنفسي

ليل الشباب تولى
والشيب صبح تألق

ما الشيب الاغبار
من ركض عمري تعلق

وقلت:
ما اظن اني سبقت الى هذا المعنى فانشد لبعضهم بيتين هما

قالوا غبار قد علا
ك فقلت: ذا غير الغبار

هذا الذي نقل الملو
ك الى القبور من الديار

قلت : ولكن حققت انه من غبار ركض العمر ، وهو معنى مبتكر .
وحضرت عند الامير مؤيد الدولة اسامة يوما اخر بدمشق سنة احدى وسبعين ، فانشدني قوله في القديم في اسـتدعاء صـديق الى مجلس المنادمة بالموصل وقد غاب عنها :

امهذب الدين استمع من عاتب .
لولا ودادك لم يفه بعتاب

اتطيع في الدهر وهو كما ترى
يقضي علي بفرقة الاحباب

امللتني وجعلت سكرك حجة
ونهضت ، ام لم تستحل شرابي

قسما لئن لم تأتني متنصلا
متبرعا بالعذر والاعتاب

لاحرمن الخندريس واغتدي
متنمسا بالماء والمحراب

وتبوء معتمدا باثم تنسكي
وبعابه ، اعظم به من عاب

وقوله في الشوق والمكاتبة :

لو ان كتبي بقدر الشوق واصلة
تتابعت كدموعي او كأنفاسي

وان وجدت سبيلا او قدرت على
خلاص عقل اسير في يد الكاس

اجريت اسود عيني فوق ابيضها
بمائها لامدادا فوق قرطاس

وقلت للشوق ياسحبان امل على
يدي ، اعيذك من عي وابلاس

حتى ابوح بما اشكو اليك كما
باح المريض بشكواه الى الاسي

وقوله في العذار :

انظر شماتة عاذلي وسروره
بكسوف بدري واشتهار محاقه

غطى ظلام الشعر من وجناته
صبحا تضيء الارض من اشراقه

وهو الجهول يقول هذا عارض
هو عارض لكن على عشاقه (٢٨)

وانشدني ايضا لنفسه :

ماانت اول من تناءت داره
فعلام قلبك ليس تخبو ناره

اما السلو او الحمام ، وماسوى
هذين قسم ثالث تختاره

هذا وقوفك للوداع وهذه
اظعان من تهوى وتلك دياره

فاستبق دمعك فهو اول خاذل
بعد الفراق وان طما تياره

فذر الدموع تقل عن امد النوى
ان لم يكن من لجة تمتاره

ليت المطايا ماخلقن فكم دم
سفكته ، يثقل غيرها اوزاره

ماحتف انفسنا سواها انها
لهي الحمام اتيح او انذاره

لو ان كل العيس ناقة صالح
ماساءني اني الغداة قذاره (٢٩)

وتناشدنا بيتـا للوزير المغـربي (٣٠) في وصـف خفقـان القلب وتشبيهه بظل اللواء الذي تخترقه الريح وهـو :

كأن قلبي اذا عن اذ كاركم
ظل اللواء عليه الريح تخترق

فقال الامير مؤيد الدولة اسامة : لقد شبهت القلب الخافق وبالغت في تشبيهه واربيب عليه في قولي من ابيات هي :

احبابنا ، كيف اللقاء ودونكم
عرض المهامه والفيافي الفيح

ابكيتم عيني دما لفراقكم
فكأنما انسانها مجروح

والبيت المشار اليه :

وكأن قلبي حين يخطر ذكركم
لهب الضرام تعاورته الريح

فقلت له: صدقت ، فان الوزير المغربي قصد تشبيه خفقان القلب وانت شبهت القلب الواجـد بـاللهب ، وخفقـانه بـاضطرابه عند اضطرامه لتعاور الريح ، فقد اربيت بالفصاحة على ذلك الفصيح . وانشدني ايضا من قوله ايام شبابه وهـو معتقـل وقـد جـرى ذكر الخيال :

ذكر الوفاء خيالك المنتاب
فألم وهـو بودنا مرتاب

نفسي فداؤك من حبيب زائر
متعتب عندي له الاعتاب

مستشرف كالبدر خلف حجابه
او في الكرى ايضا عليك حجاب

ودي كعهدك والديار قريبة
من قبل ان تتقطع الاسباب

ثبت فلا طول الزيارةناقص
منه ، وليس يزيده الاغباب

حظر الوفاء علي هجرك طائعا
واذا اقتسرت فما علي عتاب (٣١)

قلت له احسنت . وتذاكرنا قول ابي العلاء المعري في الخيال :

لو حط رحلي فوق النجم رافعه
الفيت ثم خيالا منك منتظري

وابلغ من هذا في بعد المسافة :

وذكرت كم بين العقيق الى الحمى
فجزعت من امد النوى المتطاول

وعذرت طيفك في الجفاء فإنه
يسري فيصبح دوننا بمراحل

ثم انشدني الامير اسامة قصيدة نونية ، لنفسه ، منها :

محيا ماأرى ام بدر دجن
وبارق مبسم ام برق مزن

وثغر ام لآل ام اقاح
وريق ام رحيق بنت دن

ولحظ ام سنان ركبوه
باسمر من نبات الخط لدن

ومنها :

فيامن منه قلبي في سعير
وعيني منه في جنات عدن

اذا فكرت في انفاق عمري
ضياعا في هواك قرعت سني

وآسف كيف اخلق عهد ودي
وآسى كيف اخاف فيك ظني

واعجب مالقيت من الليالي
واي فعالها بي لم يسؤني

تقلب قلب من مثواه قلبي
وجفوة من ضممت عليه جفني (٣٢)

وانشدني لنفسه من قصيدة :

حتام ارغب في مودة زاهد
واروم قرب الدار من متباعد

والام التزم الوفاء لغادر
جان واسهر مقلتي لراقد

واقول هجرته مخافة كاشح
يغري بنا ، وحذار واش حاسد

- ٥٤٧ -

واظنه يبدي الجفاء ضرورة
واذا قطيعته قطيعة عامد

ياهاجرا افنى اصطباري هجره
وابتز ثوب تماسكي وتجالدي

كيف السبيل الى وصالك بعدما
عفيت بالهجران سبل مقاصدي

ويلومني في حمل ظلمك جاهل
يلقى جوى قلبي بقلب بارد

يزري على صبري بصبر مسعد
ويصد عن دمعي بطرف جامد

اتراك يعطفك العتاب وقلما
يثني العتاب عنان قلب شارد

هيهات وصلك عند عنقا مغرب
ورضاك ابعد من سهى وفراقد

ومن العناء طلاب ود صادق
من ماذق وصلاح قلب فاسد(٣٣)

وانشدني لنفسه في الحباب من ابيات :

وقد علاها حباب
كاللؤلؤ المنظوم

رأيت شمس نهار
قد رصعت بالنجوم

واجتمعنا عند الملك الناصر صلاح الدين بدمشق ليلة ، وكان يلعب بالشطرنج ، فقال لي الامير اسامة : اما انشدك البيتين اللذين قلتهما في الشطرنج ؟ فقلت : هات . فانشدني لنفسه :

- ٥٤٧٥ -

انظر الى لاعب الشطرنج يجمعها
مغالبا ، ثم بعد الجمع يرميها

كالمرء يكدح للدنيا ويجمعها
حتى اذا مات خلاها ومافيها

وانشدني لنفسه ، وقد نظمه في غرض له في نور الدين رحمه الله :

سلطاننا زاهد والناس قد زهدوا
له فكل على الخيرات منكمش

ايامه مثل شهر الصوم طاهرة
من المعاصي ، وفيها الجوع والعطش (٣٤)

وانشدني لنفسه :

أأحبابنا هلا سبقتم بوصلنا
صروف الليالي قبل ان نتفرقا

تشاغلتم بالهجر ، والوصل ممكن
وليس الينا للحوادث مرتقى

كأنا اخذنا من صروف زماننا
امانا ومن جور الحوادث موثقا (٣٥)

وقال :

قمر اذا عاينته شغفا به
غرس الحياء بوجنتيه شقيقا

وتلهبت خجلا ، فلولا ماؤها
مترقرقا فيها لصار حريقا

وازور عني مطرقا فأضلني
أن أهتدي نحو السلو طريقا(٣٦)

وقال :

صد عني وأعرضا
وتناسى الذي مضى

واستمر الصدود وان
قطع الوصل وانقضى

واختفت في الهوى نذو
ب بدت حين أبغضا

صرح الان هجره
لي بما كان عرضا

كل عيب يبين في الســ
خط يخفى مع الرضا

وإذا استعطف الملو
ل تجنى وأعرضا

ليت من ملني وأز
حل جسمي وأمرضا

عاد بالوصل أو قضى
في العدل إذ قضى(٣٧)

وقال :

واقول للعين في يوم الوداع وقد
فاضت بدمع على الخدين مستبق

تزودي اليوم من توديعهم نظرا
ثم افرغي في غد للدمع والارق(٣٨)

وقال في المعنى :

ياعين في ساعة التوديع يشغلك ال
بكاء عن آخر التسليم والنظر

خذي بحظك منهم قبل بينهم
ثم اجهدي بعدهم للدمع والسهر(٣٩)

وقال :

يامدعي الصبر عن أحبابه ، وله
دمع إذا حن ذكراهم يكذبه

خلفت قلبك في أرض الشآم وقد
أصبحت في مصر يامغرور تطلبه

هلا غداة النوى استصحبته وإذا اخـ
ـتار المقام فهلا كنت تصحبه

أفردته بالاسى في دار غربته
وعدت ، لاعدت ، تبكيه وتندبه

هيهات قد حالت الايام بينكما
فعز نفسك عما عز مطلبه

وقال :

صبري على فقد إخواني وفرقتهم
غدر ، وأجمل بي من صبري الجزع

تقاسمتهم نوى شطت بهم وردى
فالحي كالميت ما في قربه طمع

واصبحت وحشة الغبراء دونهم
من بعد أنسي بهم والشمل مجتمع

وعشت منفردا منهم وأقسم ما
يكاد منفرد بالعيش ينتفع(٤٠)

وقال :

ما حيلتي في الملول يظلمني
وليس إن جار منه لي جار

وداده كالسحاب منتقل
وعهده كالسراب غرار

آمن ما كنت منه فاجأني
بغدره ، والملول غدار

عوني عليه مدامع سفح
وزفرة دون حرها النار(٤١)

وقال :

أصبحت لا أشكو الخطوب وإنما
أشكو زمانا لم يدع لي مشتكى

أفنى أخلائي وأهل مودتي
وأباد إخوان الصفاء وأهلكا

عاشوا براحتهم ومت لفقدهم
فعلي يبكي ، لاعليهم ، من بكا

وبقيت بعدهم كأني حائر
بمفازة لم يلق فيها مسلكا(٤٢)

وقال :

ونازح في فؤادي من هواه صدى
لم يرو غلته علي ولا نهلي

في فيه ما في جنان الخلد من درر
ومن رضاب ومن خمر ومن عسل

لو كنت أعلم أن البين يفجؤني
وريت ، قبل النوى ، قلبي من القبل(٤٣)

وقال :

إن يحسدوا في السلم منـ
ـزلتي من العز المنيف

فبما أهين النفس في
يوم الوغى بين الصفوف

لطالما أقدمت إقـ
ـدام الحتوف على الحتوف

بعزيمة أمضى على
حد السيوف من السيوف(٤٤)

وقال :

إلق الخطوب إذا طرقـ
ـن بقلب محتسب صبور

فسينقضي زمن الهمو
م كما انقضى زمن السرور

فمن المحال دوام حا
ل في مدى العمر القصير(٤٥)

و قال :

بكاء مثلي من وشك النوى سفه
وأمر صبري بعد البين مشتبه

فما يسوفني في قربهم أمل
وليس في اليأس لي روح ولارفه

أكاتم الناس أشجاني وأحسبها
تخفى ، فيعلنها الاسقام والوله

كانني من ذهول الهم في سنة
وناظري قرح الاجفان منتبه

أذنبت ثم أحلت الذنب من سفه
على النوى ولبئس العادة السفه

أقمت طوعا وساروا ثم أندبهم
هلا صحبت نواهم حيث ماتجهوا

أضر بي ناظر تدمى محاجره
وخاطر مذ نأوا حيران منشده

فما يلائم ذا بعد النوى فرح
ولا يروق لهذا منظر نزه

سقيا لدهر نعمنا في غضارته
إذ في الحوادث عما ساءنا بله

وعيشنا لم يخالط صفوه كدر
وودنا لم تشب اخلاصه الشبه

مضى وجاء زمان لانسر به
كل البرية منه في الذي كرهوا(٤٦)

وقال في الزهد :

مثوبة الفاقد عن فقده
بصبره ، أنفع من وجده

يبكيه في حزن عليه فهل
يطمع في التخليد من بعده

ما حيلة الناس وهل من يد
لهم بدفع الموت أو صده

وروده لابد منه ، فما
يذكر ما لا بد من ورده

سهامه لم يستطع ردها
داوود بالمحكم من سرده

ولا سليمان ابنه ردها
بملكه والحشد من جنده

عدل تساوى الخلق فيه فما
يميز المالك من عبده

كل له حد إذا ماانتهى
إليه وافاه على حده

تجمعنا الارض ، وكل أمرى
في لحده كالطفل في مهده

أما ترى أسلافنا عرسوا
بمنزل دان على بعده

تبؤوا الارض ولم يخبروا
عن حر مثواهم ولا برده

لحادث أسكتهم أمسكوا
عن ابتداء القول أو رده

اونطقوا قالوا التقى خير ما
تزود العبد إلى لحده

فارجع إلى الله وثق بالذي
أتاك في الصادق من وعده
الصابرين الاجر ، والامن من
عذابه ، والفوز في خلده(٤٧)

وقال :

إيها المغرور مهلا
بلغ العمر مداه
كم عسى من جاوز الســـ
ـبعين يبقى كم عساه
أنسيت الموت أم ، أهـ
ـذك الله لقاه
تظلم الناس لمن تر
جوه أو تخشى سطاه
أنت كالتنور يصلى الـــ
ـنار في ذفع واه

وقال يرثي ولدا له :

أزور قبرك والاشجان تمنعني
من أن أرى نهج قصدي حين انصرف
فما أرى غير أحجار منضدة
قد احتوتك ، ومأوى الدرة الصدف
فانثني لست أدري أين منقلبي
كأنني خائف في الليل يعتسف
إن قصر العمر بي عن أن أرى خلفا
له ففي الاجر عند الله لي خلف

أقول للنفس إذ جد النزاع بها
يانفس ويحك أين الأهل والسلف

أليس هذا سبيل الخلق أجمعهم
وكلهم بورود الموت معترف

كم ذا التأسف أم كم ذا الحنين وهل
يرد من قد حواه قبره الأسف(٤٨)

وقال:

تقلب أحوال الزمان أفادني
جميل الاسى فيما ينوب من الخطب

إذا حل ما لايستطاع دفاعه
فما أجمل الصبر الجميل بذي اللب

وقال :

صبرا لأيام تنـــــــا
هت ، في معاندتي وعضي

فالدهر كالميزان ما
ينفك من رفع وخفض

هذا مع الافلاك مر
تفع وذا بحضيض أرض

وإلى الفناء جميع من
خفضته أو رفعته يفضي

وقال :

أرجأت كتبي إلى حين اللقاء فقد
أكدى رجائي ، وزاد الشوق إرجائي

وألجأتني إلى صبري موانع أيـ
ـامي فلم يسلني سعيي وإلجائي

حتى أحاطت بي الأشواق واشتملت
علي واستحوذت من كل أرجائي

فهل سبيل إلى قرب يميط شجا
صدري فقد طال تبريحي وإشجائي

وقال :

حسن التواضع في الكريم يزيده
فضلا على الاضراب والامثال

يكسوه من حسن الثناء ملابسا
تنبو عن المترفع المختال

إن السيول إلى القرار سريعة
والسيل حرب للمكان العالي(٤٩)

وقال وكتب بها الى ولده الامير مرهف من حصن كيفا جوابا عن كتاب أنفذه إليه مع مستميح لم يتمكن من بلوغ مأثره من بره :

أبا الفوارس ، ما لاقيت من زمني
أشد من قبضة كفي عن الجود

رأى سماحي بمنزور تجانف لي
عنه وجودي به فاجتاح موجودي

صرت إن هزني جان تعود أن
يجني نداي رآني يابس العود

وقال في المعنى :

أبا الفوارس إن أنكرت قبض يدي
من بعد بسطتها بالجود والكرم

الذنب للموت أرجاني إلى زمن
غلت أكف الندى بؤساه بالعدم

وقال :

حذرتني تجاربي صحبة العا
لم حتى كرهت صحبة ظلي

ليس فيهم خل إذا ناب خطب
قلت ما لي لدفعه غير خلي

كلهم يبذل الوداد لدى اليسـ
ـر ولكنهم عدى للمقل

فاعتزلهم ففي انفرادك منهم
راحة اليأس من حذار وذل

وقال :

سقوف الدور في خربرت(٥٠) سود
كستها النار أثواب الحداد

فلا تعجب إذا ارتفعت علينا
فللحظ اعتناء بالسواد

بياض العين يكسوها جمالا
وليس النور إلا في السواد

ونور الشيب مكروه، وتهوى
سواد الشعر أصناف العباد

وطرس الخط ليس يفيد علما
وكل العلم في وشي المداد

وقال يرثي ولده غتيقا :

غالبتني عليك أيدي المنايا
ولها في النفوس أمر مطاع

فتخليت عنك عجزا ولو أغـ
ـنى دفاعي لطال عنك الدفاع

وأرادت جميل صبري فرامت
مطلبا في الخطوب لا يستطاع

وقال فيه :

كلما امتد ناظري رده الدمـ
ـع حسيرا عن أن يرى لك شبها

لم يزقني من بعد فقدك مرأى
فيه للعين مستزاد وملهى

كنت عندي ألذ من رغد العيـ
ـش وأحلى من الحياة وأشهى

وقال في مـديح الملك الناصر صلاح الدين سلطان مصر والشـا واليمن :

سمعت صروف الدهر قول العاتب
وتجنبت حرب المليك الحارب

وتجافت الايام عن مطلوبه
ومراده ، أكرم به من طالب

هو من عرفن فلو عصاه نهاره
لرماه نقع جيوشه بغياهب

وإذا سطا أضحت قلوب عداته
تلوى كمخراق(٥١) بكفي لاعب

من ذا يناوي الناصر الملك الذي
في كفه بحرا ردى ومواهب

وإذا سرى خلت البسيطة لجة
أمواجها بيض وبيض قواضب

ملك القلوب محبة ومهابة
فاقتادها طوعا بهيبة غاصب

وله في الشيب والانحناء والعصا :

حناني الدهر وأبـ
ـلتني الليالي والغير

فصرت كالقوس ومن
عصاي للقوس وتر(٥٢)

اهدج في مشيي وفي
خطوي فتور وقصر

كأنني مقيد
وانما القيدالكبر

والعمر مثل الماء في
آخره يأتي الكدر (٥٣)

وله في الخيال:

ياهاجرا راضيا وغضبانا
ومعرضا هاجدا ويقظانا

هجرت اما لهفوة فرطت
مني اعلم الطيف بالذي كانا(٥٤)

وله:

يهون الخطب ان الدهر ذوغير
وأن أيامه بين الورى دول

وأن ما ساء أو ماسرمنتقل
عنا ، والا فانا عنه ننتقل

وله:

تناسبني الآجال كأنني
رذية سفر بالفلاة حسير

ولما تدع مني الثمانون منة
كأني إذا رمت القيام كسير

أؤدي صلاتي قاعدا ، وسجودها
علي إذا رمت السجود ، عسير

وقد أنذرتني هذه الحال أنني
دنت رحلة مني وحان مسير

وله من قصيدة يصف ضعفه في كبره من قطعة :

فاعجب لضعف يدي من حملها قلما
من بعد حطم القنا في لبة الاسد

وانشدني أيضا لنفسه :

لي مولى صحبته مذهب العمـ
ـر فلم يرع حرمتي وذمامي

ظنني ظله أصاحبه الدهـ
ـر على غير نائل واحترام

فافترقنا كأنه كان طيفا
وكأني رأيته في المنام(٥٥)

وللامير مجد الدين مؤيد الدولة ابن منقذ في مدح الملك الناصر :

لهفي لشرخ شبيبتي وزماني
وتروحي لفتوة وطعان

أيام لاأعطي الصبابة مقودي
أنفا ، ولايثني الغرام عناني

وإذا اللواحي ، في تقحمي الوغى
لا في المدام ولا الهوى ، تلحاني

وإذا الكماة على يقين أنهم
يلقى الردى في الحرب من يلقاني

أعتدهم ، وهم الاسود ، فرائسي
فهم دريئة صارمي وسناني

والأسد تلقى مثلها مني إذا
لاقيتها بقوى يد وجنان

كم قد حطمت الرمح في لباتها
فتركتها صرعى على الأذقان

حتى إذا السبعون قصر عشرها
خطوي ، وعاث الضعف في أركاني

أبلتني الأيام حتى كل عن
ضرب المهند ساعدي وبناني

هذا وكم للدهر عندي نكبة
في المال والأهلين والاوطان

نوب يروض بها إباي وقد عسا
عودي ، فما تثنيه كف الحاني

لاأستكين ولا ألين وقد بلا
فيما مضى صبري على الحدثان

فالآن يطمع في اهتضامي إنه
قد رام أمرا ليس في الامكان

والناصر الملك المتوج ناصري
وعلاه قد خطت كتاب أماني

قد كنت أرهب صرف دهري قبله
فأعاد صرف الدهر من أعواني

أنا جاره ويد الخطوب قصيرة
عن أن تنال مجاور السلطان

ملك يمن على أسارى سيبه
فيعيدهم في الاسر بالاحسان

خضعت له صيد الملوك فمن برى
أقلامه غرر على التيجان

ملأ القلوب محبة ومهابة
فخلت من البغضاء والشنآن

لي منه إكرام علوت به على
زهر النجوم ، ونائل أغناني

قرن الكرامة بالنوال مواليا
فعجزت عن إحصاء ما أولاني

فنداه أخلف ما مضى من ثروتي
وبقاؤه عن أسرتي أسلاني

فلأهدين إلى علاه مدائحا
تبقى على الأحقاب والأزمان

مدحا أفوق بها زهيرا مثلما
فاق المليك الناصر ابن سنان(٥٦)

ياناصر الاسلام حين تخاذلت
عنه الملوك ومظهر الايمان

بك قد أعز الله حزب جنوده
وأذل حزب الكفر والطغيان

لما رأيت الناس قد أغواهم الشـ
ـيطان بالالحاد والعصيان

جردت سيفك في العدى ، لارغبة
في الملك بل في طاعة الرحمان

فضربتهم ضرب الغرائب واضعا
بالسيف ما رفعوا من الصلبان

وغضبت لله الذي أعطاك فصـ
ـل الحكم غضبة ثائر حران

فقتلت من صدق الوغى ، ووسمت من
نجى الفرار بذلة وهوان

وبذلت أموال الخزائن بعدما
صرمت وراء خواتم الخزان

في جمع كل مجاهد ومجالد
ومبارز ومنازل الاقران

من كل من يرد الحروب بأبيض
عضب ، ويصدر وهو أحمر قان

ويخوض نيران الوغى ، وكأنه
ظمآن خاض موارد الغدران

قوم إذا شهدوا الوغى قال الورى :
ماذا أتى بالاسد من خفان

لو أنهم صدموا الجبال لزعزعوا
أركانها بالبيض والخرصان

فهم الذخيرة للوقائع بالعدى
ولفتح ما استعصى من البلدان

أنت الذي علمتهم .....
.......فارس الفرسان

فاسلم مدى الايام يامن ما له
............ثان(٥٧)

واسعد بشهر الله فهو مبشر
لعلاك بالتأييد والغفران

في دولة عمت بنائلها الورى
فدعا لها بالخلد كل لسان

وله في الهزل:

خلع الخليع عذاره في فسقه

حتى تهتك في بغى ولواط

يأتي ويؤتى ، ليس يذكر ذا ولا
هذا ، كذلك إبرة الخياط

وله :

يا عاتبين عتاب المستريب لنا
لا تسمعوا في الهوى ما تدعي التهم

من لي بأن بسيط الارض دونكم
طرس وأني في أرجائه قلم

أسعى إليكم على رأسي ويمنعني
إجلالي الحب أن يسعى بي القدم

وله قصيدة مشهورة كتبها إلى دمشق بعد خروجه منها إلى مصر في زمان بني الصوفي(٥٨) كتبها إلى الأمير أنر ، ويشير إلى بني الصوفي ، أنشدنيها لنفسه وهي ذات تضمين(٥٩) :

ولوا ، ولما رجونا عدلهم ظلموا
فليتهم حكموا فينا بما علموا

ما مر يوما بفكري ما يريبهم
ولا سعت بي إلى ما ساءهم قدم

ولا أضعت لهم عهدا ولا اطلعت
على ودائعهم في صدري التهم

فليت شعري بم استوجبت هجرهم
ملوا فصدهم عن وصلي السأم

حفظت ما ضيعوا ، أغضيت حين جنوا
وفيت إذ غدروا ، واصلت إذ صرموا

حرمت ماكنت أرجو من ودادهم
ما الرزق الا الذي تجري به القسم

محاسني ، منذ ملوني بأعينهم ،
قذى ، وذكري في آذانهم صمم

وبعد لو قيل لي ماذا تحب وما
هواك من زينة الدنيا لقلت هم

هم مجال الكرى من مقلتي ، ومن
قلبي محل المنى ، جاروا أو اجترموا

تبدلوا بي ولا أبغي بهم بدلا
حسبي هم انصفوا في الحكم أو ظلموا

اراكبا تقطع البيداء همته
والعيس تعجز عما تدرك الهمم

بلغ أميري معين الدين مألكة
من نازح الدار لكن وده أمم

وقل له أنت خير الترك فضلك الـ
ـحياء والدين والاقدام والكرم

أنت أعدل من يشكى إليه ولي
شكية أنت فيها الخصم والحكم

هل في القضية يامن فضل دولته
وعدل سيرته بين الورى علم

-٥٤٩٦-

يضيع واجب حقي بعدما شهدت
به النصيحة والاخلاص والخدم

ما ظننتك تنسى حق معرفتي
إن المعارف في أهل النهى ذمم

ولا أعتقدت الذي بيني وبينك من
ود ، وإن أجلب الأعداء ، ينصرم

لكن ثقاتك ما زالوا بعتبهم
حتى استوت عندك الأنوار والظلم

باعوك بالبخس يبغون الغنى ، ولهم
لو أنهم عدموك ، الويل والعدم

والله ما نصحوا لما استشرتهم
وكلهم ذو هوى في الرأي متهم

كم حرفوا من معان في سفارتهم
وكم سعوا بفساد ، ضل سعيهم

أين الحمية والنفس الأبية إذ
ساموك خطة خسف عارها يصم

هلا أنفت حياء أو محافظة
من فعل ما أنكرته العرب والعجم

أسلمتنا ، وسيوف الهند مغمدة
ولم يرو سنان السمهري دم

وكنت أحسب من والاك في حرم
لايعتريه به شيب ولاهرم

وأن جارك جار للسموأل لا
يخشى الأعادي ولاتغتاله النقم

وما طمان(٦٠) بأولى من أسامة بالـــ
ـــوفاء لكن جرى بالكائن القلم

هبنا جنينا ذنوبا لايكفرها
عذر ، فماذا جنى الأطفال والحرم

ألقيتهم في يد الافرنج متبعا
رضى عدى يسخط الرحمن فعلهم

هم الأعادي ، وقاك الله شرهم
وهم بزعمهم الأعوان والخدم

إذا نهضت إلى المجد تؤثله
تقاعدوا ، فإذا شيدته هدموا

وإن عرتك من الايام نائبة
فكلهم الذي يبكيك مبتسم

حتى إذا ماانجلت عنهم غيابتها
بحد عزمك وهو الصارم الخذم

رشفت آخر عيش كله كدر
ووردهم من نداك السلسل الشبم

وإن أتاهم بقول عنك مختلق
واش ، فذاك الذي يحبى ويحترم

وكل من ملت عنه قربوه ومن
والاك فهو الذي يقصى ويهتضم

بغيا وكفرا لما أوليت من منن
ومرتع البغي لولا جهلهم وخم

جربهم مثل تجريبي لتخبرهم
فللرجال إذا ما جربوا قيم

هل فيهم رجل يغني غناي إذا
جلى الحوادث حد السيف والقلم

أم فيهم من له في الخطب ، ضاق به
ذرع الرجال ، يد يسطو بها وفم

لكن رأيك أدناهم وأبعدني
فليت أنا بقدر الحب نقتسم

وما سخطت بعادي إذ رضيت به
وما لجرح إذا أرضاكم ألم

ولست آسي على الترحال من بلد
شهب البزاة سواء فيه والرخم

تعلقت بحبال الشمس فيه يدي
ثم انثنت وهي صفر ماؤها ندم

فاسلم فما عشت لي فالدهر طوع يدي
وكل ما نالني من بؤسه نعم(٦١)

وأردت أن أورد من نثره ما يزهو فجره ، ويبهر سحره ، فوجدت له جواب كتاب كتبه القاضي الفاضل ابن البيساني(٦٢) إليه من مصر عند عوده إليها ، ونحن بدمشق سنة إحدى وسبعين ، وأثبت أولا الرسالة الفاضلية وهي أبيبة غريبة ، صنيعة بديعة ، جامعة للدرر ، لامعة بالغرر ، وهي :

وصل كتاب الحضرة الشامية الاجلية ، المؤيدة الموفقة المكرمة ، مجد الدين ، قدوة المجاهدين ، شيخ الامراء ، أمين العلماء ، مؤيد الدولة ، عز الملة ، ذات الفضيلتين ، خالصة أمير المؤمنين ، لازالت رياض ثنائها متناوحة ، وخطرات الردى دونها متنازحة ، والبركات إلى جنابها متوالية ، والليالي بأنوار سعادتها متلالية ، والايام الجافية ، عن بقية الفضل بها متجافية ، وأحكامها الهافية ، تاركة للمجد فيها فئة تتحيز ، إليها المكرمات إذا لم يكن لها فية . فأنشده ضالة هوى كان لنشدانها مرصدا ، ورفع له نارا موسوية سمع عندها الخطاب وآنس الخير ووجد الهدى ، وكانت نار الغليل ، في فؤاده بخلاف نار الخليل ، فإنها لاتقبل ندى الاجفان بأن يكون بردا وسلاما ، ولاترى بمائها إلا أضرى ما كانت ضراما ، وشهد الله حوالة على علمه بما هو فيه ، لا إحالة بما يخالفه الضمير وينافيه ، لقد كان العبد ناكس الرأس خجلا ، غضيض الطرف حياء ، مقيد النظر إطراقا ، حصر القول تشورا(٦٣) منه ، فارقها على تلك الصفة فلا هو قضى من حقها فرائض لزمت ، والله وتعينت ، ولا الضرورة في مقامها بحيث تبلغه أنسها أننت ، ولا مدت هذه الطيفية والسحابة الصيفية بالذوى المستأذفة ما اقتربت ، ولا الايام بالبعد ماأساءت فإنها بالقرب ما أحسنت .

وإن امرءا يبقى على ذا فؤاده
ويخبر عنه ، إنه لصبور

ويعود إلى ذكر الكتاب الكريم ، وسجد لمحرابه وسلم ، وحسب سطوره مباسم تبسم ، ووقف عليه وقوف المحب على الطلل يكلمه ولايتكلم ، وهطل جفنه وقد كان جمادى ودمعه وقد كان على صفحة المحرم ، وجدد له صبابة لايصحبها أمل ، وخاف أن لايدرك الهيجاء

حمل(٦٤) ، وقال الكتاب :
إنا محيوك فاسلم أيها الطلل(٦٥)

وعز ، والله ، عليه أن يدخل كاتبه القلوب ويخرج من المقل ، وأنشد نيابة عنها :

وإن بلادا ما احتلت بي لعاطل
وإن زمانا ما وفى لي لخوان

وما يحسب العبد أن الملك يعجز عن واحد وهو بالورى مستقل ، وأن السحاب يعرض عن ذكي الروض وهو على الفلا مستهل .

ولقد كتب في هذا المعنى بما يرجو أن لا يرجى ، وأنهى منه ما اقتضى الصواب أن ينهى ، والله المسؤول لها في عاقبة حميدة ، وبقية من العمر مديدة ، فإنها الآن ذوح الأدب وطوفانها العلم الذي في صدرها ، ولا غرو أن يبلغ عمره بعمرها ، على أن يتحقق خلودها في الجنة بعملها ، وفي الدنيا بذكرها ، فإن الدارين يتغايران على عقائل فخرها ، ولايتغيران عن إجرائها على رفع قدرها ، وعلى أنها طالما أقامت الحد على الدنيا السكرى حتى بلغت في حدها من العمر الثمانين ، وأننت الايام بسلاح الحرب من سيفها وسلاح السلم من قلمها تأديب الجانين ، وما حملت العصا بعد السيف حتى ألقت

إليها السلم فوضعت الحرب أوزارها ، ولا استقلت بآية موسى إلا لتفجر بها أنوار الخواطر وتضرب بحارها ، وما هي إلا رمح وكفى بيدها لها سنانا ، وما هي إلا جواد يجنب السنين خلفها فتكون أناملها لها عنانا .

وعلى ذكر العصا فإن الكتاب المجموع فيها حسب أنه ثانية العصا ، واضيف إلى محاسنها التي لاتحصى أو يحصى الحصا .

وكان من مدة قد شاهد بحلب كتبا بخط المولى الولد دلت على مضض ومرض ، ولعله الآن قد عوفي من الامرين ، وقرت بوجهه العين ، وجددت عهدا بنظرة ، وقرت عليها لسانه إسناد خبره ، وبلت غلة الحائم ، ورأت منه هلال الصائم ، وطالعها وجه الزمان المغضب منه بصفحة المباسم ، وفي مواعيد الانس منه الضامن الغارم ، وهو يسلم عليه تسليم الندى على ورق الورد ، ويستثمر الوفاء من غرس ذلك العهد ، ولكتاب الحضرة العالية من الخادم موقع الطوق من الحمام يتقلد فلا يخلع ، ويعجبها فلا تزال تسجع ، يجليه طوقا على الاسى إلا أنه بدر الدمع مرصع ، ولايمنعه منه شعار السرور أن يحزن لفرقتها ويجزع ، فإذا أنعم به فمع ثقة ويخشى أن يكون هذا الشرط له قاطعا ، بل مع من اتفق فانه كالمسك لا يدعه العرف الضائع أن يكون ضائعا :

أكتبه تكتب لي أمانا ماضيا
وابعثه تبعث لي زمانا راجعا

إن أشتريه بمهجتى فقليلة
فاسمح به ، فمتى عرفتك مانعا

وجواب مؤيد الدولة ، وقرأته عليه فسمعه :

- ٥٥٠٢ -

وصل الكتاب أنا الفداء لفكرة
نظمت نفيس الدر فيه أسطرا
وفضضته عن جونة فتأرصت
نفحاته مسكا وفاحت عنبرا
وأعدت فيه تأملي متحيرا
كيف استحال اللفظ فيه جوهرا

الخادم يخدم المجلس العالي الأجلي الاوحد الصدر الفاضل ، فضله الله برفع درجاته في الجنان ، كما فضله بمعجز البلاغة والبيان ، وبلغه من الخيرات أمله ، وختم بالحسنى عمله ، وجمل ببقائه الدنيا ، وأجزل حظه من رحمته في الاخرى ، بسلام يغاديه نشره ويراوحه ، ودعاء لايحجب عن الاجابة صالحه ، وثناء يضيق عن حصر فضائله منادحه ، وما عسى أن يقول مطريه ومادحه ، والفضل نغبة من بحره الزاخر ، وقطرة من سحابه الماطر ، تفرد به فما له فيه من نظير وسبق من تقدمه في زمانه الأخير ، فتق عن البلاغة أكماما تزينت الدنيا منها بالاعاجيب ، وأتى بآيات فصاحة كادت أن تتلى في المحاريب ، إذا استنطقت ازدحمت عليها العقول والاسماع ، ووقع على الاقرار بإعجازها الاتفاق والاجماع ، فسبحان من فضله بالبلاغة على الأنام ، وذلل له بديع كلام ما كأنه من الكلام ، تعجز عن سلوك سبيله الأفهام ، وتحار في إدراك لطف معانيه الأوهام ، هو سحر لكنه حلال ، ودر إلا أن بحره حلو سلسال .

ولايظن ، أدام الله ببقائه جمال الزمان وأهله ، ويسر له إظهار مكتوم فضله ، أن الخادم يسلك سبيل النفاق في مقاله ، ولا إعارة شهادة في وصف كماله ، لا والله
ماذلك منهبه ، ولاهو مراد المجلس العالي ولاأربه ، ولكنها شهادة ولايحل كتبها ، وقضية جرى بقول الحق فيها حكمها ، ولولا أن الخادم قد بقي فيه أثر من اقدام الشباب ، لأحجم عن اصدار

كتاب أو رد جواب ، لكنه على ثقة من كريم مساهلة المجلس العالي وحسن تجاوزه ، ويقين أن فضله جدير بستر نقص الخادم وسد معاوزه ، وهو يضرب عن ذكر ماعنده من الشوق الى كريم رؤيته ، والوحشة بمحبوب خدمته ، ويقتصر على ماقاله زهير :

ان تمس دارهم مني (٦٦) مباعدة
فما الأحبة الا هم وأن بعدوا

فأما ماأنعم به من ذكر الخادم في مطالعاته فهو كذكر موسى أخاه هرون عليه السلام في مناجاته ، ولاسواء ، موسى ذكر شقيقه ، والمجلس العالي ذكر رفيقه ، وهذه اليد البيضاء مضافة الى سالف اياديه ، مقابلة بالاعتراف بالمنة السامية ، فلقد شرفه بذكره في ذلك المقام العالي ، وان كان لايزال على ذكر الانعام المتوالي ، تقريب مالك رقه واكرامه قد شرفاه ، وانعامه قد أغناه عن الخلق وكفاه ، ان سأله أجاب سؤاله ، بما يحقق رجاءه وآماله وان أمسك عن غني فضله بفضله ، فاجأه بتبرع مواهبه وبذله ، فالخادم من تشريف مالك رقه ذو تاج وسرير ، ومن غزير انعامه في روضة وغدير ، وذلك ببركات المجلس العالي ويمن نقيبته ، وجميل رأيه في الخادم وحسن نيته ، لكن يشوب ما هو فيه من إنعام لم تبلغه أمانيه أسف قد أقض لين مهاده ، وسلك من القلب حبة سواده ، على ذاهب عمره ، وقوة اسره ، واذا لم يكن أبلاهما في خدمة مالك رقه ، وبذل رأسه بين يديه ابانة عن صحة ولائه وصدقه ، والخادم يتسلى من الخدم في المهم ، بخدمته بصالح دعائه في الليل المدلهم ، والله سبحانه يتقبل من الخادم فيه صالح دعائه ، وينصره على جاحدي نعائمه ، بمحمد وآله

فأما ماأنعم به من ذكر اصغر خدمه مرهف فهو يخدم بتقبيل قدمه ، والخادم يقول ماقاله أبو الفتيان ابن حيوس عن خدمة أبو الحسن رحمه الله لمحمود بن صالح .

- ٥٥٠٤ -

على أنه ، لافل غرب لسانه
مدى الدهر يحتاج مني مترجما (٦٧)

وهو يقوم بالجواب عن شريف الاهتمام ، وجزيل الأنعام .

وأما ماتطول به من ذكر كتاب « العصا » وشرفه ، حتى تـوهم انه أحسن فيما صنفه ، وعند وصوله من ديار بكر ، لايلقـى عصـا تسياره الا بمصر ، يقتفي اثر عصا الكليم ، الى جنابه الكريم ، الا أنه آية اقراره بالربوبية لفضله وافضاله ، ساجد سـجود السـحرة لتعظيمه واجلاله ، يتلقف مـن انعـامه حسـن التجـاوز عن نقصه ، ويعوذ بكرمه من منافثة علمه وفحصـه ، وتشريف الخـادم ولو بسطر واحد عند خلو البـال . والفـزع مـن مهـم الأشتغال ، يرفع من قدره ، ويوجده أنه بالمكان المكين مـن حسـن ذكره ورأيه ، وأدام الله ايامه في ذلك أعلى ان شاء الله تعالى .

وكتب الي وقد رحلنا من دمشق في خدمة الملك الناصر الى حلب في شوال سنة احدى وسبعين :

عماد الدين أنت لكل داع
دعاك لعونه خير العماد
تقوم لنصره كرما اذا ما
تقاعد ذو القرابة والوداد
قضى لك بالعلى كرم السجايا
وماأوتيت من كرم الولاد
أبثك وحشتي لك واشتياقي
اليك ومالقيت من البعاد
واني في دمشق ، ومن حوته
لبعدك ذو اغتراب وانفراد
ومثلك ان تطلبه خبير
بهذا الخلق ليس بمستفاد

أنار بك الزمان فلا علته
لفقد علاك أثواب الحداد

وكتب الي ايضا في ابتداء مكاتبه :

ياعمادي حين لامعتمد
وصدى صوتي في الخطب الملم
والذي بوأني من رأيه
في أعالي ذروة الطود الأشم
منذ فارقتك أنسي نافر
وسنا صبحي كليل مدلهم
فالى من اشتكى شيئا اذا
غاب عني مشتكي طارق غمي
واذا كنت معافى سالما
في اعتلاء وسعود هان همي

خادم المجلس العالي يخدم بالثناء والدعاء :

ويومىء بالتحية من بعيد
كما يومي بأصبعه الغريق

وعنده من الشوق مع قرب العهد الى شهي رؤيته ، والوحشة لخدمته ، مايعجز الاقلام شرحه ، ويحرق الطرس لفحه ، وهو ينحرف من مقام الاشتكاء ، الى مقام الدعاء ، ويرغب الى الله أن يكلأه بحفظه في سفره ومقامه ، ويجزل حظه من فضله وانعامه .

ووصلت منه مكاتبة الى الملك الناصر صلاح الدين في صفر سنة اثنتين وسبعين فقال لي القاضي الفاضل : خذها وأوردها في الخريدة والجريدة وهي :

لازلت ياملك الاسلام في نعم
قرينها المسعدان : النصر والظفر
تردي الأعادي وتستصفي ممالكهم
وعونك الماضيان : السيف والقدر
فأنت اسكندر الدنيا ، بذورك قد
تضاءل المظلمان : الظلم والضرر
أعدت للدهر أيام الشباب وقد
أظله المهرمان : الشيب والكبر
وجاد غيث نداك المسلمين فمن
سحابه المغنيان : الدر والبدر
وسرت سيرة عدل في الأنام كما
قضى به الصادقان : الشرع والسور
ففق بنصر على الكفار انهم
يرديهم المهلكان : الغدر والأشر
ثناهم اذ رأوا اقبال ملكهم
اليهم المزعجان : الخوف والحذر
ومالفرار بمنجيهم ، وخلفهم
من بأسه المدركان : السمر والبتر
وسوف يعفو غدا منهم بصارمه
وجيشه المخبران : العين والأثر
ولو رقوا في ذرى ثهلان اسلمهم
لسيفه العاصمان : الحصن والوزر
قضى بتفضيله عمن تقدمه
مااستودع المخبران : الكتب والسير
عدل به أمن الشاء المهمل أن
يروعه الضاريان : الذئب والنمر
وجود كف اذا انهلت تفرق في
تيارها الزاخران : البحر والمطر
مكارم جمعت فيه ، توافق في
تفضيلها الأكرمان : الخبر والخبر

فأسلمْ وعش وابق للاسم ماجرت ال
أفلاك والنيران : الشمس والقمر
بنجوة من صروف الدهر يقصر عن
منالها المفسدان : الخطب والغير

المملوك لبعده عن خدمة مولاه قد أنكر الزمــان ، فمــا هــو الذي كان ، وأوهب الأيام ماأبقته من يسير قوته ، واسترجعت ماأعارته من ضعيف نهضته ، وأذاقته طعم الاغتراب ، وأدخلت عليه الهم من كل باب ، فهو في زاوية المنزل ، عن كلمات الناس فيه بمعزل ، فهو كما قال :

أنا في أهل دمشق ، وهم
عدد الرمل ، وحيد ذو انفراد
ليس لي منهم أليف وشجت
بيننا الالفة أسباب الوداد
يحسبوني ان رأوني وافدا
قد اتاهم من بقايا قوم عاد
وانفرادي رشد لي ، والهوى
أبدا يصرف عن سبل الرشاد

وقد ســألني أن أنتجــز له مــطلوبا عند الملك الناصر فــكتب الي يستحثني :

عماد الدين ، مولانا جواد
مواهبه كمنهل السحاب
يحكم في مكارمه الأماني
ولو كلفنه رد الشباب
وعذرك في قضا شغلي قضاء
يصرفه ، فما عذر الجواب (٦٨)

أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد

(من معجم الأدباء لياقوت)

ابن نصر بن منقذ بن محمد بن منقذ بن نصر بن هاشم بن سرار ابن زياد بن زغيب ، بن مكحول بن عمر بن الحارث بن عامر بن مالك بن أبي مالك بن عوف بن كنانة بن بكر بن عذرة بن زيد اللات ابن رفيدة بن ثور بن كلب بن وبرة بن ثعلب بن حلوان بن عمران بن قضاعة بن مالك بن حمير بن مرة بن زيد بن مالك بن حمير بن سبأ ابن يشجب بن يعرب بن قحطان ، هكذا ذكر هو نسبه ، وفيه اختلاف يسير عند ابن الكلبي ويكنى اسامة أبا المظفر ، ويلقب مؤيد الدولة مجد الدين ، وفي بني منقذ جماعة أمراء شعراء ، لكن اسامة اشعرهم واشهرهم ، وأنا اذكر لكل واحد من أهله في ترجمته مايليق ولا أفرقهم ، ذكره عماد الدين ابو عبد الله محمد بن محمد بن حامد الأصفهاني في كتاب خريدة القصر ، وجريدة العصر وأثني عليه كثيرا ، فقال : مازال بنو منقذ هؤلاء مالكي شيزر ، وهي حصن قريب من حماة معتصمين بحصانتها ممتنعين بمناعتها حتى جاءت الزلزلة في سنة نيف وخمسين ، فخربت حصنها ، وأذهبت حسنها ، وتملكها نور الدين محمود بن زنكي عليهم ، وأعاد بناءها فتشعبوا شعبا ، وتفرقوا أيدي سبأ .

قال ابن عساكر : ذكر لي أسامة أنه ولد سنة ثمان وثمانين وأربعمائة وقدم دمشق سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة ، ومات أسامة في ثالث عشري رمضان سنة أربع وثمانين وخمسمائة ودفن بجبل قاسيون .

قال العماد وأسامة كاسمه في قوة نثره ونظمه يلوح من كلامه أمارة الامارة ، ويؤسس بيت قريضة عمارة العبارة ، حلو المجالسة حالي المساجلة ، ندي الندى بماء الفكاهه ، عالي النجم في سماء النباهة ، معتدل التصاريف مطبوع التصانيف ، أسكنه عشق الغوطة ، دمشق المغبوطة ، ثم نبت به كما تنبو الدار بالكريم ، فانتقل الى مصر ، فبقي بها مؤمرا مشارا اليه بالتعظيم ، الى أيام ابن رزيك ، فعاد الى الشام ، وسكن دمشق مخصوصا بالاكرام حتى أخذت شيزر من أهله ، ورشقهم صرف

- ٥٥١١ -

الزمان بنبله ، ورماه الحدثان الى حصن كيفا ، مقيما بها في ولده ، مؤثرا لها على بلده ، حتى أعاد الله دمشق الى سلطنة الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة سبعين وخمسمائة ولم يزل مشغوفا بذكره ، مشتهرا باشاعة نظمه ونثره ، والأمير العضد مرهف ولد الأمير مؤيد الدولة جليسه ، ونديمه وأنيسه .

قال مؤلف هذا الكتاب : وقد رأيت أنا العضد هذا بمصر عند كوني بها في سنتي احدى عشرة وستمائة ، واثنتي عشرة وستمائة وانشدني شيئا من شعره وشعر والده .

قال : فاستدعاه الى دمشق ـ يعني مؤيد الدولة ـ وهو شيخ قد جاوز الثمانين .

قال : وأنشدني العامري من شعره بأصبهان وكنت أتمنى لقياه ، وأشيم على البعد حياه ، حتى لقيته في صفر سنة احدى وسبعين بدمشق ، وسألته عن مولده ، فقال ولدت في السابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ثمان وثمانين وأربعمائة وانشدني لنفسه البيتين اللذين سارا له في قلع ضرسه .

وصاحب لاأمل الدهر صحبته
يشقى لنفعي سعي مجتهد
لم ألقه مذ تصاحبنا فحين بدا
لناظري افترقنا فرقة الأبد

وأنشدني لنفسه من قديم شعره :

قالوا نهته الأربعون عن الصبى
وأخو المشيب يحور ثمة يهتدي
كم حار في ليل الشباب فدله
صبح المشيب على الطريق الاقصد
واذا عددت سني ثم نقصتنا
زمن الهموم فتلك ساعة مولدي

قلت أنا هذا كلام نفيس ، ومعنى لطيف ، ولكنه أخذ معنى البيت الثاني من قول ابن الرومي :

كفي بسراج الشيب في الرأس هاديا
الى من اضلته المنايا لياليا
فكان كرامي الليل يرمي فلا يرى
فلما اضاء الشيب شخصي رمانيا

وأخذ معنى البيت الأخير من قول ابي فراس بن حمدان في مزدوجته

ماالعمر ماطالت به الدهور
العمر ماتم به السرور
أيام عزي ونفاذ أمري
هي التي احسبها من عمري
لو شئت مما قد قللن جدا
عددت ايام السرور عدا

ولكن قول اسامة أبلغ في المعنى وهذا ظاهر ، قال وأنشدني من قديم شعره

لم يبق لي في هواكم أرب
سلوتكم والقلوب تنقلب
أوضحتم لي سبل السلو وقد
كانت لي الطرق عنه تنشعب
الام دمعي من هجركم سرب
قان وقلبي من غدركم يجب
ان كان هذا لأن تعبدني ال
حب فقد اعتقتني الريب

- ٥٥١٣ -

احببتكم فوق ماتوهمه ال
ناس وخنتم اضعاف ماحسبوا

وقوله ايضا :

يادهر مالك لايصد
ك عن مساءتي العتاب
امرضت من أهوى ويأ
بى ان أمرضه الحجاب
لو كنت تنصف كانت الأ
مراض لي وله الثواب
اخذ هذا المعنى من قول الشاعر
ياليت علته لي غير أن له
أجر المريض وأني غير مأجور

قال العماد : وهذا الذي أوردته من شعره نقلته من تاريخ السمعاني ، فلما وردت الى دمشق واجتمعت به قلت له هل لك معنى مبتكر في الشيب فأنشدني :

لو كان صد معاتبا ومغاضبا
أرضيته وتركت خدي شائبا
لكن رأى تلك النضارة قد ذوت
لما غدا ماء الشبيبة ناضبا
ورأى النهى بعد الغواية صاحبي
فثنى العنان يريغ غيري صاحبا
وأبيه ماظلم المشيب فإنه
أملي فقلت عساه عني راغبا
أنا كالدجى لما تناهى عمره
نشرت له ايدي الصباح ذوائبا

ومن شعره ايضا في محبوس :

حبسوك والطير النواطق انما
حبست لميزتها على الأنداد
وتهيبوك وأنت مودع سجنهم
وكذا السيوف تهاب في الأغماد
ماالحبس دار مهانة لذوي العلى
لكنه كالغيل للآساد

ومنه قوله في الشمعة :

انظر الى حسن صبر الشمع يظهر للإ
-رائين نورا وفيه النار تستعر
كذا الكريم تراه ضاحكا جذلا
وقلبه بدخيل الغم منفطر

وقوله ايضا :

نافقت دهري فوجهي ضاحك جذل
طلق وقلبي كئيب مكمد باك
وراحة القلب في الشكوى ولذتها
لو أمكنت لاتساوي ذلة الشاكي

وقوله ايضا :

لئن غض دهر من جماحي أو ثنى
عناني أو زلت باخمصي النعل
تظاهر قوم بالشمات جهالة
وكم احنه في الصدر ابرزها الجهل

-٥٥١٥-

وهل أنا الا السيف فلل حده
قراع الأعادي ثم أرهفه الصقل

وقوله ايضا :

لاتحسدن على البقاء معمرا
فالموت ايسر مايؤول اليه
واذا دعوت بطول عمر لامرىء
فاعلم بأنك قد دعوت عليه

قال العماد : وتناشدنا بيتا للوزير المغربي في وصف خفقان القلب وتشبيهه بظل اللواء الذي تخترقه الرياح وهو :

كأن قلبي اذا عن اذكاركم
ظل اللواء عليه الريح تخترق

فقال لي الأمير مؤيد الدولة أسامة : فقد شبهت القلب الخافق ، وبالغت في تشبيهه ، وأربيت عليه في قولي من أبيات وهي :

احبابنا كيف اللقاء ودونكم
عن المهامه والفيافي الفيح
ابكيتم عيني دما لفراقكم
فكأنما انسانها مجروح
وكأن قلبي حين يخطر ذكركم
لهب الضرام تعاورته الريح

فقلت له : صدقت فان المغربي قصد تشبيهه خفقان القلب وانت شبهت القلب الواجب باللهيب ، وخفقانه باضطرابه عند اضطرامه

لتعاور الريح فقد أربيت عليه ، وأنشدني ايضا من قوله ايام شبابه ، وهو معتقل ، في الخيال :

ذكر الوفاء خيالك المنتاب
فألم وهو بودنا مرتاب
نفسي فداؤك من حبيب زائر
متعتب عندي له الاعتاب
ودي كعهدك والديار قريبة
من قبل ان تتقطع الأسباب
ثبت فلا طول الزيارة ناقص
منه وليس يزيده الاغباب
حظر الوفاء علي هجرك طائعا
واذا اقتسرت فما علي عتاب

قال : وتذاكرنا قول ابي العلاء المعري :

لو حط رحلي فوق النجم رافعه
الفيت ثم خيالا منك منتظري

وأبلغ من هذا قول المعري في بعد المسافة :

وذكرت كم بين العقيق الى الحمى
فجزعت من أمد المدى المتطاول
وعذرت طيفك في الجفاء فانه
يسري فيصبح دوننا بمراحل

وأنشدني :

وأعجب مالقيت من الليالي
واي فعالها بي لم يسؤني
تقلب قلب من مثواه قلبي
وجفوة من ضممت عليه جفني

قال : واجتمعنا عند الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بدمشق ، وكان يلعب بالشطرنج ، فقال الأمير أسامة الا أنشدك البيتين اللذين قلتهما في الشطرنج ؟ فقلت : هات ، فأنشدني لنفسه :

انظر الى لاعب الشطرنج يجمعها
مغالبا ثم بعد الجمع يرميها
كالمرء يكدح الدنيا ويجمعها
حتى اذا مات خلاها ومافيها

وأنشدني لنفسه في غرض له في نور الدين محمود رحمه الله :

سلطاننا زاهد والناس قد زهدوا
له فكل على الخيرات منكمش
ايامه مثل شهر الصوم خالية
من المعاصي وفيها الجوع والعطش

قال وأنشدني لنفسه :

أأحبابنا هلا سبقتم بوصلنا
صروف الليالي قبل ان نتفرقا

تشاغلتم بالهجر والوصل ممكن
وليس الينا الحوادث مرتقا
كأنا أخذنا من صروف زماننا
أمانا ومن جور الحوادث موثقا

وقال ايضا :

قمر اذا عاينته شغفا به
غرس الحياء بوجنتيه شقيقا
وتلهبت خجلا فلولا ماؤها
مترقرقا فيه لصار حريقا
وأزور عني مطرقا فاضلني
ان اهتدي نحو السلو طريقا
فليلحني من شاء فيه فصبوتي
بهواه سكر لست منه مفيقا

وكتب اليه ابنه ابو الفوارس مرهف الى حصن كيفا فكتب اسامة جوابه :

أبا الفوارس مالاقيت من زمني
اشد من قبضة كفي عن الجود
رأى سماحي بمنزور تجاذف لي
عنه وجودي به فاجتاح موجودي
فصرت ان هزني جان تعود ان
يجني نداي رآني يابس العود

وقال ايضا :

سقوف الدور في خربرت سود
كستها النار اثواب الحداد

فلا تعجب اذا ارتفعت علينا
فالحظ اعتناء بالسواد
بياض العين يكسوها جمالا
وليس النور الا في السواد
ونور الشيب مكروه وتهوى
سواد الشعر اصناف العباد
وطرس الخط ليس يفيد علما
وكل العلم في وشي المداد

وله في مدح صلاح الدين :

هو من عرفت فلو عصاه نهاره
لرماه نقع جيوشه بالغياهب

وله في الهزل :

خلع الخليع عذاره في فسقه
حتى تهتك في بغا ولواط
يأتي ويؤتى ليس ينكر ذا ولا
هذا كذلك ابرة الخياط

قال العماد : وكان قد سألني أن انتجز له مطلوبا عند الملك الناصر صلاح الدين ، فكتب الي يستحثني :

عماد الدين مولانا جواد
مواهبه كمنهل السحاب
يحكم في مكارمه الاماني
ولو كلفته رد الشباب

وعذرك في قضا شغلي قضاء
يصرفه فما عذر الجواب

ولمؤيد الدولة بن منقذ تصانيف حسان منها كتاب العصا ، كتاب الشيب والشباب ألفه لأبيه ، كتاب ذيل يتيمة الدهر للثعالبي ، كتاب تاريخ ايامه ، كتاب في أخبار أهله رأيته .

ومن شعر الأمير الأجل مؤيد الدولة مجد الدين اسامة بن منقذ :

صديق لنا كالبحر قد أهلك الورى
ولم ينههم اخطاره عن ركوبه
موداته تحكيه صفوا وخبرها
كمشربه من حوبه وذنوبه

ومنه ايضا :

كنت بين الرجاء واليأس منه
اقطع الدهر بين سلم وحرب
ألتقي عتبه بأكرم اعتا
ب ويلتقى ذلي بتيه وعجب
فبدا للملوك أني لورم
ت سلوا لما سلا عنه قلبي
فتجني لي الذنوب ولا والـ
ـله مالي ذنب سوى فرط حبي

ومنه ايضا :

انظر بعينك هل ترى
أحدا يدوم على المودة

لترى اخلاء الصفا
ء عدى اذا تأتيك شده

ومنه ايضا :

تذكرني الأخوان حتى ثقلتهم
وحذرني منهم نذير التجارب
كأني اذا أودعت سري عندهم
رفعت بنار فوق أعلى المراقب

قال العماد : وكتبها الى دمشق بعد خروجه الى مصر في ايام بني الصوفي يشير اليهم :

ولوا فلما رجونا عدلهم ظلموا
فليتهم حكموا فينا بما علموا
مامر يوما بفكري مايريبهم
ولاسعت بي الى ماساءهم قدم
ولاأضعت لهم عهدا ولاأطلعت
على ودائعهم في صدري التهم
محاسني منذ ملوني باعينهم
قذى وذكري في آذانهم صمم
وبعد لو قيل لي ماذا تحب وما
تختار من زينة الدنيا لقلت هم
هم مجال الكرى من مقلتي ومن
قلبي محل المنى جاروا أو اجترموا
تبدلوا بي ولاأبغي بهم بدلا
حسبي بهم انصفوا في الحكم أم ظلموا
ياراكبا تقطع البيداء همته
والعيس تعجز عما تدرك الهمم

بلغ اميري معين الدين مألكة
من نازح الدار لكن وده أمم
هل في القضية يامن فضل دولته
وعدل سيرته بين الورى علم
يضيع واجب حقي بعد ماشهدت
به النصيحة واذا شيدته هدموا
وأن عرتك من الأيام نائبة
فكلهم للذي يبكيك يبتسم
وكل ماملت عنه قربوه ومن
والاك فهو الذي يقصى ويهتضم
اين الحمية والنفس الأبية اذ
ساموك خطة خسف عارها يصم
هلا انفت حياء أو محافظة
من فعل ماانكرته العرب والعجم
أسلمتنا وسيوف الهند مغمدة
ولم يرو سنان السمهري دم
وكنت احسب من والاك في حرم
لايعتريه به شيب ولاهرم
وأن جارك جار للسموءل لا
يخشى الأعادي ولاتغتاله الذمم
هبنا جنينا ذنوبا لايكفرها
عذر فماذا جنى الأطفال والحرم

ومنها :

لكن رأيك أدناهم وأبعدني
فليت أنا بقدر الحب نقتسم
ولاسخطت بعادي اذ رضيت به
ولالجرح اذا أرضاكم ألم

تعلقت بحبال الشمس منك يدي
ثم انثنت وهي صفر ملؤها ندم
فراقك اساني وأسفني
ففي الجوانح نار منه تضطرم
فاسلم فما عشت لي فالدهر طوع يدي
وكلما نالني من بؤسه نعم

ومن شعره ايضا :

الق الخطوب اذا طرقـ
ـن بقلب محتسب صبور
فسينقضي زمن الهمو
م كما انقضى زمن السرور
فمن المحال دوام حا
ل في مدى العمر القصير

وتوفي بعد الثمانين وخمسمائة.

ومنهم أخوه أبو الحسن علي بن مرشد بن علي بن مقلد بن منقذ سيد بني منقذ ، ورد بغداد حاجا بعد العشرين وخمسمائة ، وقد ذكره السمعاني في تاريخه وأنشد له :

ودعت صبري ودمعي يوم فرقتكم
وما علمت بأن الدمع يدخر
وضل قلبي من صدري فعدت بلا
قلب فياويح ماآتي وماأذر
ولو علمت نخرت الصبر مبتغيا
اطفاء نار بقلبي منك تستعر

قال الأمير علي بن مرشد سمعت دربابا يصيح بدرب حبيب (٦٩) فقلت فيه :

ياطائرا لعبت أيدي الفراق به
مثلي فاصبح ذا هم وذا حزن
داني الأسى نازح الأوطان مغتربا
عن الاحبة مصفودا عن الوطن
بلا نديم ولاجار يسر به
ولا حميم ولادار ولاسكن
لكن نطقت فزال الهم عنك ولي
هم يقلقل احشائي ويخرسني
وكل من باح بالشكوى استراح ومن
أخفى الجوى بث عنه شاهد البدن
ارقت عيني بذوح لست افهمه
مع مابقلبي من وجد يؤرقني
ومابكيت ولي دمع غواربه
اذا ارتمت منه لم تنشق بالسفن

قال : وكتب الى صديق له :

مافهمت مع متحدث متشاغلا
الا رأيتك خاطرا في خاطري
ولو استطعت لزرت ارضك ماشيا
بسواد قلبي او باسود ناظري

وكتب الى أخيه مؤيد الدولة أسامة وهو بالموصل :

الا هل لمحزون تذكر الفه
فحن وأبدى وجده من يعينه
وعيشا مضى بالرغم اذ نحن جيرة
ترف على روض الوصال غصونه
لدى منزل كان السرور قرينكم
به فتولى إذ تولى قرينه

فلو أعشبت من فيض دمعي محوله
لما رضيت عن دمع عيني جفونه

قال وانشدني له ابن اخيه الامير مرهف بن اسامة

لاشكرن النوى والعيس اذ قصدت
بي معدن الجود والاحسان والكرم
فسرت في وطني اذ سرت من وطني
فمن رأى صحة جاءت من السقم
وقد ندمت على عمر مضى اسفا
اذ لم أكن لك جارا فيه في القدم
فاسلم ولازلت محروس العلا ابدا
مالاحت الشهب في داج من الظلم

وقال أخوه أسامه بن مرشد : ونقلت من خط أخي عز الدولة أبي الحسن علي بن مرشد من شعره ، وكان استشهد رحمه الله على غزة في شهر رمضان سنة خمس وأربعين وخمسمائة في حرب الفرنج لعنهم الله ، قبل ان يكمل من شعره وكان تقنطر به فرسه على باب غزة ، واستعلى الفرنج على أصحابه فانكشفوا عنه، فقتل وبقي في المعركة وأنشد له أشعارا منها قوله في مرض طال به :

ظننت وظن الألمعي مصدق
بأن سقام المرء سجن حمامه
فان لم يكن موت صريح فانه
عذاب تمل النفس طول مقامه
وكم يلبث المسجون في قبضة الأذى
يجرب فيه الموت غرب حسامه

وأنشد له قوله عند رحيله عن بغداد الى الحجاز :

ترحلت عن بغداد لاكارها لها
وفي القلب منها لوعة وحريق
فسقيا لأيام تقضيت بربعها
اذا العيش غض والزمان انيق
باخوان صدق ليس فيهم مشاقق
وكلهم حان علي شفيق

وانشد له ايضا

ولما أعارتني النوى منك نظرة
أحب الى قلبي من البارد العذب
تعقبها البين المشت فليتنا
بقينا على تأميلنا لذة القرب

وأنشد له :

ليت شعري علام صدك عنا
بعد ماكنت تدعي الأشواقا
لاتجار الزمان سبقا الى الهجـ
ـر فما زال صرفه سباقا
انت غر بغدره فلهذا
قد تعجلت بالصدود الفراقا

وأنشد له :

بني أبي أن عدا دهر ففرقنا
فهم نفسي بكم ماعشت مجتمع
هل تعلمون الذي في النفس من أسف
عليكم وحنين ليس ينقطع

- ٥٥٢٧ -

نزحتم أدمعي حتى لقد محلت
جفون عيني ومات اليأس والطمع
وان دهرا رمى عن جيده دررا
امثالكم لزمان عاطل ضرع

ومنهم جده سديد الملك أبو الحسن علي بن مقلد بن منقذ ، وكان من شرطه أن يقدم على بنيه ، قال : هو جد الجماعة ، موفور الطاعة ، أحكم آساس مجده وشادها ، وفضل أمراء ديار بكر والشام وسادها ، وقال أبو يعلى حمزة بن أسد :في سنة أربع وسبعين وأربعمائة في رجب ملك الأمير أبو الحسن علي بن المقلد بن منقذ حصن شيزر ، من الأسقف الذي كان فيه بمال بذله له ، وأرغبه فيه الى أن حصل في يده ، وشرع في عمارته وتحصينه والمصافعة عنه الى أن تمكنت حاله فيه ، وقويت نفسه في حمايته والمدافعة (٧٠) عنه .

والأمير سديد الملك ، هو ممدوح فحول الشعراء ، والذي امتدحه ابن حيوس بقصيدته التي أولها – وكتبها اليه من طرابلس وهو بحلب :

أما الفراق فقد عاصيته فأبى
وطالت الحرب الا أنه غلبا
أراني البين لما حم عن قدر
وداعنا كل جد بعده لعبا (٧١)

قال : وسألت ابن ابنه الأمير اسامة بن مرشد بن علي عن وفاة جده فقال : مات سنة خمس وسبعين وأربعمائة .

قال : وأنشدني مجد العرب العامري بأصبهان قال :انشدني الأمير أبو سلامة مرشد لأبيه الأمير ابي الحسن علي بن مقلد في غلام له ضربه ، وقد أبدع في هذا المعنى واغرب :

اسطو عليه وقلبي لو تمكن من
كفي غلها غيظا الى عنقي
واستعبر اذا عاينته حذقا
وأين ذل الهوى من عزة الحذق

قال وأنشدني له ايضا :

ماذا النجيع بوجنتيك وليس من
شرط الأنوف على الخدود رعاف
الحاظنا جرحتك حين تعرضت
لك أم أديمك جوهر شفاف

وقرأت له في مجموع :

اذا ذكرت أياديك التي سلفت
مع سوء فعلى وزلاتي ومجترمي
أكاد أقتل نفسي ثم يمنعني
علمي بأنك مجبول على الكرم

وله ايضا :

ومن كان يرضى بذل في ولايته
من خوف عزل فاني لست بالراضي
قالوا فتوكب أحيانا فقلت لهم
تحت الصليب(٧٢) ولا في موضع القاضي

وله ايضا :

ولاتعجلوا بالهجر ان الذوى
تحمل عنك منة الهجر

- ٥٥٢٩ -

وظاهرونا بوفاة فقد
اغناكم البين عن الهجر

وله ايضا :

القى المنية في درعين قد نسجا
من المنية لامن نسج داوود

ان الذي صور الأشياء صورني
نارا من البأس في بحر من الجود

وهذان البيتان يرويان لعبد المؤمن ملك المغرب ، ولسديد الملك من مجموع اسامة :

كيف السلو وحب من هو قاتلي
أدنى الي من الوريد الأقرب
اني لأعمل فكرتي في سلوة
عنه فيظهر في ذل المذنب

وله ايضا :

بكرت تنظر شيبي
وثيابي يوم عيد
ثم قالت لي بهزء
ياخليعا في جديد
لاتغالطني فمات
صلح الا للصدود

قال العماد انشدت هذه الأبيات والقطع جميعها الامير مؤيد الدولة اسامة في سنة اثنتين وسبعين : فأنكر أن يكون لجده سوى البيتين اللذين أولهما :

لاتعجلوا بالهجر ان النوى
وأنشدني لجده وكان كتب بها الى القاضي جلال الملك أبي الحسن علي بن عمار صاحب طرابلس :

أحبابنا لو لقيتم في مقامكم
من الصبابة مالاقيت في ظعني
لأصبح البحر من أنفاسكم يبسا
كالبر من ادمعي ينشق بالسفن

ومنهم الأمير أبو سلامة مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ والد اسامة ، وولد المقدم ذكره ، له البيت القديم والفضل العميم من فروع الأملاك الفارعي الافلاك .

قال السمعاني في تاريخه : رأيت مصحفا بخطه كتبه بماء الذهب على الطاق الصوري ، مارأيت ولاأظن ان الرائين رأوا مثله ، فقد جمع الى فضائله حسن خطه ، وتقدم بحسن تدبيره على رهطه ، واسن وعمر ، وله أولاد نجباء أمجاد كرماء أجواد.وكان مولده سنة ستين وأربعمائة ، ومات بشيزر سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة فيما حكاه ولده أسامة للسمعاني ، وذكره مجد العرب أبو فراس العامري ، وقال : كنت مقيما مدة بشيزر في كنفهم ، حاظيا برفدهم ، ساميا بشرفهم ، واثنى على خلفهم وترحم على سلفهم ، فقال : وكان الأمير حينئذ بقلعة شيزر أخوه أبو العساكر سلطان ، وهو ممدوحي الذي حباني الأكرام والاحسان ، والأمير مرشد يقربني ويكرمني ، وقال في أبياتا منها :

لئن نسي امرؤ عهدا فاني
لعهد أبي الفوارس غير ناس
وماعاش الامير أبو فراس
فما مات الامير أبو فراس

كنية العامري أبو فراس ، وأبو فراس الآخر هو أبو فراس بن حمدان ، وكان العامري يتبجح بالبيتين .

وذكر السمعاني في تاريخه : انشدني ولده أبو عبد الله محمد بن مرشد بن علي بن مقلد بن منقذ من حفظه ، عند القبة قال : وأنا قائم اكتب ، وهو وغلمانه على الخيل ، قال : أنشدني والدي مرشد ابن علي لنفسه بشيزر :

ظلوم أبت في الظلم الا التماديا
وفي الصد والهجران الا تناهيا
شكت هجرنا والذنب في ذاك ذنبها
فيا عجبا من ظالم جاء شاكيا
وطاوعت الواشين في وطالما
عصيت عذولا في هواها وواشيا
ومال بها تيه الجمال الى العلا
وهيهات أن امسي لها الدهر قاليا
ولاناسي مااستودعت من عهودها
وان هي ابدت جفوة وتناسيا

ومنها في العتاب :

وقلت أخي يرعى بني وأسرتي
ويحفظ فيهم عهدتي وذماميا
ويجزيهم مالم اكلفه فعله
لنفسي فقد اعددته من تراثيا
فاصبحت صفر الكف مما رجوته
ارى اليأس قد غطى سبيل رجائيا
فما لك لما إن حنى الدهر صعدتي
وثلم مني صارما كان ماضيا

تنكرت حتى صار برك قسوة
وقربك منهم جفوة وتناسيا
على أنني ماحلت عما عهدته
ولاغيرت هذي الشؤون وداديا
فلا زعزعتك الحادثات فانني
أراك يميني والأنام شماليا

قال وقرأت في بعض الكتب كلمة نظمها الخطيب أبو الفضل يحيى ابن سلامة الحصكفي ، في جواب رسالة وصلته من الامير علي بن مرشد من شيزر وهي :

حوى مرشد وابناه غر المناقب
وحلوا من العلياء اعلى المراتب
ذوائب مجد ماعلمت بأنهم
من العلم ايضا في الذرى والذوائب
اتت من علي روضة جاد روضها
سحائب فضل لاكجود السحائب
بأبيات شعر أفحمت كل شاعر
وآيات نثر أعجبت كل خاطب
وغر معان أعجزت كل عالم
واسطر خط أرعشت كل كاتب
ربيع بورد وافد لمطالع
وربع لوفد وارد بمطالب
وخود رمت بالسحر عن قوس حاجب
لها في العلى فخر على قوس حاجب(٧٣)
فلو قطبت لما قطبت لها
وجوه لا غطت على حكم شارب .

ومنهم حميد بن مالك بن مغيث بن نصر بن منقذ بن محمد بن منقذ ابن نصر بن هـاشم ، أبـو الغنائم ، الملقـب بمـكين الدولة ، ولد

بشيزر في تاسع جمادى الآخرة سنة احدى وتسعين وأربعمائة ، ونشأ بها ، وانتقل الى دمشق ، فسكنها مدة طويلة ، واكتتب في العسكر ، وكان يحفظ القرآن ، وله شعر جيد ، وفيه شجاعة وعفاف ، ومات في نصف شعبان سنة أربع ستين وخمسمائة بحلب. ومن شعره:

مابعد جلق للمرتاد منزلة
ولا كسكانها في الارض سكان
فكلها لمجال الطرف منتزه
وكلهم لصروف الدهر اقران
وهم وأن بعدوا عني بنسبتهم
اذا بلوتهم بالود اخوان

وقال في أخيه يحيى :

بالشام لي حدث وجدت بفقده
وجدا يكاد القلب منه يذوب
فيه من البأس المهيب صواعق
تخشى ومن ماء السماء قليب
فارقت حتى حسن صبري بعده
وهجرت حتى النوم وهو حبيب

قال الحافظ علي بن الحسن بن هبه الله ، وانشدنا لنفسه :

يذكرني بحبي الرماح شوارعا
وبيض المواضي جردت للوقائع
وأقسم مارؤياه في العين بهجة
بأحسن من أوصافه في المسامع

قال وأنشد لنفسه :

وسلافة ازرى احمرار شعاعها
بالورد والوجنات والياقوت
جاءت مع الساقي تنير بكأسها
فكأنها اللاهوت في الناسوت (٧٤)

قال وأنشدنا لنفسه في صديق له يعاتبه

أدنو بودي وحظي منك يبعدني
هذا لعمرك عين الغبن والغبن
وان توخيتني يوما بلائمة
ورجعت باللوم ابقاء على الزمن
وحسن ظني موقوف عليك فهل
غيرت بالظن بي عن رأيك الحسن

ومنهم الأمير شرف الدين أبو الفضل اسماعيل بن أبي العساكر سلطان بن علي بن منقذ ، كان أبوه عم مؤيد الدولة اسامة بن مرشد أمير شيزر ، وكان شابا فاضلا ، سكن لما أخذت منهم شيزر بدمشق، ومات بها سنة احدى وستين وخمسمائة .

قال العماد وسمعت من شعره :

ومهفهف كتب الجمال بخده
سطرا يحير ناظر المتأمل
بالغت في استخراجه فوجدته
لارأي الا رأي أهل الموصل

وذكره ابن عمه الأمير مرهف بن أسامة ، وأثنى عليه وأنشدني له اشعارا منها بيتان في النحل والزنبور وهما :

ومغردين ترنما في مجلس
فنفاهما لاذاهما الاقوام
هذا يجود بما يجود بعكسه
هذا فيحمد ذا فذاك يذام

يعني العسل من النحل وعكسه اللسع من الزنبـور ، وأنشــدني ايضا له :

سقيت وكأس الهوى علا على نهل
فلا تزدني كأس اللوم والعذل
نأى الحبيب فبي من نأيه حرق
لو لامست جبلا هدت قوى الجبل
ولو تطلبت سلوانا لزدت هوى
وقد يزيد رسوبا نهضة الوحل
عفت رسومي فعج نحوي لتندبي
فالصب غب زيال الحب كالطلل
صحوت من قهوة تنفي الهموم بها
لكنني ثمل من طرفه الثمل
أصبر النفس عنه وهي قائلة
مالي بعاتية الاشواق من قبل
كم ميتة وحياة ذقت طعمهما
مذ ذقت طعم النوى لليأس والامل
والنفس إن خاطرت في غمر وألت
منها وأن خاطرت في الوجد لم تئل
لها دروع تقيها من سهام يد
فهل دروع تقيها اسهم المقل
فانظر اليه تر الاقمار في قمر
وانظر الي تر العشاق في رجل

بأي امر سانجو من هوى رشأ
في جفنه سحر هاروت وسيف علي
إذا رمى طرفه باللحظ قال له
قلبي أعد لارماك الله بالشلل
أمن بني الروم ذا الرامي الذي فتكت
سهامه بالورى أم من بني ثعل
إن خفت روعة هجران الحبيب فقد
أمنت في حبه من روعة العذل

ومنهم الأمير أبو الفتح يحيى بن سلطان بن منقذ لقبه فخر الدولة ذكره الأمير مرهف بن اسامة وذكر انه قتل على بعلبك في سنة أربعين وخمسمائة • وأنشدني من شعره ما كتبه الى ابيه عز الدين يطلب منه رمحا :

يا خير قوم لم يزل مجدهم
في صفحات الدهر مسطورا
عبدك يبغي اسمرا ذكره
مازال بين الناس مذكورا
مسدد والجور من شأنه
أن نال وترا صار موتورا
فان تفضلت به عاد عن
صدور اعدائك مكسورا

ومنهم الأمير عز الدولة ابو المرهف نصر بن علي بن مقلد بن نصر ابن منقذ عم مؤيد الدولة أسامة

قال العماد ، كنا حضرنا عند الملك الناصر ليلة بدمشق سنة احدى وسبعين والأمير مؤيد الدولة حاضر ، وتناشدنا ملح القصائد ، ونشدنا ضالة الفوائد ، وجرى حديث اقتضى انشاد الأمير اسامة بيتين لبعضهم في المشط الاسود ، والمشط

الأبيض ، وهما لأبي الحسن احمد بن محمد بن الدويدة المغربي ، كان في زمن بني صالح .

كنت استعمل السواد ، من الاهـ
شاط والشعر في سواد الدياجي
أتلقى مثلاث بمثل فلما
صار عاجا سرحته بالعاج

ثم قال الأمير ، وقد أخذ هذا المعنى عمي نصر وعكسه وقال :

كنت استعمل البياض من الاهـ
شاط عجبا بلمتي وشبابي
فاتخذت السواد في حالة الشيـ
ـب سلوا عن الصبى بالتصابي

وقال لي الأمير اسامة: كان عمي نصر قد اخرج حجة عن والدته ، فرآها في النوم كأنها تنشده فأتيته والأبيات على حفظه وهي :

جزيت من ولد بر بصالحة
فقد كسبت ثوابا آخر الزمن
وقد حججت الى البيت الحرام وقد
اتيته زائرا يا خير محتضن
فلا تنلك يد الأيام ما طلعت
شمس وما صدحت ورقاء في فنن

وكان نصر هذا صاحب قلعة شيزر بعد والده سديد الملك ، وكان كريما ذا أريحية ، حدثني الأمير مرهف بن اسامة بحضرة والده ، قال كتب القاضي ابو مسلم وادع المعري الى الأمير نصر في نكبة نالته :

يا نصر يا بن الاكرمين ومن
شفع التلاد بطارف الفخر
هذا كتاب من اخي ثقة
يشكو اليك نوائب الدهر
فامنن بما عودت من حسن
هذا أوان الذفع والضر

فكتب اليه نصر انه لم يحضرني سوى ما عندك مودع ، وهو ستة آلاف دينار ، فاصرفها في بعض مصالحك واعذر ، وذكر ان نصرا كان برا بوالده سديد الملك ، فقال فيه سديد الملك :

جزى الله نصرا خيرا ما جزيت به
رجال قضوا فرض العلاء وذفلوا
هو الولد البر العطوف وان رمى
به حادث فهو الحمام المعجل
يفديك يا نصر رجال محلهم
من المجد والاحسان إن يقولوا
سأثنى بما اوليت بالموقف الذي
تقر به الأقدام او تتزلزل
والقاك يوم الحشر ابيض ناصعا
وأشكر عند الله ما كنت تفعل

وتوفي نصر بن علي في جمادى الآخرة سنة احدى وتسعين واربعمائة بشيزر .

ومنهم الأمير عضد الدين أبو الفوارس مرهف بن اسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ.

وقال مؤلف الكتاب: فارقته في جمادى الأولى سنة اثنتي عشرة وستمائة بالقاهرة يحيى ، ولقيته بها ، وهو شيخ ظريف واسع

الخلق شائع الكرم ، جماعة للكتب ، وحضرت داره ، واشترى مني كتبا ، وحدثني أن عنده من الكتب ما لايعلم مقداره ، إلا أنه ذكر لي أنه باع منها أربعة آلاف مجلد في نكبة لحقته فلم يؤثر فيها ، وسألته عن مولده فقال ولدت سنة عشرين وخمسمائة ، فيكون عمره الى وقتنا هذا اثنتين وتسعين سنة ، وكان قد اقعد لايقدر على الحركة ، إلا أنه صحيح العقل والذهن والفطنة والبصر ، يقرأ الخط الدقيق كقراءة الشبان ، الا ان سمعه فيه ثقل ، وكان ذلك يمنعني من مكاثرته ومذاكرته ، وكان السلطان صلاح الدين رحمه الله قد اقطعه ضياعا بمصر ، فهو يصرفها في مصالحه ، وأجراه الملك العادل أخو صلاح الدين على ذلك ، وكان الملك الكامل بن العادل يحترمه ويعرف له حقه ، وأنشدني شيئا من شعره وشعر اهله لم يحضرني منه في هذا الوقت ما اورده ، وذكر له العماد في كتاب الخريدة ما ذكر انه سمعه منه وهو :

سمحت بروحي في رضاك ولم يكن
ليعجزني لولا رضاك المذاهب
وهانت لجراك العظائم كلها
علي وقد جلت لدي النوائب
فكان ثوابي عن ولائي لحبتكم
رمتني به منك الظنون الكواذب
فمهلا فلي في الأرض عن منزل العلى
مسار اذا اخرجتني ومسارب
وان كنت ترجو طاعتي باهانتي
وقسري فان الرأي عنك لعازب

وأنشدني ايضا لنفسه قال : وهو حاضر عند والده ، وذكر أنه مما كتبه الى والده:

رحلتم وقلبي بالولاء مشرق
لديكم وجسمي للعناء مغرب

- ٥٥٤٠ -

فهذا سعيد بالدنو منعم

وهذا شقي بالبعاد معذب

وما ادعي شوقا فسحب مدامعي

يترجم عن شوقي اليكم ويعرب

ووالله ما اخترت التأخر عنكم

ولكن قضاء الله ما منه مهرب

ومات الأمير عضد الدين بن مرهف في ثاني صفر سنة ثلاث عشرة وستمائة .

أسامة بن مرشد بـــن علي بـــن مقلد بـــن نصر بـــن منقذ

(من بغية الطلب في تاريخ حلب لابن العديم)

ابن محمد بن منقذ بن نصر بن هاشم بن سرار بن زياد بن زغيب ابن مكحول بن عمرة بن الحارث بن عمرو بن مالك بن ابي مالك بـن عوف بن كنانة بن بكر بن عذرة بن زيد اللات بن رفيدة بن ثـور بـن كلب بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمرة بن الحاف بن قضاعة بـن مالك بن حمير بن مرة بن زيد بن مالك بن حمير بن سبأ بن يشـجب ابن يعرب بن قحطان بن عابر بن ارفخشذ بن سام بـن نوح ، ابـو المظفر بن ابي سلامة بن ابي الحسـن بـن ابـي المتـوح الكناني الشيزري ، الملقب مؤيد الدولة .

ولد بشيزر ونشأ بها واخرجه عمه ابو العساكر سلطان بـن علي خوفا منه على نفسه ، لما رأى من شجاعته واقـدامه ، وقـدم حلب مرارا متعددة ، وكان من الأمـراء الفضـلاء الأدبـاء الشـعراء الشجعان الفرسان ، له مصنفات عديدة ومجاميع مفيدة ، ومواقف مشهورة ، ووقائع مذكورة ، وفضائل مسطورة .

روى عن ابي الحسن علي بن سالم بن الاغر بـن علي السـنبسي وابنه كامل بن علي ، ومؤدبه أبي عبد الله محمد بـن يوسـف بـن المنيرة الكفرطابي ، ووالده ابي سـلامة مـرشد بـن علي بـن منقذ ، وأبي عبد الله محمد بن شـافع بـن الحسـين بـن العرار ، سمعهم بشيزر ، وابي بكر محمد بن مخلد بن عبد الله بـن مخلد التميمي الاشبيلي ، سمعه بمصر ، والخطيب يحيى بن سلامة الحصفكي (٧٥) سمعه بميافارقين ، وأبي هاشم محمد بـن أبـي محمد بن محمد بن ظفر ، سمعه بحماه ، وأبي القاسم عبد الملك بن زيد بن ياسين الدولعي خطيب دمشق ، سمعه بـدمشق ، وآخـرين غيرهم ، وروى بالاجازة عن ابي الحسن علي بن أحمـد بـن قيس الغساني .

روى عنه الحافظان ابو القاسم علي بن الحسـن بـن هبـة الله الدمشقي ، وابو سعد عبد الكريم بـن محمـد بـن منصـور السمعاني ، وعماد الدين محمد بن محمد بـن حـامد الأصـبهاني

الكاتب ، وعبد السلام بن يوسف الدمشقي ، وابو البركات محمد ابن محمد بن علي قاضي اسيوط ، والشريف ابو القاسم عبد الله بن علي بن زهرة الحلبي ، وولده العضد مرهف بن اسامة بن منقذ ، وجماعة غيرهم .

روى لنا عنه أبو اسحق ابراهيم بن شاكر بن عبد الله بن سليمان ، وأبو الحسن محمد بن أبي جعفر بن علي القرطبي ، وابو محمد عبد الله بن عمر بن علي الحموي ، والحكيم ابو القاسم هبة الله بن صدقة الكولي ، وأبو عبد الله محمد بن عبد الكافي بن علي الربعي ، وأبو علي الحسن بن محمد بن اسماعيل القيلوي وابو المعالي محمد بن الحسين بن اسعد بن العجمي .

أخبرنا القاضي بهاء الدين ابو اسحق ابراهيم بن ابي اليسر شاكر بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي – قراءة عليه بداره بدمشق – ، والشيخ تاج الدين أبو الحسن محمد بن أحمد بن علي القرطبي الدمشقي بها ، وشمس الدين ابو عبد الله محمد بن الكافي بن علي الربعي ، قاضي حمص بحلب وبدمشق ، وأبو القاسم هبة الله بن صدقة بن عبد الله الكولي بالقصر الغربي بالقاهرة ، قالوا: أخبرنا مؤيد الدولة ابو المظفر أسامة بن مرشد بن علي بن منقذ الكناني قال :أخبرنا الشيخ ابو الحسن علي بن سالم بن الأغر بن علي السنبسي بثغر شيزر سنة تسع وتسعين واربعمائة قال : اخبرنا الشيخ ابو صالح محمد بن المهذب بن علي قال : حدثنا جدي ابو الحسين علي بن المهذب بن أبي حامد قال :حدثنا ابو حامد بن همام قال : حدثنا محمد بن سليم القبرسي قال : حدثنا ابراهيم بن هدبة عن انس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «ألا من بكى على ذنب في الدنيا حتي تسيل الدموع على حر وجهه حرم الله ديباح وجهه على جهنم ».(٧٦)

أخبرنا أبو هاشم عبد المطلب بن الفضل بن عبد المطلب الهاشمي

قال:(٧٧) أخبرنا ابو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور السمعاني الامام قال : أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الشيزري ، أبو المظفر المعروف بمؤيد الدولة من أهل شيزر ، قلعة بالشام من الثغر ، أمير فاضل غزير الفضل ، وافر العقل ، حسن التدبير مليح التصانيف ، عارف باللغة والأدب ، مجود في صنعة الشعر ، من بيت الامارة والفروسية واللغة ، سكن دمشق ، لقيته بالفوار (٧٨) بظاهر دمشق بحوران واجتمعت معه بدمشق عدة نوب ، وكان مليح المجالسة حسن المحاورة ، كثير المحفوظ ، كان يقول لي : كنت أحفظ أكثر من عشرين ألف بيت من شعر الجاهلية ، علقت عنه من شعره شيئا ، وقال لي : دخلت بغداد وقت محاربة دبيس بن صدقة مع المسترشد بالله ، قال : ونزلت الجانب الغربي عند باب البصرة وما عبرت الى شرقيها ، سألته — أعني أبا المظفر — عن مولده ، فقال : ولدت في سنة سبع أو ثمان وثمانين واربعمائة — أنا الشاك .

أخبرنا زين الأمناء أبو البركات الحسن بن محمد بن الحسن فيما أذن لنا في روايته عنه قال : اخبرنا عمي الحافظ ابو القاسم على بن الحسن ، قال : اسامة بن مرشد بن علي بن المقلد ، بن نصر بن منقذ بن محمد بن منقذ بن نصر بن هاشم أبو المظفر الكناني الملقب بمؤيد الدولة ، له يد بيضاء في الأدب والكتابة والشعر ، ذكر لي انه ولد سنة ثمان واربعمائة ، وقدم دمشق سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة ، وخدم بها السلطان ، وقرب منه وكان شجاعا فارسا . ثم خرج الى مصر ، فأقام بها مدة ، ثم رجع الى الشام ، وسكن حماة ، واجتمعت به بدمشق ، وأنشدني قصائد من شعره سنة ثمان وخمسين وخمسمائة (٧٩).

قرأت بخط مؤيد الدولة اسامة في كتابه الموسوم «بأزهار الانهار» (٨٠) وقد أجاز روايته مع غيره لجماعة اجازوا لنا ذلك عنه منهم : الشيخ ابو محمد عبد الرحمن بن عبد الله بن علوان قال : ومما يخصني من

غرائب اللبن انني حين ولدت التمس لي من يرضعني ، فقدر الله سبحانه الرزق من امرأة كبيرة قد نيفت عن الستين سنة ، ليس لها ولد صغير ، فدرت على وارضعتني الى حين فطمت وعاشت بعد فطامي نحوا من خمس عشرة سنة وكانت رحمها الله متى عصرت ثديها طار منه اللبن كأنها مرضعة .

أنبأنا الحسن بن محمد قال : أخبرنا أبو القاسم بن أبي محمد قال : قال لي أبو عبد الله محمد بن الحسن بن الملحي : الأمير مؤيد الدولة أسامة بن مرشد بن منقذ شاعر اهل الدهر ، مالك عنان النظم والنثر ، متصرف في معانيه ، لاحق بطبقة أبيه ، ليس يستقصي وصفه بمعان ، ولا يعبر عن شرحها بلسان ، فقصائده الطوال ،لايفرق بينها وبين شعر ابن الوليد(٨١) ولا يذكر على منشدها نسبتها الى لبيد ، وهي على طرف لسانه بحسن بيانه غير محتفل في طولها ، ولا يتعثر لفظه العالي في شيء من فصولها والمقطعات فأحلى من الشهد ، وألذ من النوم بعد طول السهد في كل معنى غريب وشرح عجيب .

قلت: ولم يذكر الحافظ أبو القاسم في تاريخه احدا ممن تأخرت وفاته عن وفاته غير اربعة او خمسة ، أبو المظفر اسامة بن منقذ هذا أحدهم ، وذلك لجلالته عنده ، وعلو منزلته .

وأنبأنا محمد بن اسماعيل بن عبد الجبار بن ابي الحجاج المصري قال : اخبرنا عماد الدين ابو عبد الله محمد بن محمد حامد الكاتب الأصبهاني في كتاب «خريدة القصر وجريدة العصر » تأليفه ، قال : اسامة كإسمه في قوة نثره ونظمه ، يلوح من كلامه امارة الامارة ، ويؤسس بيت قريضة عمارة العبارة ، نشر له علم العلم ، ورقي سلم السلم ، ولزم طريق السلامة وتنكب سبل الملالة والملامة ، واشتغل بنفسه ، ومجاورة ابناء جنسه ، حلو المجالسة حالي المساجلة ، ندي الندى بماء الفكاهة ، عالي النجم في سماء النباهة ، معتدل التصاريف ، مطبوع التصانيف ، أسكنه عشق

الغوطة دمشق المغبوطة ، ثم نبت به كما ينبو الدار بالكريم ، فانتقل الى مصر ،(٨٢) فبقي بها مؤمرا ، مشارا اليه بالتعظيم الى ايام ابن رزيك ، فعاد الى الشام ، وسكن دمشق مخصوصا بالاحترام حتى أخذت شيزر من اهله (٨٣) ورشقهم صرف الزمان بنبله ، ورماه الحدثان الى حصن كيفا مقيما بها في ولده ، مؤثرا بلدها على بلده حتى اعاد الله سلطنة الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن ايوب في سنة سبعين ، ولم يزل مشغوفا بذكره ، مستهترا بأشعة نظمه ونثره ، والأمير العضد مرهف ولد الأمير مؤيد الدولة جليسه وأنيسه ، فاستدعاه الى دمشق ، وهو شيخ قد جاوز الثمانين.

وكنت قد طالعت مذيل السمعاني ، فوجدته قد وصفه وقرظه ، وأنشدني العامري له بأصبهان من شعره ما حفظه ، وكنت ابدا أشتهي لقياه ، وأشيم على البعد حياه ، وسألته عن مولده فقال : يوم الأحد سابع عشري جمادى الآخرة سنة ثمان وثمانين واربعماية (٨٤).

وقرأت في كتاب «أنموذج الأعيان » لعبد السلام بن يوسف الدمشقي بخطه قال : الأمير الأوحد ، العالم ، مجد الدين ، مؤيد الدولة ، أبو المظفر أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الشيزري الكناني ، مبرز في علم الأدب ، عريق في النسب ، من بيت التقدم والامارة والسيادة في البداوة والحضارة ، مع عقل كامل وافر ، ورأي وجه العواقب عنده سافر ، لم يزل موصوفا بالاقدام والشجاعة ، معروفا بالالسن والبراعة ، لقيته بدمشق في شهر جمادى الآخرة سنة احدى وسبعين وخمسمائة ، واخبرني ان مولده في ثالث عشري جمادى الآخرة ، يوم الأحد ، سنة ثمان وثمانين واربعمائةوأنشدني من نظمه ما يضاهي نظام اللآلي ، ويكون قلادة في جيد الأيام والليالي .

قلت: كان في الأصل بخط عبد السلام بن يوسف سابع عشري

جمادى ، فضرب بخطه على سابع وكتب فوقه ثالث ، والذي يظهـر لي ان المضروب عليه هو الصحيح •

وقرأت في كتاب الاعتبار تأليف أسامة بن مرشد : ولدت أنا وهـو - يعني ابن عمه سنان الدولة شبيب بن حـامد بـن حميد - في يوم واحد ، يوم الأحد سابع والعشرين من جمادى الآخرة سـنة ثمـان وثمانين واربعمائة .

أخبرني ابو المعالي محمد بن الحسين بن أسعد بن عبد الرحمـن الحلبي قال : سمعت اسامة بن مـرشد بـن منقـذ ، مـؤيد الدولة ، يحكي لنا بدمشق ان سبب اخراج عمه اياه من شـيزر انه قتل اسدا ضاريا بناحية شيزر فأخرجه عمه - يعني ابا العسـاكر سلطان بن علي - منها خوفا على على نفسه منه. وقال لنا: جـاء الخبر الى عمي بأن في بعض نواحي شيزر أسـدا ضـاريا قـد آذى الناس في طريقهم ، فتقدم عمي الى عسكره كلهم ان يركبـوا بـكرة الغد من ذلك اليوم الذي تقدم اليهم للتأهب للقاء الأسد وقتله .

وقال: فاستدعيت غلامي وامرته باسراج دابتـي وأخـذ رمحـي معه ، وركبت انا والغـلام في اليوم الذي أمـر عمـي بـالتأهب له ، وخرجت وغلامـي معـي حتـى اتيت الموضـع الذي فيه الأسد ، فخرج الأسد وحمـل على فقـاتلته وصرعتـه ، ونزلت اليه فقطعت رأسه ، وناولته الغلام ، وأمرته بتسميطه معه على الدابـة التي تحته ، ودخلت شيزر وبت بها ، فلما أصبح الصباح ركب عمي وعسكره ، وخرجوا يطلبون الأسد ، فوجدوا جثتـه مـطروحة بـلا رأس ، فعجبوا من ذلك ، وأنا ساكت لا أتكلم .

قال : وتحدث غلامي مع الغلمان بذلك فشاع بينهم حتى علم عمي به ، فرجع ودخل شيزر ، وصعدنا على العادة الى قلعتها وبتنا تلك الليلة ، فقام عمـي نصـف اليل ، وطلبني، وأمـر مـن أسرح له مركوبا ، وأمرني بالركوب وقال : أريد ان تجيء معي الى مـوضع

سماه خارج شيزر في شغل ، فـركبت معـه حتـى ابعـدني عن شيزر ، ثم قال لي : يا بن اخي شيزر لك فهبها لي ، فوالله ما بقيت أقدر على مساكنتك ، ولم يأخذني في هذه الليلة نوم من شدة فـكري فيك ، إذا كان فعلك مع الأسد هذا الفعل فايش يكون معي لو سولت لك نفسك ان تفتك بي ؟ ومنذ رجعت الى القلعـة ليس لي فـكر الا فيك ، ولم يأخذني نوم في ليلتي هـذه ولا قـرار الى أن بـادرت الى اخراجك فما اقدر ان اساكنك وانت على هذه الصفة!

قال : فامتثلت أمره ، وودعني ، وعاد الى شيزر ،قال: فخرجت منها وأقمت في مكان سماه لنا شذعني اسمه .

قلت: والى هذا اشار في قوله ، وقد أسن وأرعشت يده ، وكتب خطا مضطرب الحروف .

فاعجب لضعف يد عن حملها قلما

من بعد حطم القنا في لبه الأسد (٨٦)

أنشدنا افتخار الدين أبو هاشم عبد المطلب بن الفضل بـن عبـد المطلب الهاشمي قال : أنشدنا تاج الاسلام أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور السمعاني ، ح .

ثم أنشدني تاج الدين أبو الحسن محمد بن أبي جعفر أحمد بـن علي الفذكي بدمشق قالا : أنشدنا أسامة بـن مـرشد بـن منقـذ الشيزري لنفسه :

يادهر مالك لايصـ
ـدك عن مساءتي العتاب
أمرضت من أهوى ويأ
بى أن أمرضه الحجاب

او كنت تنصف كانت الا
مراض لي وله الثواب (٨٧)

قال العماد أبو عبد الله محمد بن محمد بن حامد الكاتب الاصفهاني ـ وقد أورد لاسامة هذه الابيات في خريدة القصر : قد قيل في مرض الحبيب كل معنى بكر مخترع ببيه ، ومبتدع فكر ، الا أن هذه الابيات لطيفة المعنى ، ظريفة المغزى ، مقصدها سهيل ، وموردها سهل ، ولو سمعتها في البادية عقيل لم يثبت لها عقل . ولا شك ان حبيبته عند استنشاق هوائها فاز ببرو مهجته وشفائها (٨٨)

انشدنا أبو الحسن محمد بن أبي جعفر بن علي القرطبي قال : أنشدني أبو المظفر أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن منقذ الكناني لنفسه :

اذا الصب اشفى من جواه على شفا
أتى الياس مما يرتجي بشفائه
وقد زادني يأسي سقاما فكيف
بالشفاء لصب داؤه في دوائه(٨٩)

انشدني أبو علي حسن بن محمد بن اسماعيل النيلي قال : انشدنا مؤيد الدولة اسامة بن مرشد بن منقذ لنفسه في كتاب العصا :

حناني الدهر وأب
ـلتني الليالي والغير
فصرت كالقوس ومن
عصاي القوس وتر
أهدج في مشيي وفي
خطوي فتور وقصر (٢٠٩ ـ ظ)

- ٥٥٥١ -

كأنني مقيد
وانما القيد الكبر

والعمر مثل الكأس في
لخره يبقى الكدر (٩٠)

انشدنا محمد بن أحمد بن علي بدمشق قال : انشدني أبو المظفر أسامه بن مرشد بن منقذ لنفسه في ضرس قلعه .

وصاحب صاحبني في الصبا
حتى ترديت رداء المشيب
لم يبد لي ستين حولا ولا
بلوت من اخلاقه مايريب
أفسده الدهر ومن ذا الذي
يحافظ العهد بظهر المغيب
ثم افترقنا لم اصب مثله
عمري ومثلي أبدا لايصيب
فأعجب لها من فرقة باعدت
بين أليفين وكل حبيب (٩١)

انشدني الحكيم أبو القاسم هبة الله بن صدقة بن عبد الله الكولي بالقاهرة قال : انشدنا مؤيد الدولة أسامة بن مرشد بن منقذ لنفسه بدمشق في سنة اربع وثمانين وخمسمائة في ضرس قلعه :

وصاحب صاحبته
ستين حولا مارأيته
حتى اذا عاينته
عاينت منه ماأبيته
والهجر فيه - راحة
من كل مصحوب قليته

وأنشدنا الحكيم أبو القاسم المذكور قال : أنشدنا مؤيد الدولة اسامة بن منقذ لنفسه في مثله .

وصاحب لاتمل الدهر صحبته
يشقى لنفعي ويسعى سعي مجتهد
لم ألقه مذ تصاحبنا فحين بدا
لناظري افترقنا فرقة الأبد

قال العماد الكاتب ـ وأوردهما في الخريدة ، لو أنصفت فهمك ان كنت منتقدا وترقيت عن مرقب وهمك مجتهدا ، وغصت بنظر فكرك في بحار معانيه لغنمت من فرائد درره ولآليه . ولعلمت اذا لم يكن هكذا فلغو ، وأنه اذا لم يبلغ هذا الحد من الجد فهجر ولهو ، ومن الذي أتى في وصف السن المقلوع بمثل هذا الفن المطبوع ، فهل سبقه أحد الى معناه ، وهل في هذا النمط ساواه (٩٢)

أنشدنا أبو هاشم عبد المطلب بن الفضل الحلبي قال : أنشدنا أبو سعد عبد الكريم بن محمد السمعاني ، ح .

وأنشدنا محمد بن أحمد بن علي الفنكي قالا : انشدنا أبو المظفر أسامة بن علي الكناني لنفسه :

لم يبق لي في هواكم أرب
سلوتكم والقلوب تنقلب
أوضحتم لي سبل السلو وقد
كانت لي الطرق عنه تنشعب
إلام دمعي من هجركم سرب
قان وقلبي من غدركم يجب

ان كان هذا لأن تعبدني السحـ
ـبا فقد اعتقني الريب

احببتكم فوق ماتوهمه الـ
ـخلاق وخنتم اضعاف ماحسبوا (٩٣)

أورد أبو عبد الله محمد بن محمد الكاتب هذه الأبيات في الخريدة وقال : تأمل معاني هذه الأبيات بعين التأني والثبات تعرف أن قائلها من ذوي الحمية ، والنفوس الأبية ، والهمم العلية وكل من يملكه الهوى ويسترقه قلما يطلقه السلو ويعتقه ، الا أن يكون كبيرا غلب عقله هواه ، واستهجن في الشهوات المذمومة نيل مناه ، وقول « قد أعتقني الريب » في غاية الجودة ، ونهاية الكمال ، أعذب من الزلال ، وأطيب من الحلال ، والعب بقلوب المتيمين من نسيم الشمال (٩٤)

أنشدنا شيخ الشيوخ تاج الدين أبو محمد عبد الله بن عمر بن علي بن حموية قال : انشدنا مؤيد الدولة أبو المظفر أسامة بن مرشد ابن علي بن مقلد بن منقذ لنفسه :

أيا تاج فرسان الهياج ومن بهم
ثبتت أواخي ملك كل متوج
قوم اذا لبسوا الحديد عجبت من
بحر يدافع في لظى متوهج (٩٥)

أنشدنا أبو الحسن بن أبي جعفر قال : أنشدنا أبو المظفر أسامة ابن مرشد لنفسه وقالها على لسان الشيخ ابي صالح بن المهذب رحمه الله ، وكانت فيه حدة مع فضل وعلم وتقى ، وكان نزل بشيزر فريق من العرب معهم جارية اسمها شوق مستحسنة ، وكتب الابيات ورمى بها نسخا بشيزر ، فوقع منها بيد الشيخ أبي صالح رحمه الله ، فقامت قيامته ، ولم يدر أحد من عمل الابيات ، فقال له

الشيخ العالم أبو عبد الله محمد بن يوســف المعــروف بــابن المنيرة رحمه الله ، وهو مؤدبه هذه الأبيات التي قد رميت ما يحسن يقولها الا أنا ، أو القاضي أبو مرشد بن ســليمان ، أو انت ، وأنا وأبــو مرشد ماقلناها وماقالها غيرك ، وهي .

قولا لريم في حلة العرب
اليك اشكو ، ما يصنع اسمك بي
بم استجازت عيناك سفك دمي
وأخذ قلبي في جملة السلب
اولاك والدهر كله عجب
ماخفرت في ذمة العرب
جارك أولى برعي ذمته
إن أنت راعيت حرمة الصقب
هذا هوى كنت في بلهنية
عنه فيا الرجال العجب
ايسترق الكريم ذا النسب ال
واضح عبد مستعجم النسب
ويحمل الثأر من به خور
عن احتمال الحجال والقلب
نشدتك الله في احتمال دمي
فمعشري مايفوتهم طالبي
مافات قومي آل المهذب من
قبلي ثار في سالف الحقب
فلا تريقي دما لذي ادب
يسطو بأقلامه على القضب (٩٦)

قلت : هذا أبو صالح ابن المهذب ليس هو ابو صالح الكبير محمد ابن المهذب بن علي بن المهذب فإن اسامة لم يدرك زمنه لأنه توفي سنة خمس وستين وأربعمائة وهذا غيره ، ذكرنا ذلك لئلا يلتبس به .

- ٥٥٥٥ -

انشدنا أبو محمد عبد الله بن عمر بن حموية قال : انشدنا اسامة بن منقذ لنفسه :

اساكن قلبي والمهامه بيننا
وانسا عيني والمزار بعيد
تمثلك الاشواق لي كل ليلة
فهي جديد والفراق مديد (٩٧)

انشدنا محمد بن أبي جعفر بن علي قال : انشدنا اسامة لنفسه :

ابى لي ان أبالي بالرزايا
فؤاد لايروع بالخطوب
ونفس لاتسف لمستفاد
ولاتأس على وفر سليب
وعلمي أن ماأهوى وأخشى
يزول بغير شك عن قريب (٩٨)

انشدنا الامام أبو محمد عبد الرحمن بن عبد الله بن علوان الأسدي قال :

يارب ان اساءتي قد سودت
بيد الكرام الكاتبين صحائفي
والخوف منك ومن عقابك مقلقي
فارحم مخافة ذي الفؤاد الراجف
من خاف شيئا فر منه هاربا
واليك منك مفر عبد خائف (٩٩)

وانشدنا محمد بن أحمد بن علي القرطبي قال : انشدنا اسامة ابن مرشد لنفسه .وكتبها على كتاب نسخه :

- ٥٥٥٦ -

يارب حسن رجائي فيك حسن لي
تضييع وقتي في لغو وفي لعب
وأنت قلت لمن اضحى على ثقة
بحسن عفوك إني عند ظنك بي (١٠٠)

قال لي أبو علي حسن بن محمد بن اسماعيل القياوي : توفي اسامة بن مرشد بن منقذ بدمشق في سنة أربع وثمانين وخمسمائة ، قال : وفيها دخلت دمشق .

أنبأنا الحافظ أبو محمد عبد العظيم بن عبد القوي المنذري قال - في ذكر من توفي سنة أربع وثمانين وخمسمائة « في كتاب التكملة لوفيات النقلة » : وفي ليلة الثالث والعشرين من شهر رمضان توفي الأمير الأجل مؤيد الدولة أبو المظفر أسامة بن أبي سلامة مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني الكلبي الشيزري بدمشق ، ودفن من الغد بجبل قاسيون ، وكان مولده بشيزر في يوم الأحد السابع والعشرين من جمادي الآخرة سنة ثمان وثمانين وأربعمائة وقيل في شهر رمضان منها ، حدث عن أبي الحسن علي بن سالم السنبسي وغيره ، سمع منه الحافظ أبو سعد عبد الكريم بن محمد السمعاني ، وأبو القاسم علي بن الحسن الدمشقي وأبو المواهب الحسن بن هبة الله بن صصرى ، وأبو محمد عبد الغني بن عبد الواحد ، وحدثنا عنه ولده الأمير الأجل أبو الفوارس مرهف وغيره ، وهو من بيت الامارة والشجاعة ، وله اليد البيضاء في اللغة والكتابة والشعر ، وله مصنفات مشهورة وكان مشهورا بالشجاعة والاقدام ، ودخل بغداد ، والموصل ، ودمشق ومصر (١٠١)

أبو المظفر اسامة بن مرشد بـن علي بـن مقلد بـن
نصر بن منقذ الكناني الكلبي الشيزري الملقـب مـؤيد
الدولة مجد الدين

من .وفيات الأعيان لابن خلكان

من أكابر بني منقذ أصحاب قلعة شيزر وعلمائهم ، وشـجعانهم له تصانيف عديدة في فنون الأدب.ذكره أبو البركات بـن المسـتوفي في تـاريخ إربـل ، وأثنى عليه وعده في جملة مـن ورد عليه ، وأورد له مقاطيع من شعره ، وذكره العماد الكاتب في الخريدة ، وقـال بعـد الثناء عليه : سكن دمشق ثم نبت به كما تنبو الدار بالكريم ، فانتقل الى مصر فبقي بها مؤمرا مشارا اليه بالتعظيم الى أيام الصالح بن رزيك ، ثم عاد الى الشام ، وسكن دمشق ثـم رمـاه الزمـان الى حصن كيفا فأقام به حتى ملك السـلطان صـلاح الدين رحمـه الله تعالى دمشق فاستدعاه وهو شيخ قد جاوز الثمانين .

وقال غير العماد : إن قدومه مصر كان في ايام الظافر بن الحافظ والوزير يومئذ العادل بن السلار فأحسن اليه وعمل عليه حتى قتـل حسبما هو مشروح في ترجمته .

قلت ثم وجدت جزءا كتبه بخطه للرشيد بـن الزبير حتـى يلحقـه بكتاب الجنان وكتـب عليه أنه كتبـه بمصر سـنة احـدى وأربعين وخمسمائة ، فيكون قد دخل مصر في أيامه ، واقام بها حتـى قتـل العادل بن السلار اذ لاخـلاف أنه حضر هناك وقـت قتله،وله ديوان شعر في جـزئين مـوجود في أيدي الناس ورأيتـه بخـطه وذقلت منه قوله :

لاتستعر جلدا على هجرانهم
فقواك تضعف من صدود دائم
وأعلم بأنك ان رجعت اليهم
طوعا والا عدت عودة راغم
ونقلت منه في ابن طليب المصري وقد احترقت داره
انظر الى الأيام كيف تسوقنا
قسرا الى الاقرار بالأقدار
ماأوقد ابن طليب قط بداره
نارا وكان خرابها بالنار

ومما يناسب هذه الواقعة أن الوجيه بن صورة المصرى دلال الكتب ، كانت له بمصر دار موصوفة بالحسن ، فاحترقت فعمل نشء الملك أبو الحسن علي بن مفرج المعروف بابن المنجم المعري الأصل المصري الدار والوفاة :

اقول وقد عاينت دار ابن صورة
وللنار فيها مارج يتضرم
وكذا كل مال أصله من مهاوش
فعما قليل في نهابر يعدم
وماهو الا كافر طال عمره
فجاءته لما استبطأته جهنم

والبيت الثاني مأخوذ من قوله صلى الله عليه وسلم :« من أصاب مالا من مهاوش أذهبه الله في نهابر » والمهاوش الحرام والنهابر المهالك ، والوجيه المذكور هو أبو الفتوح ناصر بن أبي الحسن علي ابن خلف الانصاري المعروف بابن صورة ، وكان سمسارا في الكتب بمصر ، وله في ذلك حظ كبير ، وكان يجلس في دهليز داره لذلك ، ويجتمع عنده في يوم الأحد والأربعاء أعيان الرؤساء والفضلاء ، ويعرض عليهم الكتب التي تباع ولا يزالون عنده الى انقضاء وقت السوق ، فلما مات السلفي سار الى الاسكندرية لبيع كتبه ، ومات في السادس عشر من شهر ربيع الآخر سنة سبع وستمائة بمصر ، ودفن بقرافتها رحمه الله تعالى .

ولابن منقذ من قطعة يصف ضعفه :

فأعجب لضعف يدي عن حملها قلما
من بعد حطم القنافي لبة الأسد

ونقلت من ديوانه ايضا ابياتا كتبها إلى أبيه مرشد ، جوابا عن أبيات كتبها أبوه اليه وهي :

وماأشكو تلون أهل ودي
ولو أجدت شكيتهم شكوت
مللت عتابهم ويئست منهم
فما أرجوهم فيمن رجوت
إذا أدمت قوارضهم فؤادي
كظمت على اذاهم وانطويت
ورحت عليهم طلق المحيا
كأني ماسمعت ولارأيت
تجنو إلي ذنوبا ماجنتها
يداي ولاأمرت ولانهيت
ولا والله ماضمرت غدرا
كما قد أظهروه ولاذويت
ويوم الحشر موعدنا وتبدو
صحيفة ماجنوه وماجنيت

وله بيتان في هذا الروي والوزن كتبهما في صدر كتـاب الى بعض أهالي بيته ، في غاية الرقة والحسن وهما :

شكا ألم الفراق الناس قلبي
وروع الذوى حي وميت
وأما مثل ماضمت ضلوعي
فاني ماسمعت ولارأيت

والشيء بالشيء يذكر ، أنشدني الأديب أبو الحسن يحيى بن عبـد العظيم المعروف بالجزار المصري لنفسه في بعض أدباء مصر ، وكان شيخا كبيرا وظهر عليه جرب فالتطخ بالكبريت قال : فلما بلغني ذلك كتبت اليه :

أيها السيد الأديب دعاء
من محب خال من التنكيت

أنت شيخ وقد قربت من النا
ر فكيف ادهنت بالكبريت

ونقلت من خط الأمير أبي المظفر اسامة بن منقذ المذكور لنفسه ، وقد قلع ضرسه وقال : عملتهما ونحن بظاهر اخلاط وهو معنى غريب ويصلح أن يكون لغزاني الضرس :

وصاحب لاأمل الدهر صحبته
يشقى لنفعي ويسعى سعي مجتهد
لم ألقه مذ تصاحبنا فحين بدا
لناظري افترقنا فرقة الأبد

قال العماد الكاتب وكنت أتمنى أبدا لقياه ، وأشيم على البعد حياه ، حتى لقيته في صفر سنة أحدى وسبعين ، وسألته عن مولده فقال : يوم الأحد السابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ثمان وثمانين وأربعمائة ، قلت: بقلعة شيزر ، وتوفي ليلة الثلاثاء الثالث والعشرين من شهر رمضان سنة أربع وثمانين وخمسمائة ، بدمشق رحمه الله تعالى ، ودفن من الغد شرقي جبل قاسيون ودخلت تربته وهي على جانب نهر يزيد الشمالي وقرأت عنده شيئا من القرآن وترحمت عليه .

وتوفي والده ابو اسامة مرشد سنة احدى وثلاثين وخمسمائة رحمه الله تعالى .

وشيزر ـ بفتح الشين المثلثة وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها زاء مفتوحة ثم راء ـ قلعة بالقرب من حماة وهي معروفة بهم وسيأتي ذكرها في حرف العين عند ذكر جده علي بن مقلد ان شاء الله تعالى .

اسامة بن منقذ

من المقفى الكبير المقريزي

اسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ بن محمد بن منقذ بن نصر بن هاشم بن سرار بن زياد بن زغيب بن مكحول بن عمرو بن الحارث بن عامر بن مالك بن أبي مالك بن عوف بن كنانة ابن بكر بن عذرة بن زيد اللات بن رفيدة بن ثور بن كلب بن وبرة بن ثعلب بن حلوان بن عمرو بن الحاف بن قضاعة ، أبو المظفر ، مؤيد الدولة الشيزري .

مولده :

ولد يوم الأحد سابع عشرين جمادى الآخرة سنة ثمان وثمانين وأربعمائة — وقيل : ثالث عشرينه ، وقيل : في شهر رمضان منها — والأول هو الصحيح وكانت ولادته بقلعة شيزر .

وتوفي بدمشق في ليلة الثالث والعشرين من شهر رمضان سنة أربع وثمانين وخمسمائة ، ودفن من الغد بجبل قاسيون .

وهو من أكابر بني منقذ اصحاب قلعة شيزر وعلمائهم وشجعانهم ، وله تصانيف عديدة في فنون الأدب ، وله ديوان شعر في جزءين .

وانتقل من شيزر الى دمشق فسكنها مدة ، ثم سار منها الى مصر في خلافة الحافظ لدين الله هو واخوته ابو المغيث منقذ ، وشرف الدين مرشد وأولادهم ، والوزير نظام الدين أبو الكرام محسن ، لاستيحاشهم من الأتابك معين الدين أنر لمجير الدين أبق صاحب دمشق ، وخوفهم منه ، وقدموا في جمادى الآخرة سنة تسع وثلاثين وخمسمائة ، فاستمر بها الى أن ولي العادل بن السلار الوزارة ، فاختص به .

تحريضه على قتل الظافر :

فلما خرج العسكر من القاهرة لحفظ عسقلان من الفرنج في سنة ثمان وأربعين وخمسمائة ، وعليه عباس بن تميم ربيب الوزير العادل علي بن السلار ، ومعه من أمراء الدولة ملهم والضرغام وأسامة بن منقذ هذا ، وكان خصيصا بعباس ، ونزلوا على بلبيس ، تذاكر عباس واسامة مصر وطيبها وماهم خارجون اليه من مقاساة السفر ولقاء العدو ، فتأوه عباس أسفا على مفارقة مصر وأخذ يثرب على العادل كونه جرده ، فقال له اسامة : لو أردت كنت أنت سلطان مصر .

فقال : كيف لي بذلك .

فقال : هذا ولدك نصر بينه وبين الخليفة ـ يعني الظافر ـ مودة عظيمة ، فخاطبه على لسانه أن تكون سلطان مصر موضع عمك فانه يحبك ويكرهه ، فإذا أجابك فاقتل عمك .

فوقع كلامه من عباس بموقع ، وجهز ابنه الى الخليفة ، وكان من قتل ابن السلار وولاية عباس الوزارة ماتقدم في موضعه .

فلما استقل عباس بوزارة الخليفة الظافر ، وكره اختلاط نصر ابن عباس بالخليفة الظافر ، ثقل اسامة على امراء مصر ، واستوحشوا منه لعلمهم أنه هو الذي دبر قتل ابن السلار وتحدثوا بقتله ، وخيلوا الظافر منه كونه من أهل الشام ، وهواه مع بني العباس ، ومتى ترك وقع منه مالايتدارك ، وبلغه ذلك فخاف من الظافر ، وأخذ في الحيلة لنفسه ، وشرع يدبر في فتنه أخرى ، فأغرى عباس الوزير بابنه نصر ، وبالغ حتى قال له يوما : كيف تصبر على مايقول الناس في حق ولدك ، ومن أن الخليفة يفعل به مايفعل بالنساء ؟

فغضب عباس من ذلك وطلب ابنه وعذفه فلم يصغ لقوله واستمر على معاشرة الخليفة الى أن انعم عليه بناحية قليوب ، فقال له أسامة بحضرة ابيه: ما هي بمهرك غالية!

فامتعض عباس وشق عليه هذا القول ، وقال لأسامة : كيف الحيلة في الخلاص مما بلينا به ؟

فقال : هين ! هذا الخليفة يأتي في كل وقت إلى بيت ولدك خفية ، فمره إذا جاءه أن يقتله .

فما زال عباس بابنه نصر حتى قتل الخليفة كما ذكر في ترجمته .
فلما أقام عباس الفائز عيسى في الخلافة بعد قتل الظافر ، وقدم طلائع بن رزيك من الاشمونين لاخذ ثأر الظافر آل أمر عباس إلى أن فر من القاهرة ، هو وولده نصر ، وأسامة ، في عدة من أصحابهم ، بعدما نهب لأسامة عند خروجه من مصر أربعون غرارة(١٠٩) جمالية مخاطة فيها من الذهب والفضة والكسوة شيء كثير ، وأخذ من اصطبله ستة وثلاثون حصانا وبغلة بسروجها ولجمها وعدتها ، وخمسة وعشرون جملا ، وأخذ من إقطاعه بكوم اشبين مائتا رأس بقر لبساتينه وأوسيته ، وأهراء غلة .

هروبه من الافرنج وخذلانه العباس :

فخرج عليهم الافرنج ، ففر أسامة وتبعه أصحابه ، وتركوا عباسا وابنه حتى قتل عباس وأسر ابنه نصر في يوم الجمعة خامس شهر ربيع الاخر ، وسار أسامة إلى دمشق في سنة تسع وأربعين وخمسمائة فاقام بها .

ثم رماه الزمان الى حصن كيفا فاقام به حتى ملك السلطان

صلاح الدين يوسف دمشق ، فاستدعاه وهو شيخ قد جاوز الثمانين .

قال فيه العماد الكاتب : وأسامة كاسمه في قوة نثره ونظمه ، معتدل التصاريف ، مطبوع التصانيف .

شعره :

ومن شعره في قلع ضرسه :

وصاحب لا أمل الدهر صحبته
يشقى لنفعي ويسعى سعي مجتهد
لم ألقه مذ تصاحبنا فحين بدا
لناظري افترقنا فرقة الأبد

انظر إلى لاعب الشطرنج يجمعها
مغالبا ثم بعد الجمع يرميها
كالمرء يكدح الدنيا ويجمعها
حتى إذا مات خلاها وما فيها

وقال :

لأرمين بنفسي كل مهلكة
مهولة يتحاماها ذوو الباس
حتى أصادف حيني فهو أجمل بي
من الخضوع وأستغني عن الناس

وقال قصيدته المشهورة التي كتبها إلى دمشق بعد خروجه منهـا الى مصر يعتب على الأمير معين الدين أنر ، وهي من غرر القصائد:

ولوا فلما رجونا عدلهم ظلموا
فليتهم حكموا فينا بما علموا
ما مر يوما بفكري ما يريبهم
ولاسعت بي إلى ما ساءهم قدم
ولا اضعت لهم عهدا ولا اطلعت
على ودائعهم في صدري التهم
فليت شعري ، بم استوجبت هجرهم
ملوا فصدهم عن وصلي السأم
حفظت ما ضيعوا ، أغضيت حين جنوا
وفيت إذ غدروا ، واصلت إذ صرموا
حرمت ما كنت أرجو من ودادهم
ما الرزق إلا الذي يجري به القلم
محاسني منذ ملوني باعينهم
قذى ، وذكري في آذانهم صمم
وبعد ، لو قيل لي : ماذا تحب وما
تختار من زينة الدنيا ؟ لقلت : هم
هم مجال الكرى من مقلتي ، ومن
قلبي محل المنى ، جاروا أو اجترموا
تبدلوا بي وما أبغي بهم بدلا
حسبي بهم أنصفو في الحكم أو ظلموا
ياراكبا تقطع البيداء همته
والعيس تعجز عما تدرك الهمم
بلغ أميري معين الدين مألكة
من نازح الدار ولكن وده أمم
وقل له : أنت خير الترك فضلك
الحياء والدين والإقدام والكرم

وأنت أعدل من يشكى إليه ، ولي
شكية أنت فيها الخصم والحكم

هل في القضية يامن فضل دولته
وعدل سيرته بين الورى علم

يضيع واجب حقي بعدما شهدت
به النصيحة والأخلاص والخدم

وما ظننتك تنسى حق معرفتي
إن التعارف في أهل النهى ذمم

ولا اعتقدت الذي بيني وبينك من
ود ، وان أجلب الأعداء ، ينصرم

لكن ثقاتك ما زالوا بغشهم
حتى استوت عندك الأنوار والظلم

باعوك بالبخس يبغون الغنى ، ولهم
لو أنهم عدموك الويل والعدم

والله ما نصحوا فيما استشرتهم
وكلهم ذو هوى في الرأي متهم

كم حرفوا من مقال في سفارتهم
وكم سعوا بفساد ضل سعيهم

أين الحمية والنفس الأبية إذ
ساموك خطة خسف عارها يصم

هلا أنفت حياء أو محافظة
من فعل ماأذكرته العرب والعجم

أسلمتنا وسيوف الهند مغمدة
ولم يرو سنان السمهري دم

وكنت أحسب من والاك في حرم
لا يعتريه به شيب ولا هرم

وإن جاركم جار السموأل لا
يخشى الاعادي ولاتغتاله النقم

وما طمان بأولى من أسامة بال
ـوفاء لكن جرى بالكائن القلم

هبنا جنينا ذنوبا لا يكفرها
عذر ، فماذا جنى الأطفال والحرم

ألقيتهم في يد الافرنج مبتغيا
رضى عدى يسخط الرحمن فعلهم

هم الاعادي وقاك الله شرهم
وهم بزعمهم الاعوان والخدم

إذا نهضت إلى مجد تؤثله
تقاعدوا ، فإذا شيدته هدموا

وإن عرتك من الايام نائبة
فكلهم الذي يبكيك مبتسم

حتى اذا ما انجلت عنهم غيابتها
بحد عزمك وهو الصارم الخذم

رشفت أجن عيش كله كدر
ووردهم من نداك السلسل الشبم

وإن أتاهم بقول عنك مختلق
واش فذاك الذي يحبى ويحترم

وكل من ملت عنه قربوه ، ومن
والاك فهو الذي يقصى ويهتضم

بغيا وكفرا لما أوليت من منن
وموقع البغي لولا جهلهم وخم

جربهم مثل تجريبي لتخبرهم
فالرجال إذا ما جربوا قيم

هل فيهم رجل يغني غناي إذا
جلى الحوادث حد السيف والقلم

أم فيهم من له في الخطب ضاق به

ذرع الرجال يد يسطو بها وفم

لكن رأيك أدناهم وأبعدني

فليت أنا بقدر الحب نقتسم

وما سخطت بعادي إذ رضيت به

ولا لجرح إذا أرضاكم ألم

واست آسى على الترحال من بلد

شهب البزاة سواء فيه والرخم

تعلقت بحبال الشمس من كبدي

ثم انثنت وهي صفر ملؤها ندم

لكن فراقك أساني وآسفني

ففي الجوانح نار منه تضطرم

فاسلم فما عشت لي فالدهر طوع يدي

وكل ما نالني من بؤسه نعم

فلما وقف عليها معين الدين ألزم الاديب أبا الثناء محمود بن نعمة بن رسلان الشيزري ، حتى أجاب عنها بأبيات أولها :

ياظالما ناره في القلب تضطرم

مهلا ! فلحظك تغشى نوره الظلم

كأنك القوس تردي وهي صارخة

وما ألم بها من غيرها ألم

تجني وتلزمني ذنبا أتيت به

ووجه غدرك باد ليس يذبهم

وقال(١٠٣) :

الخلق في يوم القيامة موقف

تجزي البرية فيه عن أعمالها

ومطوق الارضين غاصب حدها
فليهنا من قد حازها بكمالها

وقال :

ياليت أن ديارنا كانت كذا :
طورا تفرقنا وطورا تجمع
اكنها درست وأاوحشها الردى
من أهلها فهي القفار البلقع
لايرتجى لهم إياب جامع
أشتاتهم حتى يضم المجمع

وقال :

وسائل الدار عمن كان يملكها
هل آنست عنهم من بعدهم خبر
فلو أجابت لقالت وهي عالمة
بسيرة السلف الماضي ومن غبرا
أرتهم العبر الدنيا فما اعتبروا
فصيرتهم اقوم بعدهم عبرا

وقال :

وما أشكو تلون أهل ودي
ولو أجدت شكاتهم شكوت
مللت عتابهم ويئست منهم
فما أرجوهم فيمن رجوت
إذا أدمت قوارصهم فؤادي
صبرت على أذاهم وانطويت

ورحت عليهم طاق المحيا
كاني ما سمعت ولا رأيت

ولا والله ما أضمرت غدرا
كما قد أضمروه ، ولا نويت

تجذوا لي ذنوبا ما جنتها
يداي ولا أمرت ولا نهيت

هم نقضوا مواثيقي وعهدي
ولم يوفوا ، وهاأنا قد وفيت

ويوم الحشر موعدنا وتبدو
صحائف ما جذوه وما جنيت

كتبه :

وله عدة مصنفات ، منها : كتاب التاريخ البدري ، ذكر فيه أهل بدر ، وعدتهم ، وأسماءهم ، وانسابهم ، وأحوالهم . وذكر فيه مغازي النبي صلى الله عليه وسلم وجميع أحواله من أول أمره إلى آخره ، واستقصى ذلك في خمس مجلدات كبار على حروف المعجم .

وكتاب الشيب والشباب ، ذكر فيه الخضاب وما جاء فيه ، ورتبه على سبعة أبواب في كل فصول . وكتاب ملحق به سماه« استدراك المرتاب » .

وكتاب الحنين الى الاوطان . وكتاب أخبار النساء ، بدأ فيه بحواء ، وذكر فيه أم موسى ، ومريم ابنة عمران وأخبارهن ، وأمهات العرب ، والأخوات ، والزوجات ، والبنات المنجبات ، والنساء التي سارت بذكرهن الاشعار ، واستقصى أخبار الجميع واشعارهن وما قيل فيهن . وكتاب وسائل السائل ، يتضمن الادعية وأوقاتها وماورد فيها . وكتاب المنازل والديار . وكتاب نصيحة الدعاة . وكتاب الاشارة . وكتاب زجر عمرو بن بحر الجاحظ ، فيه النهي عن الزنا واللواط والفواحش . وكتاب أزهار الازهار ، فيه

صفة الجنة ومنافع اللبن ومضاره . وكتاب العصا ، فيه ذكر عصا موسى عليه الصلاة والسلام ، وما جاء في العصا . وكتاب النوم والاحلام . وكتاب التأسي والتسلي . وكتاب فضائل الخلفاء الراشدين . وكتاب المحاسن . وكتاب نزهة الناظر في إملاء الخاطر ، وكتاب ردع الظالم ورد المظالم ، وكتاب الاعتبار ، وكتاب تاريخ ذكر الحوادث من أول الهجرة إلى زمانه مختصرا ، وكتاب لباب الآداب ، وكتاب مكارم الاخلاق ، في عشرين مجلدة ، صنفه في مدة عشر سنين ، مدة مقامه بمصر ، وكتاب المنتخب من أشعار العرب ، وكتاب المختار من محدث الاشعار ، وكتاب المماثلة في الشعر ، وكتاب معونة المساعد على حصر الشواهد ، في الشعر أيضا ، وكتاب الاقسام ، في الشعر أيضا ، وكتاب أمان الخائفين ، في الزهد ، وكتاب الديرة والحصون ، وكتاب فيه شعر جماعة سأله ابن الزبير عنهم ، وكتاب المكارم والكرم ، ورعاية الذمم ، وكتاب الفرق ما بين المحبة والهوى ، وكتاب زور أبي العلاء ، وكتاب ضربة الولاء ، وكتاب اختيار شعر أبي تمام ، وكتاب التجارة المربحة ، وكتاب مختار شعر أبي نواس .

كتاب الاعتبار

الباب الاول

حروب واسفار

معركة قنسرين ضد الفرنجة سنة ٥٣٠هـ

ولم يكن القتل في ذلك المصاف في المسلمين كثيرا ، وكان وصل من الامام الراشد بن المسترشد ، رحمهما الله ، ابن بشر(١) رسولا الى اتابك يستدعيه فحضر ذلك المصاف ، وعليه جوشن مذهب ، فطعنه فارس من الافرنج ، يقال له ابن الدقيق(٢) ، في صدره أخرج الرمح من ظهره ، رحمه الله ، بل قتل من الافرنج خلق كثير .

وأمر أتابك ، رحمه الله ، فجمعت رؤوسهم في حقل مقابل الحصن ، فكانت قدر ثلاث الاف رأس .

ثم ان ملك الروم عادخرج إلى البلاد في سنة اثنتين وثلاثين وخمس مئة ، واتفق هو والافرنج ، خذلهم الله ، واجمعوا على قصد شيزر ومنازلتها ، فقال لي صلاح الدين(٣) « ما ترى ما فعله هذا الولد المثكل ؟ » يعني ابنه شهاب الدين أحمد ، قلت : « وأي شيء فعل ؟ » قال : « انفذ الي يقول ابصر من يتولى بلدك » ، قلت : « واي شيء عملت ؟ » قال : « نفذت الى أتابك أقول((تسلم موضعك))» ، قلت : « بئس ما فعلت ! اما يقول لك أتابك : لما كانت لحما أكلها ، ولما صارت عظما رماها علي ؟ » قال : « فأي شيء أعمل ؟ » قلت : « أنا اجلس فيها ، فان سلم الله تعالى كان بسعادتك ، ويكون وجهك أبيض عند صاحبك ، وان اخذ الموضع وقتلنا كان بآجالنا ، وأنت معذور » ، قال : « ما قال لي هذا القول احد غيرك » .

وتوهمت انه يفعل ذلك ، فحملت الغنم والدقيق الكثير والسمن وما يحتاجه المحاصر ، فأنا في داري المغرب ورسوله جاءني قال : « يقول لك صلاح الدين : نحن بعد غد سائرون إلى الموصل فاعمل

شغلك المسير » فورد على قلبي من هذا هــم عظيم وقلت : « أتــرك أولادي وأخوتي في الحصار وأسير إلى الموصل ؟» ، فاصبحت ركبت إليه وهو في الخيام استأذنته في الرواح الى شيزر لأحضر لي نفقــة ومالا نحتاج إليه في الطريق . فأذن وقال : « لاتبــطىء » ، فــركبت ومضيت إلى شيزر ، فبدا منه ما أوحش قلبي ، وعزل ابني مبــارك ونفذ إلى داري ، فرفع كل ما فيها مــن الخيام والســلاح والرحــل وقبض على ابن اختي ، وتتبــع أصــحابي ــ فــكانت نكبــة كبيرة رائعة .

(من شيزر إلى دمشق)

فاقتضت الحال مسيري الى دمشق ، ورسل أتابك تتردد في طلبي إلى صاحب دمشق ، فاقمت فيها ثماني سنين ، وشهدت فيها عدة حروب ، وأجزل لي صاحبها ، رحمه الله ، العطية والاقطاع ، وميزني بالتقريب والاكرام ـ يضاف ذلك الى اشتمال الامير معين الدين ، رحمه الله علي ، وملازمتي له ، ورعايته لأسبابي .

ثم جرت أسباب أوجبت مسيري إلى مصر . فضاع من حوائج داري وسلاحي ما لم أقدر على حمله ، وفرطت في أملاكي ما كان نكبة لخرى . كل ذلك والامير معين الدين ، رحمه الله ، محسن مجمل كثير التأسف على مفارقتي ، مقر بالعجز عن أمري ، حتى أنه أنفذ إلي كاتبه الحاجب محمود المسترشدي ، رحمه الله ، قال : « والله لو أن معي نصف الناس لضربت بهم النصف الاخر ، ولو أن معي ثلثهم لضربت بهم الثلثين ، وما فارقتك . لكن الناس كلهم قد تمالؤوا علي ومالي بهم طاقة ، وحيث كنت ، فالذي بيننا من المودة على أحسن حاله(٤) » . ففي ذلك أقول :

معين الدين كم لك طوق من
بجيدي مثل أطواق الحمام
تعبدني لك الاحسان طوعا
وفي الاحسان رق الكرام
فصار الى مودتك انتسابي
وان كنت العظامي العصامي
الم تعلم باني لانتمائي
اليك رمى سوادي كل رام
ولولا انت لم يصحب شماسي
لقسر دون إعذار الحسام

ولكن خفت من نار الاعادي
عليك فكنت إطفاء الضرام(٥)

(من دمشق الى القاهرة)

فكان وصولي الى مصر يوم الخميس الثاني من جمادى الآخرة سنة تسع وثلاثين وخمس مائة ، فقربني الحافظ لدين الله ساعة وصولي ، فخلع علي بين يديه ، ودفع لي تخت ثياب ومائة دينار ، وخولني دخول الحمام ، وانزلني في دار من دور الأفضل بن أمير الجيوش ، في غاية الحسن وفيها بسطها وفرشها ومرتبة كبيرة ، وآلتها من النحاس ، كل ذلك لايستعاد منه شيء ، وأقمت بها مدة ، إقامة في إكرام وإحترام وإنعام متواصل ، وإقطاع زاج.

فوقع بين السودان ، وهم في خلق عظيم ، شر وخلاف : بين الريحانية ، وهم عبيد الحافظ ، وبين الجيوشية(٦) والاسكندرية والفرحية ، فكان الريحانية في جانب ، وهؤلاء كلهم في جانب ، متفقين على الريحانية ،وانضاف إلى الجيوشية قوم من صبيان الخاص ، فاجتمع من الفريقين خلق عظيم ، وغاب عنهم الحافظ ، وترددت إليهم رسله ، وحرص على ان يصلح بينهم . فما أجابوا إلى ذلك ، وهم معه في جانب البلد ، فاصبحوا التقوا في القاهرة فاستظهرت الجيوشية وأصحابها على الريحانية ، فقتلت منهم في سويقة أمير الجيوش ألف رجل حتى سدوا السويقة ، ونحن نبيت ونصبح بالسلاح خوفا من ميلهم علينا ، فقد كانوا فعلوا ذلك قبل طلوعي إلى مصر .

وظن الناس لما قتل الريحانية أن الحافظ يذكر ذلك ويوقع بقاتليهم ، وكان مريضا على شفا ، فمات ، رحمه الله ، بعد يومين ، وما انتطح فيها عنزان .

وجلس بعده الظافر بأمر الله ، وهو أصغر أولاده ، واستوزر نجم الدين بن مصال ، وكان شيخا كبيرا ، والامير سيف الدين ابو الحسن علي بن السلار ، رحمه الله ، إذ ذاك في ولايته(٧) ، فحشد

وجمع وسار إلى القاهرة ، ونفذ إلى داره ، فجمع الظافر بأمر الله الأمراء في مجلس الوزارة ، ونفذ إلينا زمام القصور(٨) يقول : « ياأمراء هذا نجم الدين وزيري ونائبي ، فمن كان يطيعني فليطعه ويمتثل أمره » فقال الأمراء : « نحن مماليك مولانا سامعون مطيعون » فرجع الزمام بهذا الجواب .

فقال أمير من الامراء شيخ يقال له لكرون : « ياأمراء ، نترك علي بن السلار يقتل ؟ » قالوا : « لا والله » قال : « فقوموا » فنفروا كلهم وخرجوا من القصر شدوا على خيلهم وبغالهم وخرجوا الى معونة سيف الدين بن السلار ، فلما رأى الظافر ذلك وغلب عن دفعه أعطى نجم الدين بن مصال مالا كثيرا وقال : « اخرج إلى الحوف(٩) ، اجمع واحشد وانفق فيهم ، وادفع ابن السلار » فخرج لذلك .

ودخل ابن السلار القاهرة ، ودخل دار الوزارة ، واتفق الجند على طاعته ، وأحسن إليهم ، وأمرني أن أبيت أنا وأصحابي في داره ، وأفرد لي موضعا في الدار أكون فيه ، وابن مصال في الحوف قد جمع من لواته(١٠) ومن جند مصر ومن السودان والعربان خلقا كثيرا . وقد خرج عباس ركن الدين ، وهو ابن امرأة علي بن السلار ، ضرب خيمة في ظاهر مصر ، فغدت سرية من لواته ، ومعهم نسيب لابن مصال ، وقصدوا مخيم عباس ، فانهزم عنه جماعة من المصريين ، ووقف هو وغلمانه ومن صبر معه من الجند ليلة مخايستهم .

وبلغ الخبر إلى ابن السلار فاستدعاني في الليل ، وأنا معه في الدار ، وقال : « هؤلاء الكلاب – يعني جند مصر – قد شغلوا الأمير – يعني عباسا – بالفوارغ ، حتى عدا إليه قوم من لواته سباحة ، فانهزموا عنه ودخل بعضهم إلى بيوتهم بالقاهرة ، والأمير مواقفهم » قلت : « يامولاي ، نركب إليهم في سحر ، وما يضحي النهار إلا وقد فرغنا منهم إن شاء الله تعالى ، قال : صواب أبكر في

ركوبك ، فخرجنا إليهم من بكرة ، فلم يسلم منهم إلا من سبحت بـه فرسه في النيل ، وأخذ نسيب ابن مصال ضربت رقبته .

وجمع العسكر مع عباس وسـيره الى ابـن مصـال ، فلقيه على دلاص(١١)، فكسرهـم وقتل ابن مصال ، وقتل من السودان وغيرهـم سبعة عشر ألف رجل ، وحملوا رأس ابن مصال إلى القـاهرة ، ولم يبق لسيف الدين من يعانده ولا يشاققه .

وخلع عليه الظـافر خلع الوزارة ولقبـه الملك العـادل ، وتـولى الامور .

كل ذلك والظافر منحرف عنه ، كاره له ، مضمر له الشر ، فعمـل على قتله وقرر مع جماعة من صـبيان الخـاص وغيرهـم ممـن استمالهم وأنفـق فيهـم أن يهجمـوا داره ويقتلوه ، وكان شـهر رمضان ، والقوم قد اجتمعوا في دار بـالقرب مـن دار الملك العـادل ينتظرون توسط الليل وافتـراق اصـحاب العـادل ، وانا تلك الليلة عنده .

فلما فرغ الناس من العشاء وافترقوا ، وقد بلغه الخبر من بعض المعاملين عليه ، أحضر رجلين من غلمانه وأمرهـم أن يهجموا عليهم الدار التي هـم فيهـا مجتمعـون ، وكانت الدار ، لما أراده الله مـن سلامة بعضهم ، لها بابان : الواحد قريب من دار العادل ، والاخـر بعيد ، فهجمت الفرقة الواحدة من البـاب القـريب ، قبـل وصـول أصحابهم إلى الباب الاخر ، فانهزموا وخـرجوا مـن ذلك البـاب ، وجاءني منهم في الليل من صبيان الخاص نحو عشرة رجالة ، كانوا أصدقاء غلماني نخبئهم . وأصبح البلد فيه الطلب لأولئك المنهزمين ، ومن ظفر بهم منهم قتل .

ومن عجيب ما رأيت في ذلك اليوم أن رجلا مـن السـودان الذين كانوا في العملة انهزم إلى علو داري ، والرجال بـالسيوف خلفـه ،

فأشرف على القاعة من ارتفاع عظيم ، وفي الدار شجرة نبق(١٢) كبيرة ، فقفز من السطح إلى تلك الشجرة ، فثبت عليها ، ثم نزل ودخل من كم(١٣) مجلس قريب منه فوطىء على منارة نحاس ، فكسرها ، ودخل إلى خاف رحل في المجلس اختبأ فيه .

واشرف أولئك الذين كانوا خلفه ، فصحت عليهم وأطلعت إليهم الغلمان ، دفعوهم ، ودخلت الى ذلك الأسود ، فنزع كساء كان عليه وقال : « خذه لك » ، قلت « أكثر الله خيرك ، ما احتاجه » واخرجته وسيرت معه قوما من غلماني ، فنجا .

وجلست في صفة في دهليز داري ، فدخل علي شاب سلم وجلس ، فرأيته حسن الحديث حسن المحاضرة ، هو يتحدث وانسان استدعاه فمضى معه ، وذفذت خلفه غلاما يبصر لماذا استدعي ، وكنت بالقرب من دار العادل ، فساعة ما حضر ذلك الشاب بين يدي العادل أمر بضرب رقبته ، فقتل ، وعاد الغلام ، وقد استخبر عن ذنبه ، فقيل له : « كان يزور التواقيع » ، فسبحان مقدر الاعمار ، وموقت الاجال .

وقتل في الفتنة جماعة من المصريين والسودان .

وتقدم إلي الملك العادل ، رحمه الله ، بالتجهز للمسير إلى الملك العادل نور الدين رحمه الله ، وقال : « تأخذ معك مالا وتمضي إليه لينازل طبرية ، ويشغل الفرنج عنا ، لنخرح من هاهنا نخرب غزة » .

وكان الأفرنج ، خذلهم الله ، قد شرعوا في عمارة غزة ليحاصروا عسقلان ، قلت : « يامولاي ، فان اعتذر أو كان له من الأشغال ما يعوقه ، اي شيء تأمرني ؟ » قال : « إن نزل على طبرية ، فأعطه المال الذي معك ، وإن كان له مانع ، فديون(١٤) من قدرت عليه من الجند واطلع إلى عسقلان أقم بها في قتال الافرنج ، واكتب إلي بوصولك لآمرك بما تعمل » .

ودفع إلي ستة آلاف دينار مصرية ، وحمل جمل ثياب دبيقي(١٥) وسقلاطون ومسنجب ودمياطي(١٦) وعمائم ، ورتب معي قوما من العرب أدلاء .

وسرت وقد ازاح علة سفري بكل ما احتاجه من كثير وقليل ، فلما دنونا من الجفر(١٧) قال لي الادلاء« هذا مكان لايكاد يخلو من الافرنج » ، فامرت اثنين من الادلاء ركبا مهريين ، وسارا قدامنا إلى الجفر ، فما لبثا أن عادا ، والمهاري تطير بهما ، وقالا : « الفرنج على الجفر ! » ، فوقفت وجمعت الجمال التي عليها ثقلي ورفاقا من السفارة كانوا معي ، ورددتهم إلى الغرب ، وندبت ستة فوارس من مماليكي وقلت : « تقدمونا ، وأنا في إثركم » ، فساروا يركضون وأنا أسير خلفهم ، فعاد إلي واحد منهم وقال : « ما على الجفر أحد ، ولعلهم ابصروا عربانا » . وتنازع هو والادلاء . فنفذت من رد الجمال ، وسرت .

فلما وصلت الجفر ، وفيه مياه وعشب وشجر ، فقام من ذلك العشب رجل عليه ثوب أسود ، فأخذناه ، وتفرق أصحابي فأخذوا رجلا آخر وامرأتين وصبيانا ، فجاءت امرأة منهن مسكت ثوبي وقالت : « ياشيخ ، أنا في حسبك » ، قلت : « انت آمنة ، مالك ؟ » قالت « قد اخذ اصحابك لي ثوبا وناهقا ونابحا وخرزة » ، قلت لغلماني : « من كان أخذ شيئا يرده » .

فأحضر غلام قطعة كساء لعلها طول ذراعين ، قالت : « هذا الثوب » .

واحضر آخر قطعة سندروس (١٨) قالت : « هذه الخرزة » ، قلت : « فالحمار والكلب ؟ » قالت : « الحمار قد ربطوا يديه ورجليه ، وهو مرمي في العشب ، والكلب مفلوت يعدو من مكان الى مكان » .

فجمعتهم ورأيت بهم من الضر أمرا عظيما ، قد يبست جلودهم على عظامهم ، قلت « ايش أنتم ؟ » قالوا : « نحن من بني أبي » ، وبنو أبي فرقة من العرب من طيء لايأكلون إلا الميتة ويقولون : « نحن خير العرب ، ما فينا مجذوم ولا أبرص ولازمن ولا أعمى » ، وإذا نزل بهم الضيف ذبحوا له واطعموه من غير طعامهم ، قلت : « ما جاء بكم الى هاهنا ؟ » قالوا : « لنا بحسمى(١٩) كثول ذرة مطمورة جئنا نأخذها » قلت : « وكم لكم هنا ؟ » قالوا : « من عيد رمضان لنا هاهنا ، ومارأينا الزاد بأعيننا » ، قلت : « فمن أين تعيشون ؟» قالوا « من الرمة ، (يعنون العظام البالية الملقاة) ندقها ونعمل عليها الماء وورق القطف (شجر بتلك الارض) ونتقوت به » ، قلت : « فكلابكم وحمركم ؟» قالوا : « الكلاب نطعمهم من عيشنا ، والحمر تأكل الحشيش » ، قلت : « فلم لادخلتم إلى دمشق ؟» قالوا : « خفنا الوباء » ، ولا وباء اعظم مما كانوا فيه ! ، وكان ذلك بعد عيد الاضحى .

فوقفت حتى جاءت الجمال ، وأعطيتهم من الزاد الذي كان معنا ، وقطعت فوطة كانت على رأسي أعطيتها المرأتين ، فكادت عقولهم تزول من فرحهم بالزاد ، وقلت « لاتقيموا هاهنا يسبوكم الافرنج » .

ومن طريف ما جرى لي في الطريق أنني نزلت ليلة أصلي المغرب والعشاء قصرا وجمعا ، وسارت الجمال ، فوقفت على رفعة من الارض وقلت للغلمان : « تفرقوا في طلب الجمال ، وعودوا إلي ، فأنا ما أزول من مكاني » ، فتفرقوا وركضوا كذا وكذا فما رأوهم ، فعادوا كلهم إلي وقالوا : « ما لقيناهم ، ولا ندري كيف مضوا » ، فقلت:« نستعين بالله تعالى ونسير على النوء » ، فسرنا ونحن قد أشرفنا من انفرادنا عن الجمال في البرية على أمر صعب .

وفي الادلاء رجل يقال له جرية فيه يقظة وفطنة ، فلما استبطأنا علم انا قد تهنا عنهم ، فأخرج قداحة وجعل يقدح ، وهو على

الجمل ، والشرار من الزند يتفرق كذا وكذا ، فرأيناه على البعد ، فقصدنا النار حتى لحقناهم ، ولولا لطف الله وما ألهمه ذلك الرجل كنا هلكنا .

ومما جرى لي في تلك الطريق أن الملك العادل ، رحمه الله ، قال لي « لاتعلم الادلاء الذين معك بالمال » ، فجعلت أربعة آلاف دينار في خرج على بغل سروجي مجذوب معي وسلمته إلى غلام ، وجعلت ألفي دينار ودفقة لي وسرفسار(٢٠) ودنانير مغربية في خرج على حصان مجذوب معي وسلمته الى غلام ، فكنت اذا نزلت جعلت الاخراج في وسط بساط ، ورددت طرفيه عليها ، وبسطت فوقه بساطا آخر ، وأنام على الاخراج وأقوم وقت الرحيل قبل أصحابي ، يجيء الغلامان اللذان معهما الخرجان فيتسلمانهما ، فاذا شداهما على الجنائب ركبت وأيقظت أصحابي وتهممنا بالرحيل .

فنزلنا ليلة في تيه بني اسرائيل ، فلما قمت للرحيل جاء الغلام الذي معه البغل المجذوب أخذ الخرج وطرحه على وركي البغل ودار يريد يشده بالسموط ، فزل البغل .وخرج يركض وعليه الخرج فركبت حصاني ، وقد قدمه الركابي ، وقلت لواحد من غلماني : « اركب ، اركب » .

وركضت خلف البغل فما لحقته ، وهو كأنه حمار وحش ، وحصاني قد أعيي من الطريق ، ولحقني الغلام ، فقلت « اتبع البغل كذا » ، فمضى وقال : « والله يامولاي ، مارأيت البغل ، ولقيت هذا الخرج قد شلته » ، فقلت : « للخرج كنت اطلب ، والبغل أهون مفقود » .

ورجعت الى المنزلة واذا البغل قد جاء يركض دخل في طوالة الخيل ووقف ، فكانه ما كان قصده إلا تضييع أربعة آلاف دينار .

ووصلنا في طريقنا إلى بصرى ، فوجدنا الملك العادل نور الدين ، رحمه الله ، على دمشق ، وقد وصل إلى بصرى الأمير اسد الدين شيركوه رحمه الله ، فسرت معه إلى العسكر فوصلته ليلة الاثنين ، وأصبحت تحدثت مع نور الدين بما جئت به ، فقال لي : « يا فلان ، أهل دمشق أعداء ، والافرنج أعداء ، ما آمن منهما إذا دخلت بينهما » ، قلت له : « فتأذن لي ان أديون من محرومي الجند قوما آخذهم وأرجع ، وتنفذ معي رجلا من اصحابك في ثلاثين فارسا ليكون الاسم لك » » قال : « أفعل » .

فديونت إلى الاثنين الاخر ثمانمائة وستين فارسا وأخذتهم ، وسرت في وسط بلاد الافرنج ننزل بالبوق ونرحل بالبوق .

وسير معي نور الدين الامير عين الدولة الياروقي في ثلاثين فارسا فاجتزت في طريقي بالكهف والرقيم(٢١) ، فنزلت فيه ودخلت صليت في المسجد ، ولم أدخل في ذلك المضيق الذي فيه ، فجاء أمير من الاتراك الذين كانوا معي يقال له برسق ، يريد الدخول في ذلك الشق الضيق ، قلت :« أي شيء تعمل في هذا ؟ صل برا » قال : « لا إله الا الله ، أنا حرام إذا حتى لاأدخل في ذلك الشق الضيق ؟» قلت : « أي شيء تقول ؟» قال : « هذا الموضع ما يدخل فيه ولدزنا ، ما يستطيع الدخول » .

فأوجب قوله أن قمت دخلت في ذلك الموضع صليت ، وخرجت ، وأنا ـ الله يعلم ـ ما أصدق ما قاله ، وجاء أكثر العسكر فدخلوا وصلوا .

ومعي في الجند براق الزبيدي معه عبد له أسود دين كثير الصلاة ، أدق ما يكون من الرجال وأذبهم(٢٢) فجاء إلى ذلك الموضع ، وحرص بكل حرص على الدخول ، فما قدر يدخل ، فبكى المسكين وتوجع وتحسر ، وعاد بعد الغلبة عن الدخول .

فلما وصلنا عسقلان سـحر ، ووضـعنا اثقـالنا عند المصـلى ، صبحونا الافـرنج عند طلوع الشـمس ، فخـرج الينا ناصر الدولة ياقوت ، والي عسقلان ، فقال : « ارفعوا ، ارفعـوا اثقـالكم » ، قلت : « تخاف لايغلبونا الافرنج عليها ؟» قـال : «نعـم » ، قلت : « لاتخف ، هم يرونا في البرية ويعارضونا ، إلى أن وصـلنا إلى عسـقلان ، مـا خفناهـم ، نخافهم الآن ونحن عند مدينتنا ؟!

ثم إن الافرنج وقفوا على بعد ساعة ، ثـم رجعـوا إلى بـلادهم جمعـوا لنا وجـاءونا بـالفارس والراجـل والخيم يريدون منازلة عسقلان ، فخرجنا إليهم ، وقد خرج راجل عسـقلان ، فـدرت على سرب الرجالة وقلت : « ياأصحابنا ، إرجعوا إلى سوركم ، ودعونا وإياهم ، فان نصرنا عليهم فأنتم تلحقونا ، وإن نصروا علينا كنتـم أنتم سالمين عند سوركم » ، فـامتنعوا مـن الرجـوع ، فتـركتهم ومضيت إلى الافرنج ، وقد حطوا خيامهـم ليضربـوها ، فـاحتطنا بهم ، وأعجلناهم عن طي خيامهم ، فـرموها كمـا هـي منشـورة وساروا راجعين .

فلما انفسحوا عن البلد تبعهم من السوقيين أقوام ما عندهم منعة ولا غناء ، فـرجع الأفـرنج حملوا على أولئك فقتلوا منهـم نفـرا ، فانهزمت الرجالة ، الذين رددتهم فما رجعـوا ، ورمـوا تـراسهم ، ولقينا الأفرنج ، فرددناهم ، ومضوا عائدين إلى بلادهم وهي قريبة من عسقلان .

وعاد الذين انهزموا من الرجالة يتلاومون ، وقـالوا:« كان ابـن منقذ أخبر منا ،قال لنا : ارجعـوا ، مـا فعلنا حتـى انهـزمنا وافتضحنا » .

وكان أخي عز الدولة ابو الحسن علي ، رحمه الله ، في جملة مـن سار معي من دمشق هو وأصـحابه إلى عسـقلان ، وكان ، رحمـه

الله ، من فرسان المسلمين يقاتل للدين لا للدنيا ، فخرجنا يوما من عسقلان نريد الغارة على بيت جبريل(٢٣) وقتالها ، فوصلناها وقاتلناهم ، ورأيت عند رجوعنا على البلد غلة كبيرة ، فوقفت في أصحابي وقدحنا نارا وطرحناها في البيادر ، وصرنا ننتقل من موضع إلى موضع ، ومضى العسكر تقدمني ، فاجتمع الافرنج ، لعنهم الله ، من تلك الحصون ، وهي كلها متقاربة وفيها خيل كثيرة للافرنج ، لمغاداة عسقلان ومراوحتها ، وخرجوا على أصحابنا .

فجاءني فارس منهم يركض وقال : « قد جاء الافرنج !» فسرت إلى أصحابنا وقد وصلهم أوائل الفرنج ، وهم ، لعنهم الله ، أكثر الناس احترازا في الحرب ، فصعدوا على رابية وقفوا عليها ، وصعدنا نحن على رابية مقابلهم ، وبين الرابيتين فضاء ، أصحابنا المنقطعون وأصحاب الجنائب عبور تحتهم ، لاينزل إليهم منهم فارس خوفا من كمين أو مكيدة ، ولو نزلوا أخذوهم عن آخرهم ، ونحن مقابلهم في قلة ، وعسكرنا قد تقدمنا منهزمين .

ومازال الافرنج وقوفا على تلك الرابية إلى أن انقطع عبور أصحابنا ، ثم ساروا إلينا ، فاندفعنا بين أيديهم – والقتال بيننا – لايجدون في طلبنا ، ومن وقف فرسه قتلوه ، ومن وقع أخذوه ، ثم عادوا عنا .

وقدر الله سبحانه لنا بالسلامة باحترازهم ، ولو كنا في عددهم ونصرنا عليهم ، كما نصروا علينا ، كنا أفنيناهم .

فأقمت بعسقلان لمحاربة الافرنج أربعة أشهر هجمنا فيها مدينة يبنى(٢٤) وقتلنا فيها نحو مائة نفس وأخذنا منها أسارى .

وجاءني بعد هذه المدة كتاب الملك العادل ، رحمه الله ، يستدعيني . فسرت إلى مصر وبقي أخي عز الدولة أبو الحسن علي ، رحمه الله ، بعسقلان ، فخرج عسكرها إلى قتال غزة

- ٥٥٩٤ -
فاستشهد ، رحمه الله ، وكان من علماء المسلمين وفرسانهم وعبادهم .

وأما الفتنة التي قتل فيها الملك العادل بن السلار ، رحمه الله ، فإنه كان جهز عسكرا إلى بلبيس ، ومقدمه ابن امرأته ركن الدين عباس بن أبي الفتوح بن تميم بن باديس ، لحفظ البلاد من الأفرنج ، ومعه ولده ناصر الدين نصر بن عباس ، رحمه الله ، فأقام مع أبيه في العسكر اياما ، ثم دخل إلى القاهرة بغير إذن من العادل ولا دستور ، فأنكر عليه ذلك وأمره بالرجوع إلى العسكر ، وهو يظن أنه دخل القاهرة للعب والفرجة وللضجر من المقام في العسكر .

وابن عباس قد رتب أمره مع الظافر ، ورتب معه قوما من غلمانه ، يهجم بهم على العادل في داره إذا ابرد في دار الحرم ونام ، فيقتله .

وقرر مع استاذ من استاذي دار العادل أن يعلمه إذا نام ، وصاحبة الدار امرأة العادل جدته ، فهو يدخل إليها بغير استئذان .

فلما نام العادل أعلمه ذلك الأستاذ بنومه ، فهجم عليه في البيت الذي هو نائم فيه ، ومعه ستة نفر من غلمانه ، فقتلوه ، رحمه الله ، وقطع رأسه وحمله إلى الظافر ، وذلك في يوم الخميس السادس من المحرم سنة ثمان وأربعين وخمسمائة ، وفي دار العادل من مماليكه وأصحاب النوبة نحو من ألف رجل ، لكنهم في دار السلام ، وهو قتل في دار الحرم فخرجوا من الدار ووقع القتال بينهم وبين أصحاب الظافر وابن عباس إلى أن رفع رأس العادل على رمح ، فساعة ما رأوه انقسموا فرقتين : فرقة خرجت من باب القاهرة إلى عباس لخدمته وطاعته ، وفرقة رمت السلاح وجاءوا إلى بين يدي نصر بن عباس قبلوا الأرض ووقفوا في خدمته(٢٥) .

وأصبح والده عباس دخل القاهرة وجلس في دار الوزارة ، وخلع

عليه الظافر وفوض إليه الأمـر ، وابنه نصر مخـالطه ومعـاشره ، وأبوه عباس كاره لذلك مستوحش من ابنه ، لعلمه بمذهب القـوم في ضربهم بعض الناس ببعض حتى يفنوهم ويحوزوا كلما لهم ، حتـى يتفانوا ، فأحضراني ليلة وهما في خلوة يتعـاتبان ، وعبـاس يردد عليه الكلام ، وابنه مطرق كأنه نمر يرد عليه كلمة بعد كلمة يشـتاط منها عباس ويزيد في لومـه وتـأنيبه ، فقلت لعبـاس : « يامـولاي الأفضل ، كم تلوم مولاي ناصر الدين وتوبخه وهو ساكت ؟ اجعـل الملامة لي ، فأنا معه في كل ما يعمله ، مـا أتبـرأ مـن خـطأه ولا صوابه ، أي شيء هو ذنبه ؟ ماأساء إلى أحـد مـن أصـحابك ، ولا فرط في شيء من مالك ، ولا قدح في دولتك ، خاطر بنفسـه حتـى نلت هذه المنزلة ، فما يستوجب منك اللائمة » ، فأمسك عنه والده ورعى لي ابنه ذلك .

وشرع الظافر مع ابن عباس في حمله على قتل أبيه ، ويصـير في الوزارة مكانه ، وواصله بالعطايا الجزيلة ، فحضرتـه يومـا وقـد أرسل إليه عشرين صينية فضة فيها عشرون ألف دينار ، ثـم أغفله أياما وحمل إليه من الكسوات من كل نوع مـالا رأيت مثله مجتمعـا قبله ، وأغفله اياما . وبعث إليه خمسين صينية فضة فيها خمسـون ألف دينار ، وأغفله اياما . وبعـث إليه ثـلاثين بغـلا رحـلا(٢٦) وأربعين جملا بعددها وغرائرها وحبالها .

وكان يتردد بينهما رجل يقال له مرتفع بن فحل ، وأنا مـع ابـن عباس لا يفسح لي في الغيبـة عنه ليلا ولا نهـارا ، أنام ورأسي على رأس مخدته .

فكنت عنده ليلة ، وهو في دار الشابورة ، وقد جـاء مـرتفع بـن فحل ، فتحدث معه إلى ثلث الليل ، وأنا معتزل عنهما ثـم انصرف . فاستدعاني وقال : « أين أنت ؟» قلت : « عند الطاقة اقرأ القرآن ، فإني اليوم ما تفرغت اقرأ » ، فابتدأ يفـاتحني بشيء ممـا كان فيه ليبصر ما عندي في ذلك ، ويريد بي أقوي عزمه على سوء ما قد حمله

عليه الظافر ، فقلت : « يامولاي ، لا يستزلك الشيطان وتنخدع لمن يغرك ، فما قتل والدك مثل قتل العادل ، فلا تفعل شيئا تلعن عليه إلى يوم القيامة » . فأطرق ، وقاطعني الحديث ، ونمنا .

فاطلع والده على الأمر ، فلاطفه ، واستماله ، وقرر معه قتل الظافر .

وكانا يخرجان في الليل متنكرين ، وهما اتراب ، وسنهما واحدة ، فدعاه إلى داره ، وكانت في سوق السيوفيين ، ورتب من أصحابه نفرا في جانب الدار ، فلما استقر به المجلس خرجوا عليه فقتلوه ، وذلك ليلة الخميس سلخ المحرم سنة تسع وأربعين وخمسمائة ، ورماه في جب في داره ، وكان معه خادم له أسود لا يفارقه يقال له سعيد الدولة ، فقتلوه .

وأصبح عباس جاء إلى القصر كالعادة للسلام يوم الخميس ، فجلس في خزانة في مجالس الوزارة كأنه ينتظر جلوس الظافر للسلام ، فلما جاوز وقت جلوسه استدعى زمام القصر ، وقال : « ما لمولانا ما جلس للسلام ؟» فتبلد الزمام في الجواب ، فصاح عليه وقال : « مالك لاتجاوبني ؟» قال : « يامولاي مولانا ما ندري أين هو » ، قال : « مثل مولانا يضيع ؟ ارجع فاكشف الحال » . فمضى ورجع وقال : « ما وجدنا مولانا » .فقال عباس : « ما يبقى الناس بلا خليفة ، ادخل إلى الموالي أخوته يخرج منهم واحد نبايعه» ، فمضى وعاد وقال : « الموالي يقولون لك : نحن ما لنا في الأمر شيء ، والده عزله عنا وجعله في الظافر ، والأمر لولده بعده ، قال : « اخرجوه حتى نبايعه » .

وعباس قد قتل الظافر وعزم على أن يقول : « أخوته قتلوه » ويقتلهم به ، فخرج ولد الظافر ، وهو صبي محمول على كتف استاذ من استاذي القصر ، فأخذه عباس ، فحمله ، وبكى الناس ، ثم

دخل به ، وهـو حـامله ، إلى مجلس أبيه ، وفيه أولاد الحـافظ : الامير يوسف ، والأمير جبريل ، وابن اخيهم الامير أبو البقاء .

ونحن في الرواق جلوس ، وفي القصر أكثر مـن ألف رجـل مـن المصريين ، فما راعنا إلا فوج قد خـرج مـن المجلس إلى القـاعة ، وصوت السيوف على إنسان ، فقلت لغلام لي أرمني : « أبصر مـن هذا المقتول » ، فمضى ثم عاد وقال : « مـا هـؤلاء مسـلمون ! هـذا مولاي أبو الامانة ، يعني الامير جبريل ، قد قتلوه ، وواحد قد شـق بطنه يجذب مصارينه » ، ثم خرج عباس ، وقـد أخـذ رأس الامير يوسف تحت إبطه ورأسه مكشوف ، وقد ضربه بسيف والدم يفـور منه ، وأبو البقاء ابن أخيه مع نصر بن عبـاس ، فـأدخلوهما ، في خزانة في القصر وقتلوهما ، وفي القصر ألف سيف مجردة .

وكان ذلك اليوم من أشد الأيام التي مرت بي ، لما جرى فيه مـن البغي القبيح الذي يذكره الله تعالى وجميع الخلق .

وكان من طريف ما جرى ذلك اليوم أن عباسا لما أراد الدخول إلى المجلس وجد بابه قد قفل من داخل ، وكان يتولى فتح المجلس وغلقه استاذ شيخ يقال له أمين الملك ، فاحتالوا في الباب حتـى فتحـوه ، ودخلوا فـوجدوا ذلك الاسـتاذ خلف البـاب ، وهـو ميت ، وفي يده المفتاح .

وأما الفتنة التي جرت بمصر ونصر فيها عباس على جند مصر ، فإنه لما فعل بأولاد الحافظ ، رحمه الله ، ما فعـل جفـت عليه قلوب الناس ، وأضمروا فيها العداوة والبغضاء ، وكاتب من في القصر من بنات الحافظ فارس المسلمين أبا الغارات طلائع بن رزيك ، رحمـه الله ، يستصرخون به . وحشـد ، وخـرج مـن ولايتـه(٢٧) يريد القاهرة ، فأمر عباس فعمرت المراكب ، وحمل فيها الزاد والسـلاح والخزانة ، وتقدم إلى العسكر بالركوب والمسـير معـه ، وذلك يوم

- ٥٥٩٨ -

الخميس العاشر من صفر سنة تسع وأربعين ، وأمر ابنه ناصر الدين بالمقام في القاهرة ، وقال لي : « تقيم معه » .

فلما خرج من داره متوجها الى لقاء ابن رزيك خامر عليه الجند وغلقوا أبواب القاهرة ، ووقع القتال بيننا وبينهم في الشوارع والازقة : خيالتهم تقاتلنا في الطريق ، ورجالتهم يرموننا بالنشاب والحجارة من على السطوحات ، والنساء والصبيان يرموننا بالحجارة من الطاقات ، ودام بيننا وبينهم القتال من ضحى نهار إلى العصر ، فاستظهر عليهم عباس ، وفتحوا أبواب القاهرة وانهزموا ، ولحقهم عباس إلى أرض مصر فقتل منهم من قتل ، وعاد إلى داره وأمره ونهيه .

وأمر بإحراق البرقية (٢٨) لأنها مجمع دور الأجناد ، فتلطفت الأمر معه وقلت : « يامولاي إذا وقعت النار أحرقت ما تريد وما لاتريد ، وبعلت(٢٩) عن ان تطفئها » . ورددت رأيه عن ذلك .

وأخذت الأمان للامير المؤتمن بن أبي رمادة ، بعد أن أمر بتلافه ، واعتذرت عنه ، فصفح عن جرمه .

-٥٥٩٩-

(أسامة يعود إلى دمشق)

ثم سكنت تلك الفتنة ، وقد ارتاع منها عبـاس ، وتحقـق عداوة الجند والأمراء ، وأنه لا مقام له بينهم ، وثبت في نفسه الخروج مـن مصر وقصد الشام الى الملك العادل نور الدين ، رحمه الله ، يستنجد به ، والرسل بين من في القصور وبين ابن رزيك مترددة ، وكان بيني وبينه ، رحمه الله ، مودة ومخالطة من حين دخلت ديار مصر ، فنفذ إلي رسولا يقول لي : « عباس ما يقدر على المقام بمصر ، بـل هـو يخرج منها إلى الشام ، وأنا أملك البـلاد ، وأنت تعـرف مـا بيني وبينك ، فلا تخرج معه ، فهو بحاجته إليك في الشام يرغبك ويخرجك معه ، فالله الله لاتصحبه ، فأنت شريكي في كل خير أناله » . فـكأن الشياطين وسوست لعباس بذلك ، أو توهمه لما يعلمه بيني وبين ابن رزيك من المودة .

فأما الفتنة التي خرج فيها عباس من مصر وقتله الأفـرنج ، فإنه لما توهم من أمري وأمر ابن رزيك ما تـوهمه ، أو بلغـه ، أحضرني واستحلفني بالأيمان المغلظة التي لامخرج منهـا أنني أخـرج معـه وأصحبه ، ولم يقنعه ذلك حتى نفذ في الليل أستاذ داره الذي يدخـل على حرمه أخذ أهلي ووالدتي وأولادي إلى داره ، وقـال لي : « أنا احمل كلفتهم عنك في الطريق ، واحملهم مع والدة ناصر الدين » .

واهتم بأمر سفره بخيله وجماله وبغاله ، فكان له مائتا حصـان وحجرة مجنوبة على أيدي الرجالة ، كعادتهم بمصر ، ومـائتا بغـل رحل ، وأربع مائة جمل تحمل اثقاله .

وكان كثير اللهج بالنجوم ، وهو معول على المسير بـالطالع يوم السبت الخامس عشر من ربيع الاول من السنة ، فحضرته وقد دخل عليه غلام يقال له عنبر الكبير ، وهـو متـولي أمـوره كبيرهـا وصغيرها ، فقال له : « يامولاي ، أي شيء مرجو من مسـيرنا إلى

الشام ؟ خذ خـزائنك وأهلك وغلمـانك ومـن تبعـك وسر بنا إلى الاسكندرية ، نحشد من هناك ونجمع ، ونرجع إلى ابن رزيك ومـن معه ، فإن نصرنا عدت إلى دارك وإلى ملكك ، وإن عجـزنا عنه عدنا إلى الاسكندرية إلى بلد نحتمي فيه ، ويمتنع على عدونا » ، فنهـره وخطأ رأيه ، وكان الصواب معه .

ثم أصبح يوم الجمعة استدعاني من بـكرة ، فلمـا حضرت عنده قلت : « يامولاي ، إذا كنت عندك من الفجر إلى الليل فمتـى أعمـل شغل سفري ؟» قال : «عندنا رسل من دمشـق ، تسـيرهم وتمضي تعمل شغلك » .

وكان قبل ذلك أحضر قوما مـن الأمـراء واسـتحلفهم أنهـم لايخونونه ولا يخامرون عليه ، واحضر جماعة من مقدمي العرب من درماء ، وزريق ، وجذام ، وسنبس ، وطلحة ، وجعفـر ، ولواتـه ، واستحلفهم بالمصحف والطلاق ، على مثـل ذلك ، فمـا راعنا ، وأنا عنده بكرة الجمعة ، إلا والناس قد لبسوا السـلاح ، وزحفـوا إلينا ورؤوسهم الامراء الذين استحلفهم بـالأمس ، فـأمر بشـد دوابـه فشدت وأوقفت على باب داره ، فكانت بيننا وبين المصريين كالسـد لايصلون الينا لازدحام الدواب دوننا .

فخرج إليهم غلامه عنبر الكبير الذي كان اشار عليه بذلك الرأي ، وهو زمامهم ، صاح عليهـم وشـتمهم ، وقـال : « روحـوا إلى بيوتكم » ، فسـيبوا الدواب ومضى الركابية والمكارية والجمـالون ، وبقيت الدواب مهملة . ووقع فيها النهب .

فقال لي عباس : « اخـرج أحضر الاتـراك ، وهـم عند بـاب النصر ، والكتاب يدفقون فيهم » ، فلما جئتهم واستدعيتهم ركبـوا كلهم ، وهم في ثمانمائة فارس ، وخرجوا من باب القاهرة منهزمين من القتال ، وركب المماليك ، وهم أكثر من الاتراك ، وخرجوا أيضا من باب النصر ، ورجعت إليه عرفته ، ثم اشـتغلت بـاخراج أهلي

الذين كان حملهم إلى داره ، فاخرجتهم وأخرجت حرم عباس ، فلما خلت الطـريق ونهبـت تلك الدواب بـأجمعها وصـل المصريون الينا فاخرجونا ، ونحن في قلة ، وهم في خلق كثير .

فلما خرجنا من باب النصر وصلوا الى الأبواب أغلقـوها وعادوا إلى دورنا نهبوها ، فاخذوا من قـاعة داري أربعين غرارة جمـالية مخاطة فيها من الفضة والذهب والكسوات شيء كثير ، وأخذوا مـن اصطبلي ستة وثلاثين حصـانا وبغلة سروجية بسروجهـا وعدتهـا كاملة ، وخمسةوعشرين جملا ، وأخذوا من اقطاعي من كوم اشفين مائتي رأس بقر للتنائين وألف شية(٣٠) وأهراء غلة .

ولما سرنا عن باب النصر تجمعت قبائل العرب الذين اسـتحلفهم عباس ، وقاتلونا من يوم الجمعـة ضـحى نهـار إلى يوم الخميس العشرين من ربيع الأول ، فكانوا يقاتلونا النهار كله ، فإذا جن الليل ونزلنا أغفلونا إلى أن ننام ، ثم يركبون في مائة فـارس ويدفعـون خيلهم في بعض جوانبنا ويرفعون أصواتهم بالصياح ، فما ذفر مـن خيلنا وخرج إليهم أخذوه .

وانقطعت يوما عن أصحابي وتحتي حصـان أبيض ، هـو أردأ خيلي ، شده الركابي ولايدري ما يجري ، وما معي من السلاح غير سيفي ، فحمل علي العرب فلم أجد ما ادفعهم به ، ولا ينجيني منهم حصاني ، وقد وصلتني رماحهم ، قلت : « أثب عن الحصان واجذب سيفي ، أدفعهم » ، فجمعت نفسي لاثب ، فتتعتع الحصان ، فوقعت على حجارة وأرض خشنة ، فانقطعت قطعة من جلدة رأسي ودخـت حتى ما بقيت أدري بما أنا فيه ، فوقف علي منهم قوم ، وانا جالس مكشوف الرأس ، غائب الذهن ، وسيفي مرمي بجهـازه ، فضربني واحد منهم ضربتين بالسيف وقال : « هات الوزن » وأنا لا أدري ما يقول ، ثم اخذوا حصاني وسيفي .

ورآني الاتراك فعادوا إلي ، ونفـذ لي ناصر الدين ابـن عبـاس

حصانا وسيفا وسرت وأنا لا أقدر على عصابة أشد بها جـراحي ، فسبحان من لا يزول ملكه .

وسرنا وما مع أحد منا كف زاد ، وإذا اردت ماء ترجلت شربت بيدي ، وقبل أن أخرج بليلة جلست في بعض دهاليز داري على كرسي وعرضوا علي ستة عشر حمل روايا ، وما شاء الله سبحانه من القرب والسطائح .

وعجزت عن حمل أهلي ، فرددتهم من بلبيس إلى عند الملك الصالح أبي الغارات طلائع بن رزيك ، رحمه الله ، فأحسن إليهم وأنزلهم في دار ، وأجرى لهم ما يحتاجونه ، ولما أراد العرب الذين يقاتلونا الرجوع عنا جاؤونا يطلبون حسبنا(٣١) إذا عدنا .

وسرنا إلى يوم الأحد ثالث وعشرين ربيع الأول ، فصبحنا الافرنج في جمعهم على المويلح(٣٢) فقتلوا عباسا وابنه حسام الملك واسروا ابنه ناصر الدين ، وأخذوا خزانته وحرمه ، وقتلوا من ظفروا به . وأخذوا أخي نجم الدين أبا عبد الله محمدا ، رحمه الله ، أسيرا . وعادوا عنا ، ونحن قد تحصنا عنهم في الجبال .

فسرنا في أشد من الموت في بلاد الفرنج بغير زاد للرجال ولا علف للخيل إلى أن وصلنا جبال بني فهيد ، لعنهم الله ، في وادي موسى .

وطلعنا في طرقات ضيقة وعرة إلى أرض فسيحة ، ورجال وشياطين رجيمة من ظفروا به منا منفرد قتلوه .

وتلك الناحية لاتخلو من بعض بني ربيعة الأمراء الطائيين ، فسألت : « من ها هنا من الأمراء بني ربيعة ؟» قالوا : « منصور ابن دغفل» ، وهو صديقي ، فدفعت لواحد دينارين وقلت : « امض إلى منصور قل له،صديقك ابن منقذ يسلم عليك ويقول لك صل إليه بكرة » ، وبتنا في مبيت سوء من خوفهم. فلما اضاء الصبح أخذوا

عدتهم ووقفوا على العين وقالوا:« ما ندعكم تشربــون مــاءنا ونهلك نحـــن بــــالعطش » وتلك العين تــــكفي ربيعــــة ومضر ، وكم في أرضهم مثلها ، وإنما قصدهم أن يذشوا الشر بيننا وبينهم ويأخذونا . فنحن فيما نحن فيه ومنصور بن دغفــل وصــل ، فصاح عليهم وسبهم فتفرقوا . وقال : « اركب » . فركبنا ونزلنا في طريق أضيق من الطريق التي طلعت فيها وأوعر ، فنزلنا إلى الوطــا سالمين ، وما كدنا نسلم ، فجمعت للامير منصور ألف دينار مصرية ودفعتها إليه ، وعاد .

وسرنا حتى وصلنا بلد دمشق بمن سلم من الافــرنج وبني فهيد ، يوم الجمعة خامس ربيع الآخر من السنة ، وكانت السلامة مــن تلك الطريق من دلائل قدرة الله عز وجل ، وحسن دفاعه .

ومن عجيب ما جرى لي في تلك الوقعة أن الظافر كان أرســل إلى ابن عباس رهـوارا(٣٣) صغيرا مليحا افرنجيا ، وكنت قد خــرجت إلى قرية لي ، وابني أبو الفوارس مرهف عند ابن عباس ، فقــال : « كنا نريد لهذا الرهوار سرجا مليحا من السروج الغزية » ، فقال له ابني : « قد وجدته ، يامولاي ، وهو فوق الغرض » . قــال : « أين هو ؟ » قال : « في دار خادمك والدي ، له سرج غزي مليح » ، قال : « أنفذ أحضره » ، فأرسل رسولا إلى داري أخذ السرج ، فأعجبه ، وشد به على الرهوار ، وكان السرج طلع معي من الشام على بعض الجنائب وهو منبت مجرى بسواد في غاية الحسن وزنه مائة مثقــال وثلاثون مثقالا .

ووصلت أنا من الاقطاع ، فقــال لي ناصر الدين : « ادللنا عليك واخذنا هذا السرج من دارك » ، فقلت : « يامولاي ، مــا أســعدني بخدمتك !» فلما خرج علينا الافرنج بالمويلح كان معي من ممــاليكي خمسة رجال على الجمال أخذت العرب خيلهم ، فلما وقــع الافــرنج بقيت الخيل سائبة ، فنزل الغلمان عن الجمــال واعتــرضوا الخيل

وأخذوا منها ماركبوه ، فكان على بعض الخيل التـي أخـذوها ذلك السرج الذهب الذي أخذه ابن عباس .

وكان حسام الملك ابن عم عباس ، واخو عباس ابن العـادل قـد سلما فيمن سلم منا ، وقد سمع حسام الملك خبر السرج فقـال وأنا أسمع : « كل ما كان لهذا المسكين ــ يعني ابن عبـاس ــ نهـب ، فمنه ما نهبه الافرنج ، ومنه ما نهبه أصحابه » ، قلت : « لعلك تعني السرج الذهب » ؟ قال : « نعم» .

فامرت باحضاره وقلت : « اقرأ ما عليه ، اسم عباس عليه واسم ابنه أو اسمي ؟ ، ومن كان في مصر يقدر يركب بسرج ذهـب في أيام الحافظ غيري ؟ » ، وكان اسمي مكتوبا على دائر السرج بالسواد ، ووسطه مذبت ، فلما قرأ ما عليه اعتذر وسكت .

ولولا نفاذ المشيئة في عباس وابنه وعواقب البغي وكفـر النعمـة كان اتعظ بما جرى قبله للافضل رضوان بن الولخشي ، رحمه الله ، كان وزيرا فقام الجند عليه بأمر الحافظ كما قـاموا على عبـاس ، فخرج من مصر يريد الشام ، ونهبت داره وحرمه ، حتـى أن رجـلا يعرف بالقائد مقبل ، رأى مع السـودان جـارية فـاشتراها منهـم وبعثها إلى داره ، وكانت له أمراة صالحة ، فـاطلعت الجـارية إلى حجرة في علو الدار فسمعتها تقول : « لعل الله يظفـرنا بمـن بغـى علينا وكفر نعمتنا » ، فسألتها : « من أنت ؟» فقالت : « أنا قـطر الندى بنت رضوان » ، فنفذت المرأة إلى زوجها القائد مقبل أحضرته وهو على باب القصر في خدمته ، فعـرفته حـال البنت ، فـكتب إلى الحافظ مطالعة ، فعرفه بذلك ، فنفذ من خدام القصر من أخذها من دار مقبل ورفعها إلى القصر .

ثم إن رضوان وصل إلى صلخد ، وفيهـا أمين الدولة كمشـتكين الاتابكي(٣٤) ، رحمه الله ، فاكرمه وأنزله وخدمه ، وملك الأمـراء أتابك زنكي بن آقسـنقر ، رحمـه الله ، على بعلبـك يحـاصرها ،

فراسل رضوان واستقر أنه يمضي إليه ، وكان رجلا كاملا كريما شجاعا كاتبا عارفا ، وللجند إليه ميل عظيم لكرمه ، فقال لي الأمير معين الدين ، رضي الله عنه : « هذا الرجل إن انضاف إلى أتابك دخل علينا منه ضرر كثير » ، قلت : « فأي شيء ترى ؟» قال : « تسير إليه لعلك ترد رأيه عن قصد أتابك ، ويكون وصوله إلى دمشق ، وأنت ترى فيما تفعله في هذا رأيك » ، فسرت إليه الى صلخد واجتمعت به وبأخيه الأوحد وتحدثت معهما ، فقال لي الأفضل رضوان : « فرط الأمر مني ورهنت قولي عند هذا السلطان بوصولي إليه ، ولزمني الوفاء بقولي » ، قلت : « أقدمك الله على خير ! وأنا أعود إلى صاحبي ، فإنه ما يستغني عني ، بعد أن أخرج إليك بما في نفسي » ، قال : « قل » ، قلت : « إذا وصلت إلى أتابك ، معه من العسكر ما ينفذ نصفه معك إلى مصر ويبقى نصفه يحاصرنا به ؟ » قال : « لا » . قلت : « فإذا هو نزل على دمشق وحاصرها وأخذها بعد المدة الطويلة يقدر ، وقد ضعف عسكره وفرغت نفقاتهم وطالت سفرتهم ، يسير معك الى مصر قبل أن يجدد بركه ويقوي عسكره ؟» قال : « لا » . قلت : « ذلك الوقت يقول لك : نسير إلى حلب نجدد آلة سفرنا » ، فإذا وصلتم إلى حلب قال : نمضي إلى الفرات نجمع التركمان ، فإذا نزلتم على الفرات قال : « إن لم نعد الفرات ما يجتمع لنا التركمان » ، فإذا عديتم تشوف بك وافتخر على سلاطين الشرق وقال : « هذا عزيز مصر في خدمتي » ، وتتمنى ذلك الوقت أن ترى حجرا من حجارة الشام فلا تقدر عليها ، وتذكر حينئذ كلامي ، وتقول « نصحني ما قبلت » ، فأطرق مفكرا لايدري ما يقول ، ثم التفت إلي وقال : « ماذا أعمل ، وأنت تريد ترجع » ؟ قلت : «إن كان في مقامي مصلحة أقمت » ؟ قال : « نعم » ، فاقمت .

وتكرر الحديث بيني وبينه حتى استقر وصوله إلى دمشق ، وأن يكون له ثلاثون ألف دينار نصفها نقد ونصفها إقطاع ، ويكون له دار العقيقي(٣٥) ويخرج لأصحابه ديوان ، وكتب لي خطه بذلك ، وكان كاتبا حسنا ، وقال : « إن شئت سرت معك » ؟ قلت : « لا ، أنا

اسير ومعي الحمام من هاهنا ، فإذا وصلت واخليت الدار ورتبت الأمر ، طيرت إليك الحمام وسرت أنا في الوقت القاك في نصف الطريق ، وأدخل بين يديك » ، فتقرر ذلك وودعته وسرت .

وكان أمين الدولة يشتهي مصيره الى مصر لما قد وعده به وأطمعه فيه ، فجمع له من قدر عليه وسيره بعد مفارقتي له ، فلما دخل حدود مصر غدر به الذين كانوا معه من الأتراك ونهبوا ثقله (٣٦)، والتجأ هو إلى حي من أحياء العرب ، وراسل الحافظ وطلب منه الأمان ، وعاد إلى مصر ، فساعة وصوله إلى مصر أمر به الحافظ فحبس هو وولده .

واتفق طلوعي إلى مصر وهو في الحبس في دار في جانب القصر ، فنقب بمسمار حديد أربعة عشر ذراعا وخرج ليلة الخميس ، وله من الأمراء نسيب قد عرف أمره فهو عند القصر ينتظره ومصطنع له من لواته ، ومشوا الى النيل عدوا إلى الجيزة ، واختبطت القاهرة لهروبه ، واصبح في منظرة في الجيزة والناس يجتمعون إليه ، وعسكر مصر قد تأهب لقتاله ، ثم أصبح بكرة الجمعة عدى إلى القاهرة والعسكر المصري مع قيماز صاحب الباب مدر عين اللقاء ، فلما وصلهم هزمهم ودخل القاهرة .

وكنت قد ركبت أنا وأصحابي إلى باب القصر ، قبل دخوله البلد ، فوجدت أبواب القصر مغلقة وما عندها أحد ، فرجعت نزلت في داري ، ونزل رضوان في الجامع الأقمر ، واجتمع إليه الأمراء وحملوا إليه الطعام والنفقة ، وقد جمع الحافظ قوما من السودان في القصر شربوا وسكروا ، وفتح لهم باب القصر فخرجوا يريدون رضوانا . فلما وقع الصياح ركب الأمراء كلهم من عند رضوان وتفرقوا وخرج هو من الجامع وجد حصانه قد أخذه الركابي وراح ، فرآه رجل من صبيان الخاص واقفا على باب الجامع فقال : « يامولاي ، ما تركب حصاني ؟» قال : « بلى » ، فجاء إليه يركض وسيفه في يده ، فأومأ كأنه يميل للنزول وضربه بالسيف ، فوقع ،

ووصله السودان قتلوه ، وتقاسم أهــل مصر لحمــه يأكلونه ليكونوا شجعانا ، فقد كان فيه معتبر ، وواعظ لولا نفاذ المشيئة .

وأصاب ذلك اليوم رجلا من أصحابنا الشــاميين جــراح كثيرة ، فجاءني أخوه وقال : « أخي تالف ، قــد وقــع فيه كذا وكذا جــرح سيوف وغيرها ، وهو مغمور مايفيق » . قلت : « ارجع أفصده » ، قال : « قد خرج منه عشرون رطل دم » ، قلت : « أرجــع أفصــده فانا اخبر منك بالجراح ، وليس له دواء غير الفصاد » ، فمضى غاب عني ساعتين ثم عاد وهو مستبشر ، قال : « أنا فصدته ، وهو أفاق وجلس وأكل وشرب وذهــب عنه البــؤس » ، قلت : « الحمــد لله ! ولولا أني جربت هذا في نفسي عدة مرار ما وصفته لك » .

ثم اتصلت بخدمة الملك العادل نور الدين ، رحمــه الله ، وكاتــب الملك الصالح في تســيير أهلي وأولادي الذين تخلفــوا بمصر ، وكان محسنا إليهم ، فرد الرسول واعتذر بأنه يخاف عليهم من الأفرنج ، وكتب إلي يقول : « ترجع إلى مصر وأنت تعــرف مــا بيني وبينك ، وإن كنت مستوحشا من أهل القصر فتصل إلى مكة وأنفذ لك كتــابا بتسليم مدينة أسوان إليك ، وأمدك بمــا تتقــوى بــه على محــاربة الحبشة ، فأسوان ثغر مــن ثغــور المســلمين ، وأســير إليك أهلك وأولادك » .

ففاوضت الملك العادل واستطلعت أمره فقــال : « يافــلان ، مــا صدقت متى تخلص من مصر وفتنها ، تعود إليها ! العمر أقصر مــن ذلك . أنا أنفذ آخذ لأهلك الأمان مــن ملك الافــرنج وأســير مــن يحضرهم » . فأنفذ رحمه الله ، أخذ أمــان الملك وصــليبه في البــر والبحر .

وسيرت الأمان مع غلام لي ، وكتاب الملك العــادل وكتــابي إلى الملك الصالح ، فسيرهم في عشاري من الخاص إلى دمياط ، وحمل لهم كل ما يحتاجونه من النفقات والزاد ، ووصى بهم ، واقلعوا مــن

دمياط في بطسه من بطس الافرنج ، فلما دنوا من عكا والملك ، لارحمه الله ، نفذ قوما في مركب صغير كسروا البطسة بالفؤوس ، وأصحابي يرونهم ، وركب ووقف على الساحل نهب كل ما فيه .

فخرج إليه غلام لي سباحة ، والأمان معه وقال له : « يامولاي الملك ، ما هذا أمانك ؟» قال : « بلى ، ولكن هذا رسم المسلمين ، اذا انكسر لهم مركب على بلد نهبه أهل ذلك البلد » . قال : « فتسبينا ؟» قال : « لا » ، وأنزلهم ، لعنة الله ، في دار وفتش النساء حتى أخذ كل ما معهم ، وقد كان في المركب حلي أودعه النساء وكسوات وجوهر وسيوف وسلاح وذهب وفضة بنحو من ثلاثين ألف دينار ، فاخذ الجميع ونفذ لهم خمس مائة دينار وقال « توصلوا بهذه إلى بلادكم » ـ وكانوا رجالا ونساء في خمسين نسمة .

وكنت إذ ذاك مع الملك العادل في بلاد الملك مسعود(٣٧) رعبان وكيسون ، فهون علي سلامة أولادي وأولاد أخي ، وأحزننا ذهاب ما ذهب من المال ، إلا ما ذهب لي من الكتب ، فإنها كانت أربعة آلاف(٣٨) مجلد من الكتب الفاخرة . فإن ذهابها حزازة في قلبي ما عشت .

فهذه نكبات تزعزع الجبال وتفني الأموال ، والله سبحانه يعوض برحمته ويختم بلطفه ومغفرته ، وتلك وقعات كبار شاهدتها مضافة إلى نكبات نكبتها سلمت فيها النفس لتوقيت الآجال ، وأجحفت بهلاك المال .

حروب مع الكفار والمسلمين

وقد كان بين هذه الوقعات فترات شهدت فيها من الحروب مع الكفار والمسلمين مالا أحصيها ، وسأورد من عجائب ما شاهدته ومارسته في الحروب ما يحضرني ذكره ، وما النسيان بمستنكر لمن

طال عليه ممر الاعوام ، وهو وراثة بني آدم من أبيهم عليه الصلاة والسلام .

فمن ذلك ما شاهدته من أنفة الفرسان وحملهم نفوسهم على الأخطار ، أننا كنا التقينا نحن وشهاب الدين محمود بن قراجا ، صاحب حماة ذلك الوقت ، وكانت الحرب بيننا وبينه ما تغب ، والمواكب واقفة والطراد بين المتسرعة فجاءني رجل من أجنادنا وفرساننا المعدودين يقال له جمعة من بني نمير ، وهو يبكي ، فقلت له : « ما لك ياأبا محمود ؟ هذا وقت بكاء ؟» قال « طعنني سر هنك ابن أبي منصور » ، قلت : « وإذا طعنك سرهنك أي شيء يكون ؟» قال : « ما يكون شيء إلا يطعنني مثل سرهنك ! ؟ والله إن الموت أسهل علي من أن يطعنني ، لكنه استغفلني واغتالني » ، فجعلت أسكنه وأهون الأمر عليه ، فرد رأس فرسه راجعا فقلت : « إلى أين ياأبا محمود ؟ » قال : « إلى سرهنك ، والله لأطعننه أو لأموتن دونه » .

فغاب ساعة واشتغلت أنا بمن مقابلي ، ثم عاد وهو يضحك فقلت : « ما عملت ؟» فقال : « طعنته والله ، ولو لم أطعنه لفاظت روحي » . فحمل عليه في جمع أصحابه فطعنه وعاد(٣٩) ، فكأن هذا الشعر عنى سرهنك وجمعة بقوله :

لله درك ما تظن بثائر
حران ليس عن التراث براقد
أيقظته ورقدت عنه ولم ينم
حنقا عليك وكيف نوم الجاهد
إن تمكن الايام منك وعلها
يوما يكل لك بالصواع الزائد

وقد كان سرهنك هذا من الفرسان المذكورين مقدما في الاكراد ،

الا انه كان شابا وجمعة رجل كهل له ميزة بالسن والتقدمية في الشجاعة .

وذكرت بفعلة سرهذك ما فعله مالك بن الحارث الأشتر ، رحمه الله ، بأبي مسيكة الايادي .

وذلك أنه لما أرتدت العرب في أيام أبي بكر الصديق ، رضوان الله عليه ، وعزم الله سبحانه له على قتالهم ، جهز العساكر إلى قبائل العرب المرتدين ، فكان أبو مسيكة الا يادي مع بني حنيفة وكانوا اشد العرب شوكة ، وكان مالك بين الصفين وصاح : « ياأبا مسيكة !» فبرز له ، فقال : « ويحك ! ياأبا مسيكة ، بعد الاسلام وقراءة القرآن رجعت إلى الكفر ؟» فقال : « إياك عني يامالك ! إنهم يحرمون الخمر ، ولاصبر عنها » ، قال : « فهل لك في المبارزة ؟» قال : « نعم » . فالتقيا بالرماح والتقيا بالسيوف .

فضربه أبو مسيكة فشق رأسه وشتر عينه وبتلك الضربة سمي الاشتر .

فرجع وهو معتنق رقبة فرسه إلى رحله ، واجتمع له قوم من أهله وأصدقائه يبكون ، فقال لأحدهم : « ادخل يدك في فمي » ، فادخل أصبعه في فمه ، فعضها مالك ، فالتوى الرجل من الوجع ، فقال مالك : « لا بأس على صاحبكم ، يقال : إذا سلمت الاضراس سلم الرأس ، احشوها ـ يعني الضربة ـ سويقا وشدوها بعمامة » . فلما حشوها وشدوها قال : « هاتوا فرسي » ، قالوا : « إلى أين ؟» قال : « إلى أبي مسيكة » .

فبرز بين الصفين وصاح : « ياأبا مسيكة !» فخرج إليه مثل السهم ، فضربه مالك بالسيف على كتفه فشقها إلى سرجه فقتله ، ورجع مالك إلى رحله فبقي أربعين يوما لايستطيع الحراك ، ثم أبل وعوفي من جرحه ذلك(٤٠)

ومن ذلك ما شاهدته من سلامة المطعون ، وقد ظن أنه قـد هلك ، أننا التقينا بوادر خيل شهاب الدين محمود بن قراجا وقد جـاء إلى أرضنا وكمن لنا كمينا ، فلما تواقفنا نحـن وهـو انتشرت خيلنا ، فجاءني فارس من جندنا يقال له علي بـن سـلام نميري ، وقـال : « أصـحابنا قـد انتشروا ، إن حملوا عليهـم أهلكوهـم » ، قلت : « أحبس عني أخوتي وبني عمي حتى أردهم » ، فقال : « ياأمراء ، دعوا هذا يرد الناس ولاتتبعـوه ، وإلا حملوا عليهـم قلعـوهم » ، قالوا : « يمضي » ، فخرجت أنا قل (٤١) حصاني حتـى رددتهـم ، وكانوا ممسكين عنهم ليستجروهم ويتمكنوا منهم .

فلما رأوني قد رددتهـم حملوا علينا ، وخـرج كمينهـم وأنا على فسحة من أصحابي ، فـرجعت مبـاريهم أريد أحمـي أعقـاب أصحابي ، فوجدت ابن عمـي ليث الدولة يحيى ، رحمـه الله ، قـد حدب(٤٢) من وراء أصحابي مـن قبلي الطـريق وأنا في شـماليه ، فجئناهم ، فتسرع فارس من خيلهم يقال له فارس بن زمام ، رجـل عربي فارس مشهور ، وجازنا يريد الطعن في أصحابنا ، فسـبقني إليه ابن عمي ، فطعنه ، فوقع هو وحصـانه وفقـع الرمـح فقعـة سمعتها أنا وأولئك .

وكان الوالد ، رحمه الله ، أرسـل رسـولا إلى شـهاب الدين ، فأخذه معه لما جاء لقتالنا ، فلما طعن فارس بن زمام ولم يبلغ منا ما أراد نفذ الرسول من مكانه بجواب ما سأل فيه ، ورجع إلى حماة ، فسألت الرسول : « هل مات فارس بن زمام ؟» قال : « لا ، والله ، ولا فيه جرح » . قال : « ليث الدولة طعنه ، وأنا أراه ، فرماه ورمى حصانه ، وسمعت قعقعة كسر الرمـح ، لما غشـيه ليث الدولة مـن يساره مال على جانبه الأيمن وفي يده قنطارية(٤٣) . فوقع حصـانه على قنطاريته وهـي على وهـدة ، فـانكسرت ، وتـنذب ليث الدولة برمحه ، فوقع من يده ، والذي سمعت قعقعة قنطـارية فـارس بـن زمـام ، ورمـح ليث الدولة أحضروه بين يدي شـهاب الدين ، وأنا حاضر ، وهو صحيح ما فيه كسر ، ولا في فارس جرح » . فعجبـت

من سلامته ، وكانت تلك الطعنة طعنة فيصل كما قال عنترة :

الخيل تعلم والفوارس أنني
فرقت جمعهم بطعنة فيصل

ورجع جمعهم وكمينهم ما نالوا منه ماأرادوه :
والبيت المقدم من أبيات لعنترة بن شداد يقول فيها :

إني أمرؤ من خير عبس منصبا
شطري وأحمي سائري بالمنصـــل
واذا الكتيبة أحجمت فتلاحظــت
ألفيت خيرا من معم مخـــــول
إن المنية لو تمثل مثلــــت
مثلي إذا نزلوا بضنك المنزل
والخيل تعلم والفوارس أنني
فرقت جمعهم بطعنة فيصـــــــل
ودعوا نزال فكنت أول نـــازل
وعلام أركبه إذا لم أنزل(٤٤)

ومثل ذلك ما جرى لي على افامية . فإن نجم الدين بن إيلغـــازي ابن أرتــق ، رحمـــه الله ، كسر الأفــرنج على البــلاط ، وذلك يوم الجمعة خامس جمادى الأولى سنة ثــلاث عشرة وخمســمائة(٤٥) وأفناهم وقتل صاحب أنطاكية روجار وجميع فرسانه ، فســـار إليه عمي عز الدين أبو العساكر سلطان ، رحمـــه الله ، وتخلف والدي ، رحمه الله ، في حصن شيزر ، وقد وصاه أن يسيرني إلى أفامية بمن معي بشيزر من الناس ويستنفر الناس والعرب لنهب زرع أفــامية ، وكان قد هدف من العرب الينا خلق كثير .

فلما سار عمي نادى المنادي بعد يويمات من مســيره ، وسرت في نفر قليل ، ما يلحق عشرين فارسا ، ونحن على يقين أن أفامية مـــا

فيها خيالة ، ومعي خلق عظيم من النهابة والبادية ، فلما صرنا على وادي أبو الميمون ، والنهابة والعرب متفرقون في الزرع ، خرج علينا من الأفرنج جمع كثير ، وكان قد وصلها تلك الليلة ستون فارسا وستون راجلا .

فكشفونا عن الوادي ، فاندفعنا بين أيديهم إلى أن وصلنا الناس الذين في الزرع ينتهبونه ، فضجوا ضجة عظيمة ، فهان علي الموت لهلاك ذلك العالم معي ، فرجعت على فارس في أولهم قد ألقى عنه درعه وتخفف ليجوزنا من بين أيدينا ، فطعنته في صدره فطار عن سرجه ميتا .

ثم استقبلت خيلهم المتتابعة فولوا ، وأنا غر من القتال ما حضرت قتالا قبل ذلك اليوم ، وتحتي فرس مثل الطير ، ألحق أعقابهم لأطعن فيهم ثم اجتن عنهم .

وفي آخرهم فارس على حصان أدهم مثل الجمل بالدرع ولأمة الحرب أنا خائف منه لايكون جاذبا لي ليعود علي ، حتى رأيته ضرب حصانه بمهمازه فلوح بذنبه ، فعلمت أنه قد أعيا ، فحملت عليه طعنته فنفذ الرمح من قدامه نحو ا من ذراع ، وخرجت من السرج لخفة جسمي وقوة الطعنة وسرعة الفرس ، ثم تراجعت وجذبت رمحي وأنا اظن أني قتلته . فجمعت أصحابي وهم سالمون .

وكان معي مملوك صغير يجر فرسا لي دهماء مجنوبة ، وتحته بغلة مليحة سروجية وعليها مركوب ثقيل فضة ، فنزل عن البغلة وسيبها وركب الحجرة فطارت به الى شيزر ، فلما عدت إلى أصحابي وقد مسكوا البغلة ، سألت عن الغلام فقالوا : « راح »، فعلمت أنه يصل شيزر ويشغل قلب الوالد ، رحمه الله ، فدعوت رجلا من الجند وقلت : « تسرع إلى شيزر تعرف والدي بما جرى » .

وكان الغلام لما وصل أحضره الوالد بين يديه وقال : « أي شيء لقيتم ؟ » قال : « يامولاي ، خرج علينا الأفرنج في ألف ، وما أظن أحدا يسلم إلا مولاي » ، قال : « كيف يسلم مولاك دون الناس ؟» قال : « رأيته قد لبس وركب الخضراء ، وفيما هو يحدثه وذلك الفارس قد وصله وأخبره باليقين ، ووصلت بعده ، فاستخبرني ، رحمه الله ، فقلت : « يامولاي ، كان أول قتال حضرته ، فلما رأيت الأفرنج قد وصلوا إلى الناس هان علي الموت ، فرجعت إلى الأفرنج لأقتل أو أحمي ذلك العالم » ، فقال رحمه الله : متمثلا :

يفر جبان القوم عن أم رأسه
ويحمي شجاع القوم من لايلازمه

ووصل عمي ، رحمه الله ، من عند نجم الدين إيلغازي ، رحمه الله بعد أيام ، فأتاني رسوله يستدعيني في وقت ما جرت عادته فيه ، فجئته فاذا عنده رجل من الافرنج ، فقال:« هذا الفارس قد جاء من افامية يريد أن يبصر الفارس الذي طعن فليب الفارس ، فإن الافرنج تعجبوا من تلك الطعنة وانها خرقت الزردية من طاقتين وسلم الفارس » ، قلت : « كيف سلم ؟» قال ذلك الفارس الافرنجي : « جاءت الطعنة في جلدة خاصرته » ، قلت : « نعم الأجل حصن حصين » ، وما ظننته يسلم من تلك الطعنة ، قلت : يجب على من وصل إلى الطعن أن يشد يده وذراعه على الرمح إلى جانبه ويدع الفرس يعمل ما يعمله في الطعنة ، فإنه متى حرك يده بالرمح أو مدها به لم يكن لطعنته تأثير ولا نكاية .

وشاهدت فارسا من رجالنا يقال له عدي بن تليل القشيري ، وكان من شجعاننا ، وقد التقينا نحن والافرنج وهو معرى ما عليه غير ثوبين ، فطعنه فارس من الافرنج في صدره فقطع هذه العصفورة التي في الصدر وخرج الرمح من جانبه ، فرجع في صدره وما نظنه يصل منزله حيا ، فقدر الله سبحانه أن سلم وبرأ جرحه ،

لكنه لبث سنة اذا نام على ظهره لايقدر يجلس إن لم يجلسه انسان بأكتافه ، ثم زال عنه ما كان يشكوه وعاد إلى تصرفه وركوبه كما كان .

قلت فسبحان من نفذت مشيئته في خلقه يحيي ويميت ، وهو حي لايموت بيده الخير ، وهو على كل شيء قدير (٤٦) .

كان عندنا رجل من المصطنعة ، يقال له عتاب ، أجسم ما يكون من الرجال وأطولهم ، دخل بيته فاعتمد على يده عند جلوسه على ثوب بين يديه ، كانت فيه ابرة ، دخلت في راحته فمات منها ، وبالله لقد كان يئن في المدينة فيسمع أنينه من الحصن لعظم خلقه وجهارة صوته ، يموت من إبرة ، وهذا القشيري يدخل في صدره قنطارية تخرج من جنبه لايصيبه شيء .

نزل علينا صاحب أنطاكية ، لعنه الله ، بفارسه وراجله وخيامه في بعض السنين ، فركبنا ولقيناهم نظن أنهم يقاتلونا ، فجاؤوا نزلوا منزلا كانوا ينزلونه ، وهجعوا في خيامهم ، فرجعنا نحن إلى آخر النهار ، ثم ركبنا ، ونحن نظن أنهم يقاتلونا ، فما ركبوا من خيامهم .

وكان لابن عمي ليث الدولة يحيى غلة قد نجزت وهي بالقرب من الافرنج ، فجمع دواب يريد يمضي إلى الغلة يحملها ، فسرنا معه في عشرين فارسا معدين ، وقفنا بينه وبين الفرنج ، إلى أن حمل الغلة ومضى ، فعدلت أنا ورجل من مولدينا يقال له حسام الدولة مسافر ، رحمه الله ، إلى كرم رأينا فيه شخوصا ، وهم على شط النهر ، فلما وصلنا الشخوص التي رأيناها ، والشمس على مغيبها ، فاذا شيخ عليه معرقة امرأة ومعه آخر ، فقال له حسام الدولة وكان ، رحمه الله ، رجلا جيدا كثير المزاح : « ياشيخ ، أي شيء تعمل هاهنا ؟» قال : « انتظر الظلام واسترزق الله تعالى من خيل هؤلاء الكفار » ، قال : « ياشيخ ، بأسنانك تقطع عن خيلهم ؟» قال :

« لا ، بهذه السكين » . وجذب سكينا من وسطه مشدودة بخيط مثل شعلة النار ، وهو بغير سراويل ، فتركناه وانصرفنا .

وأصبحت من بكرة ركبت انتظر ما يكون من الافرنج ، وإذا الشيخ جالس في طريقي على حجر والدم على ساقه وقد جمد ، قلت : « يهنئك السلامة ، أي شيء عملت ؟ » قال : « أخذت منهم حصانا وترسا ورمحا ، ولحقني راجل ، وأنا خارج من عسكرهم ، طعنني نفذ القنطارية في فخذي ، وسبقت بالحصان والترس والرمح » ـ وهو مستقل بالطعنة التي فيه كأنها في سواه ، وهذا الرجل يقال له الزمر كل من شياطين اللصوص حدثني عنه الامير معين الدين ، رحمه الله ، قال : «أغرت زمان مقامي بحمص على شيزر ، وعدت آخر النهار نزلت على ضيعة من بلد حماه ، وأنا عدو لصاحب حماه ، قال : فجاءني قوم معهم شيخ قد أنكروه فقبضوه وجاؤوني به ، فقلت : يا شيخ ايش انت ؟ قال : « يامولاي ، أنا رجل صعلوك شيخ زمن ، وأخرج يده وهي زمنة ، قد أخذ لي العسكر عنزين جئت خلفهم لعل ان يتصدقوا علي بهما ، فقلت لقوم من الجندارية : « احفظوه إلى غد ، فاجلسوه بينهم وجلسوا على أكمام فروة عليه . فاستغفلهم في الليل وخرج من الفروة وتركها تحتهم وطار ، فعدوا في اثره ، سبقهم ومضى ، قال : وكنت قد نفذت بعض أصحابي في شغل فلما عادوا وفيهم جندار يقال له شومان قد كان يسكن بشيزر ، فحدثته حديث الشيخ ، قال :« واحسرتي عليه ! لو كنت لحقته كنت شربت دمه ، هذا الزمر كل » ، قلت : « فأي شيء بينك وبينه ؟» قال : نزل عسكر الفرنج على شيزر فخرجت أدور به لعل أسرق حصانا منهم ، فلما أظلم الظلام مشيت الى طوالة خيل بين يدي وإذا هذا جالس بين يدي ، فقال لي :إلى أين ؟ قلت : آخذ حصانا من هذه الطوالة ، قال : وأنا من العشاء انظرها حتى تأخذ أنت الحصان ! قلت : لاتهذ ، قال : لا تغتر ، والله ، ماأدعك تأخذ شيئا ، فما التفت إلى قوله ويممت إلى الطوالة ، فقام وصاح بأعلى صوته : وافقري ، واخيبة تعبي وسهري ، وصيح حتى خرج علي الافرنج ، فاما هو فطار ،

فطردوني حتى رميت نفسي في النهر ، وما ظننت أني اسلم منهم . ولو لحقته كنت شربت دمه ، وهو لص عظيم ، وما تبع العسكر الا يسرق منه » .

فكان هذا الرجل يقول من يراه « ما في هذا يسرق رغيف خبز من بيته » .

ومن عجيب ما اتفق في السرقة ان رجلا كان بخدمتي يقال له علي ابن الدودويه من أهل بتكين ، نزل يوما الافرنج ، لعنهم الله ، على كفرطاب (٤٧) وهي إذ ذاك لصلاح الدين محمد بن أيوب اليغسياني ، رحمه الله ، فخرج هذا علي بن الدودوية دار بهم وأخذ حصانا ركبه وخرج به من العسكر يركض ، وهو يسمع الحس خلفه ويعتقد أن بعضهم قد ركب في طلبه ، وهو مجد في الركض والحس خلفه حتى ركض قدر فرسخين والحس معه . فالتفت يبصر ما خلفه في الظلام ، واذا بغلة كانت تألف الحصان قد قطعت مقودها وتبعته . فوقف حتى شد فوطته في رأسها وأخذها وأصبح عندي في حماة بالحصان والبغلة ، وكان الحصان من أجود الخيل وأحسنها وأسبقها .

كنت يوما عند أتابك وهو يحاصر رفنية(٤٨) وقد استدعاني فقال لي : « يافلان ، أي شيء من حصانك الذي خبيته ؟» وكان قد بلغه خبر الحصان ، قلت « لا ، والله يامولاي ، ما لي حصان مخبى ، حصني كلها في العسكر » ، قال : فالحصان الافرنجي ؟ » قلت : « حاضر » ، قال : « أنفذ احضره » ، فانفذت أحضرته وقلت للغلام : « امض به الى الاصطبل » ، قال أتابك : « اتركه الساعة عندك » ، ثم اصبح سبق ، فسبق ، ورده الى اصطبلي . وعاد استدعاه من البلد وسبق به فسبق ، فحملته الى اصطبله .

وشاهدت في الحرب عند انتهاء المدة ، كان عندنا رجل من الجند يقال له رافع الكلابي ، وهو فارس مشهور ، اقتتلنا نحن وبنو قراجا وقد جمعوا لنا من التركمان وغيرهم ، وحشدوا وباسطناهم

على فسحة من البلد ، ثم تكاثروا علينا فرجعنا وبعضنا يحمي بعضا ، وهذا رافع في من يحمي الأعقاب ، وهو لابس كزاغند(٤٩) وعلى رأسه خونة بلا لثام ، فالتفت لعله يرى فيهم فرصة فينحرف عليهم ، فضربه سهم كسماء(٥٠) في حلقه ذبحه ، ووقع مكانه ميتا .

وكذلك شاهدت شهاب الدين محمود بن قراجا ، وقد انصلح ما بيننا وبينه ، وقد نفذ إلى عمي يقول له : « تأمر أسامة يلقاني هو وفارس واحد إلى كفراع (٥١) لنمضي نبصر موضعا نكمن فيه لافامية ونقاتلها » ، فأمرني عمي بذلك : فركبت ولقيته وأبصرنا المواضع .

ثم اجتمع عسكرنا وعسكره ، وأنا على عسكر شيزر وهو في عسكره ، وسرنا إلى أفامية ، فلقينا فارسهم وراجلهم في الخراب الذي لها ، وهو مكان لاتتصرف فيه الخيل من الحجارة والاعمدة واصول الحيطان الخراب ، فعجزنا عن قلعهم من ذلك المكان ، فقال لي رجل من جندنا : « تريد تكسرهم ؟» قلت : « نعم » ، قال : « اقصد بنا باب الحصن » ، فأراد ان يردني عن ذلك ، فأبيت وقصدت الباب .

فساعة مارآنا الفرنج قاصدين الباب عاد إلينا فارسهم وراجلهم فداسونا وجازوا ، وترجل الفرسان داخل باب الحصن واطلعوا خيلهم الى الحصن وصفوا عوالي قنطارياتهم في الباب ، وأنا وصاحب لي من مولدي أبي ، رحمه الله ، اسمه رافع بن سوتكين وقوف تحت السور مقابل الباب وعلينا شيء كثير من الحجارة والنشاب ، وشهاب الدين واقف في موكب بعيد منهم على جوبة الاكراد(٥٢)، فقد طعن صاحب لنا يقال له حارثة النميري نسيب جمعة في صدر فرسه طعنة معترضة ، ونزلت القنطارية في الفرس فتخبطت حتى وقعت القنطارية منها ووقعت جلدة صدرها جميعها ، فبقيت مسبلة على أعضادها .

وشهاب الدين بمعزل عن القتال ، فجاء سهم من الحصن فضربه في جانب عظم زنده فما دخل في جانب عظم زنده مقدار طول شعيرة ، فجاءني رسوله يقول : « لاتزل مكانك حتى تجمع الناس الذين تفرقوا في البلد ، فأنا قد جرحت ، وكأني أحس الجرح في قلبي ، وأنا راجع فاحفظ انت الناس » ، ومضى ورجعت أنا بالناس نزلت على برج خريبة ، وكان الافرنج لهم عليه ديد بان يكشفنا إذا أردنا الغارة على أفامية .

ووصلت العصر إلى شيزر وشهاب الدين في دار والدي يريد يحل جرحه ويداويه ، وعمي قد منعه وقال : « والله ، ما تحل جرحك إلا في دارك » ، قال : « أنا في دار والدي » ــ يعني الوالد ، رحمه الله ــ قال: « إذن إذا وصلت دارك وبرأ جرحك دار والدك بحكمك » .

فركب المغرب وسار الى حماة . فاقام الغد وبعد الغد ثم اسودت يده وغاب عنه رشده ومات ، وما كان به إلا فراغ الأجل .(٥٣)

وشاهدت من الطعنات العظيمة طعنة طعنها فارس من الافرنج ، خذلهم الله ، فارسا من أجنادنا يقال له تايه بن قنيب كلابي قطع له ثلاثة اضلاع من جانبه اليسار ، وثلاثة أضلاع من جانبه الايمن وضرب شفار الحربة مرفقه ففصله كما يفصل الجزار المفصل ، ومات لساعته .

وطعن رجل من أجنادنا كردي يقال له مياح فارسا من الافرنج أدخل قطعة من الزرد في جوفه وقتله ، ثم إن الافرنج غاروا علينا بعد أيام ومياح قد تزوج وخرج ، وهو لابس وفوق درعه ثوب أحمر من ثياب العروس ، قد تشهر به ، فطعنه فارس من الافرنج فقتله ، رحمه الله . « ياقرب مأتمه من العرس ! »

فذكرت به الخبر عن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، وقد أنشد قول قيس بن الخطيم :

أجالدهم يوم الحديقة حاسرا
كأن يدي بالسيف مخراق لاعب(٥٤)

فقال النبي صلى الله عليه للحاضرين من الانصار ، رضي الله عنهم :« هل حضر أحد منكم يوم الحديقة ؟ »(٥٥) فقال رجل منهم : « أنا حضرته ، يارسول الله ، صلى الله عليك وسلم ، وحضره قيس بن الخطيم وهو قريب عهد بالعرس وعليه ملاءة حمراء ، فوالذي بعثك بالحق لقد عمل في قتاله كما قال عن نفسه »

ومن عجائب الطعن ان رجلا من الاكراد يقال له حمدات كان قديم الصحبة قد سافر مع والدي ، رحمه الله ، إلى أصبهان إلى دركاه السلطان ملكشاه فكبر وضعف بصره ونشأ له أولاد ، فقال له عمي عز الدين ، رحمه الله : « ياحمدات ، قد كبرت وضعفت ، ولك علينا حق وخدمة ، فلو لزمت مسجدك ـ وكان له مسجد على باب داره ـ وأثبتنا أولادك في الديوان ويكون لك أنت كل شهر ديناران وحمل دقيق وأنت في مسجدك » ، قال : « أفعل ياأمير » ، فأجري له ذلك مديدة.

ثم جاء إلى عمي وقال : « ياأمير ، والله ، ما تطاوعني نفسي على القعود في البيت ، وقتلي على فرسي أشهى إلي من موتي على فراشي » قال : « الأمر لك » ، وأمر برد ديوانه عليه كما كان .

فما مضى إلا الأيام القلائل حتى غار علينا السرداني (٥٦) صاحب طرابلس ، ففزع الناس إليهم ، وحمدات في جملة الروع ، فوقف على رفعة من الارض مستقبل القبلة ، فحمل عليه فارس من الافرنج من غربية ، فصاح إليه بعض أصحابنا : « ياحمدات !» ، فالتفت رأى الفارس قاصده ، فرد رأس فرسه شمالا ومسك رمحه بيده وسدده الى صدر الافرنجي ، فطعنه نفذ الرمح منه ، فرجع الافرنجي متعلقا برقبة حصانه في آخر رمقه ، فلما انقضى القتال قال

حمدات لعمي : « ياأمير،لو أن حمدات في المسجد من كان طعن هــذه الطعنة ؟»

فاذكرني قول الفند الزماني(٥٧)

أيا طعنة ما شيــخ
كبير يفن بالـــــي
تفتيت بها إذ كـــ
ـــره الشكة أمثالي

وكان الفند قد كبر وحضر القتال فطعن فارسين مقتربين فرماهما جميعا

وقد كان جرى لنا مثل ذلك : وهو أن فلاحا من العلاة جاء يركض إلى أبي وعمي ، رحمهما الله ، قال :« شاهدت سرية أفرنج تائهين قد جاؤوا من البرية ، لو خرجتم إليهم أخذتموهم » ، فــركب أبــي وعمامي وخرجوا بالعسكر الى السرية التــائهة واذا بــه السرداني صاحب طرابلس في ثلاثمائة فارس ومائتي تركبولي ، وهــم رمــاة الافرنج ، فلما راوا أصحابنا ركبوا خيلهم واطلقوا على اصــحابنا هزموهم ، وتموا يطردونهم ، فأحرف عليهم مملوك لوالدي يقــال له ياقوت الطويل ، وابي وعمي ، رحمهما الله ، يريانه ، فطعن فارسا منهم إلى جانبه فارس آخر ، وهمــا يتبعــان اصــحابنا ، فـــرمى الفارسين والفرسين .

وكان هذا الغلام كثير التخليط والزلات لايزال فد فعل فعلة يجب تأديبه عليها ، فكلما هم والدي به وبتأديبه يقول عمي : « ياأخــي ، بحياتك هب لي ذنبــه ولاتنس له تلك الطعنة » ، فيصــفح عنه لكلام أخيه .

وكان حمدات الذي تقدم ذكره ظريف الحديث . حــدثني والدي ،

رحمه الله ، قال : « قلت لحمدات ونحن سائرون في طريق اصبهان سحرا ، « أمير حمدات ، أكلت اليوم شيئا ؟ ، قال : نعم ياأمير ، اكلت ثريدة .

قلت : « ركبنا في اليل وما نزلنا ولا أوقدنا نارا ، من أين لك الثريدة ؟ قال : « يا أمير عملتها في فهمي ، اخلط في فمي الخبز واشرب عليه الماء يصير كالثريدة » .

وكان الوالد ، رحمه الله ، كثير المباشرة للحرب ، وفي بدنه جراح هائلة ، ومات على فراشه ، وحضر يوما القتال وهو لابس وعليه خوذة اسلامية بأذف فزرقه رجل بحربة - وكان معظم قتالهم مع العرب ذلك الزمان - فوقعت الحربة في أنف الخوذة فانطوى وأدمى أنفه ولم يؤذه ، ولو كان قدر الله سبحانه أن يميل المزراق عن أنف الخوذة كان أهلكه .

وضرب مرة أخرى بنشابة في ساقه ، وفي خفه دشني(٥٨) ، فوقع السهم في الدشن فانكسر فيه ولم يجرحه ، هذا لحسن دفاع الله تعالى . وشهد ، رحمه الله ، الحرب يوم الاحد تاسع وعشرين شوال سنة سبع وتسعين واربعمائة مع سيف الدولة خلف بن ملاعب الاشهبي صاحب أفامية بأرض كفرطاب ، فلبس جوشنه ، وعجل الغلام عن طرح كلاب الجوشن من الجانب ، فجاءه خشت (٥٩) فضربه في ذلك الموضع الذي أخل الغلام بستره فوق بزه الايسر خرج الخشت من فوق بزه الايمن ، فكانت اسباب السلامة لما جرت بها المشيئة من العجب ، والجرح لما قدره الله سبحانه من العجب .

فطعن ، رحمه الله ، في ذلك اليوم فارسا واحرف حصانه وثنى يده برمحه وجذبه من المطعون ، فحدثني قال : « حسست شيئا قد لدغ زندي ، فظننته من حرارة صفائح الجوشن ، إلا أن رمحي سقط من يدي ، فرددتها فاذا قد طعنت في يدي وقد استرخت لقطع شيء من الاعصاب » ، فحضرته ، رحمه الله ، وزيد الجرائحي

يداوي جرحه ، وعلى رأسه غلام واقف ، فقال : « يازيد ، اخرج هذه الحصاة من الجرح » ، فما كلمه الجرائحي . فعاد فقال : « يازيد ما تبصر هذه الحصاة ؟ ما تزيلها من الجرح !» فلما اضجره قال : « أين الحصاة ؟ هذا رأس عصب قد انقطع » ، وكان بالحقيقة أبيض كانه حصاة من حصا الفرات .

وأصابه ذلك اليوم طعنة أخرى وسلم الله حتى مات على فراشه ، رحمه الله ، يوم الاثنين ثامن شهر رمضان سنة احدى وثلاثين وخمس مائة

وكان يكتب خطا مليحا ، فما غيرت تلك الطعنة من خطه ، وكان لاينسخ سوى القرآن ، فسألته يوما فقلت : « يامولاي كم كتبت ختمه ؟» قال « الساعة تعلمون » ، فلما حضرته الوفاة قال : « في ذلك الصندوق مساطر كتبت على كل مسطرة ختمة ضعوها ـ يعني المساطر ـ تحت خدي في القبر » ، فعددناها فكانت ثلاثا وأربعين مسطرة .

فكان كتب بعدتها ختمات : منها ختمة كبيرة كتبها بالذهب ، وكتب فيها علوم القرآن قراءآته وغريبه وعربيته وناسخه ومنسوخه وتفسيره ، وسبب نزوله وفقهه ، بالحبر والحمرة والزرقة ، وترجمه بالتفسير الكبير ، وكتب ختمه أخرى بالذهب مجردة من التفسير ، وباقي الختمات بالحبر مذهبة الأعشار والأخماس والآيات ورؤوس السور ورؤوس الاجزاء ، وما يقتضي الكتاب ذكر هذا وإنما ذكرته لأستدعي له الرحمة ممن وقف عليه .

أعود الى ما تقدم :

وفي ذلك اليوم أصاب غلاما كان لعمي عز الدولة أبي المرهف نصر ، رحمه الله ، يقال له موفق الدولة شمعون طعنة عظيمة التقاها دون عمي عز الدين أبي العساكر سلطان ، رحمه الله ، واتفق ان

عمي أرسله رسولا إلى الملك رضوان بن تاج الدولة تتش إلى حلب ، فلما حضر بين يديه قال لغلمانه : « مثل هـذا يكون الغلمـان وأولاد الحلال في حق مواليهم » ، وقال لشمعون : « حـدثهم حـديثك أيام والدي وما فعلته مع مولاك » ، فقال : « يامولانا ، بالامس حضرت القتال مع مولاي فحمل عليه فارس يطعنه ، فدخلت بينه وبين مولاي لافديه بنفسي فطعنني قـطع مـن اضـلاعي ضـلعين وهي - ونعمتك - عندي في قمطرة » فقال له الملك رضوان « والله ما أعطيك الجواب حتى تنفذ تحضر القمطرة والاضلاع » .

فأقام عنده وأرسل من أحضر القمـطرة وفيهـا عظمـان مـن أضلاعه ، فعجب رضوان من ذلك ، وقال لأصحابه : « كذا اعملوا في خدمتي »

فاما الأمر الذي سأله عنه أيام والدة تاج الدولة فإن جدي سـديد الملك أبا الحسن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ ، رحمه الله ، سـير ولده عز الدولة نصرا ، رحمه الله ، الى خـدمة تـاج الدولة ، وهـو معسكر بظاهر حلب ، فقبض عليه واعتقله ووكل به مـن يحفـظه ، وكان لايدخل إليه سـوى مملوكه هـذا شـمعون والموكلون حـول الخيمة ، فكتب عمي إلى أبيه ، رحمهما الله ، يقول : « تنفـذ لي في الليلة الفلانية - وعينها - قوما من أصـحابه - ذكرهـم - وخيلا اركبها إلى الموضع الفلاني » ، فلما كانت تلك الليلة دخـل شـمعون خلع ثيابه فلبسها مولاه وخرج على الموكلين في الليل ، فما انكروه ، ومضى إلى أصحابه وركب وسار ، ونام شمعون في فراشه .

وجرت العادة أن يجيئه شمعون في السحر بوضوئه فكان ، رحمه الله ، من الزهاد القائمين ليلهـم يتلون كتـاب الله تعـالى ، فلمـا أصبحوا ولم يروا شمعون دخـل كعـادته دخلوا الخيمـة فـوجدوا شمعون وعز الدولة قـد راح ، فـأنهو ذلك إلى تاج الدولة • فـأمر بإحضـاره ، فلمـا حضر بين يديه قـال : « كيف عملت ؟» قـال :

« أعطيت مولاي ثيابي لبسها وراح ، ونمت أنا في فراشه » ، قال : « وما خشيت أن أضرب رقبتك ؟ » قال : « يامولاي ، إذا ضربت رقبتي وسلم مولاي وعاد إلى بيته فانا السعيد بذلك . وماا شتراني ورباني إلا لأفديه بنفسي » .

فقال تاج الدولة ، رحمه الله ، لحاجبه : « سلم الى هذا الغلام خيل مولاه » ودوابه وخيامه وجميع بركه ، وسيره يتبع صاحبه « وما انكر عليه وما احذقه ما فعل في خدمة مولاه ، فهذا الذي قال له رضوان : « حدث اصحابي ما عمله أيام والدي مع مولاك » .

أعود إلى حديث الحرب المقدم ذكرها مع ابن ملاعب

وجرح عمي عز الدولة ، رحمه الله ، في ذلك اليوم عدة جراح ، منها : طعنة طعنها في جفن عينه السفلاني من ناحية المآق ، ونشب الرمح في المآق عند مؤخر العين فسقط الجفن جميعه وبقي معلقا بجلده من مؤخر العين ، والعين تلعب لاتستقر ، وإنما الجفون التي تمسك العين ، فخاطها الجرائحي وداواها فعادت كحالها الأولة لاتعرف العين المطعونة من الأخرى

وكانا ، رحمهما الله ، من اشجع قومهما . ولقد شهدتهما يوما وقد خرجا الى الصيد بالبزاة نحو تل ملح(٦٠) وهناك طير ماء كثير ، فما شعرنا إلا وعسكر طرابلس قد أغار على البلد ووقفوا عليه ، فرجعنا وكان الوالد (أبل) من أثر مرض ، فاما عمي فخف بمن معه من العسكر وسار حتى عبر من المخاض إلى الافرنج ، وهم يرونه ، وأما الوالد فسار والحصان يخب به ، وأنا معه صبي وفي يده سفرجلة يمتص منها ، فلما دنونا من الافرنج قال لي : « امض أنت ادخل من السكر » وعبر هو من ناحية الافرنج .

ومرة اخرى شاهدته وقد اغارت علينا خيل محمود بن قراجا ،

ونحن على فسحة من البلد وخيل محمود أقـرب إليه منا ، وأنا قـد حضرت القتال ومارست الحرب ، فلبست كزاغندي وركبت حصاني وأخذت رمحي ، وهـو ، رحمه الله ، على بغلة ، فقلت : « يامـولاي ما تركب حصانك !» قـال : « بلى » وسـار كمـا هـو غير منزعج ولا مستعجل ، وأنا لخوفي عليه ألح في ركوبه حصانه ، إلى أن وصلنا إلى البلد ، وهـو على بغلتـه ، فلمـا عاد أولئك وأمنا قلت : « يامولاي ، ترى العدو قد حال بيننا وبين البلد وأنت لا تركب بعض جنائبك وأنا أخاطبك فلا تسمع !» قال : « ياولدي ، في طالعي أنني لا أرتاع » .

وكان ، رحمه الله ، له اليد الطـولى في النجـوم مـع ورعه ودينه وصومه الدهر وتلاوة القـرآن ، وكان يحـرضني على معـرفة علم النجوم فآبي وامتنع ، فيقول : « فاعرف أسماء النجوم ، مـا يطلع منها ويغرب » ، فكان يريني النجوم ويعرفني أسماءها .

ورأيت من إقدام الرجال ونخواتهم في الحرب أنا أصـبحنا وقـت صلاة الصبح رأينا سربة من الافرنج ، نحوا مـن عشرة فـوارس ، جاؤوا إلى باب المدينة قبل ما يفتح . فقالوا للبواب : « أي شيء اسم هذا البلد ؟ » والباب خشب بينهما عوارض ، وهـو داخـل البـاب ، قال : « شيزر » ، فرموه بنشاب من خلل الباب ورجعـوا وخيلهـم تخب بهم ، فركبنا فكان عمي ، رحمه الله ، أول راكب وأنا معـه ، والافرنج رائحـون غير منزعجين ، ولحقنا مـن الجند نفـر ، فقلت لعمي : « عن أمرك آخذ أصـحابنا واتبعهـم أقلعهـم وهـم غير بعيدين » ، قال : « لا ، وكان أخبر مني بالحرب ، في الشام أفرنجي لايعرف شيزر ؟ هذه مكيدة » .

ودعا فارسين من الجند على فـرسين سـوابق وقـال : امضـيا اكشفا تل ملح ، وكان مكمنا للافرنج ، فلما شارفاه خـرج عليهمـا عسكر أنطاكية جميعه فاستقبلنا متسرعيهم نريد الفرصة فيهم قبـل ركود الحرب ، ومعنا جمعة النميري وابنه محمود ، وجمعة فـارسنا

وشيخنا ، فوقع ابنه محمود في وسطهم فصاح جمعة : « يا فرسان الخيل ولدي » ، فرجعنا معه في ستة عشر فارسا طعنا ستة عشر فارسا من الفرنج وأخذنا صاحبنا من بينهم ، واختلطنا نحن وهم حتى أخذ واحد رأس ابن جمعة تحت ابطه ، فخلص ببعض تلك الطعنات .

ومع هذا فلا يثق إنسان بشجاعته ولا يعجب باقدامه ، فوالله لقد سرت مع عمي ، رحمه الله ، أغرنا على أفامية ، واتفق أن رجالها خرجوا ليسيروا قافلة فسيروها ، وعادوا ، ونحن لقيناهم فقتلنا منهم قدر عشرين رجلا ، ورأيت جمعة النميري ، رحمه الله ، وفيه نصف قنطارية قد طعن بها في لبد السرج وخرج الرمح من البداد إلى فخذه ، ونفذ إلى خلفه ، فانكسرت القنطارية فيه ، فراعني ذلك ، فقال : « لابأس ، أنا سالم » .

ومسك سنان القنطارية وجذبها منه ، وهو وفرسه سالمان .

فقلت : « يأبا محمود ، اشتهي اتقرب من الحصن أبصره »قال : « سر » ، فرحت أنا وهو نخب فرسينا ، فلما أشرفنا على الحصن إذا من الافرنج ثمانية من الفرسان وقوف على الطريق ، وهي مشرفة على الميدان من ارتفاع لاينزل منه إلا من تلك الطريق ، فقال لي جمعة : « قف حتى أريك ما أصنع فيهم » ، قلت : « ما هذا انصاف ، بل نحمل عليهم أنا وأنت » ، قال : « سر » . فحملنا عليهم فهزمناهم ورجعنا نحن نرى أنا قد فعلنا شيئا ما يقدر يفعله غيرنا ، نحن اثنان قد هزمنا ثمانية فرسان من الافرنج

فوقفنا على ذلك الشرف ننظر الحصن ، فما راعنا إلا رويجل قد طلع علينا من ذلك السند الصعب معه قوس ونشاب ، فرمانا ، ولاسبيل لنا إليه فهزمنا ، والله ما صدقنا نتخلص منه وخيلنا سالمة ، ورجعنا نخلنا مرج أفامية فسقنا منه غنيمة كبيرة من الجواميس والبقر والغنم ، وانصرفنا وفي قلبي من ذلك الراجل الذي

هزمنا حسرة « اللي » ما كان لنا إليه سبيل ، وكيف هزمنا راجل واحد وقد هزمنا ثمانية فرسان من الافرنج

وشهدت يوما وقد أغارت علينا خيل كفرطاب في قلة ففزعنا اليهم طامعين فيهم لقلتهم ، وقد كمنوا لنا كمينا في جماعة منهم ، وانهزم الذين اغاروا فتبعناهم حتى أبعدنا عن البلد ، فخرج إلينا الكمين ورجع إلينا الذين كنا نطردهم ، فرأينا أننا إن إنهزمنا قلعونا كلنا ، فالتقيناهم مستقتلين فنصر الله عليهم ، فقلعنا منهم ثمانية عشر فارسا : منهم من طعن فمات ، ومنهم من طعن فوقع وهو سالم ، ومنهم من طعن حصانه فهو راجل .

فجذب الذين في الارض منهم سالمون سيوفهم ووقفوا كل من اجتاز بهم ضربوه ، فاجتاز جمعة النميري ، رحمه الله ، بواحد منهم فخطا إليه وضربه على رأسه ، وعلى رأسه قلنسوة ، فقطعها وشق جبهته وجرى منها الدم حتى نزح ، وبقيت مثل فم السمكة مفتوحة ، فلقيته ونحن في ما نحن فيه من الافرنج فقلت له : « ياأبا محمود ، ما تعصب جرحك » فقال : « ما هذا وقت العصائب وشد الجراح » ، وكان لايزال على وجهه خرقة سوداء وهو رمد وفي عينه عروق حمر ، فلما أصابه ذلك الجرح وخرج منه الدم الكثير زال ما كان يشكو من عينيه ، ولم يعد يناله منهما رمد و لا ألم

فربما صحت الاجسام بالعلل(٦١)

وأما الافرنج فانهم اجتمعوا بعد ما قتلنا منهم من قتلنا ووقفوا مقابلنا ، فجاءني ابن عمي ذخيرة الدولة أبو القنا خطام ، رحمه الله ، فقال : « يابن عمي ، معك جنيبتان وأنا على هذا الفرس الحطم » ، قلت للغلام : « قدم له الحصان الاحمر » ، فقدمه له ، فساعة ما استوى في سرجه حمل على الافرنج وحده فافرجوا له حتى توسطهم وطعنوه رموه ، وطعنوا الحصان واقلبوا قنطارياتهم ، وصاروا يركشونه بها ، وعليه زردية حصينة ما تعمل

رماحهم فيها ، فتصايحنا : « صاحبكم ، صاحبكم » ، وحملنا عليهم فهزمناهم عنه واستخلصناه وهو سالم ، وأما الحصان فمات في يومه ، فسبحان المسلم القادر

وتلك الوقعة إنما كانت لسعادة جمعة وشفاء عينيه ، فسبحان القائل :(وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم)(٦٢)

وقد جرى لي مثل ذلك ، كنت بالجزيرة في عسكر أتابك فدعاني صديق لي الى داره ومعي ركابي اسمه غنيم قد استسقى ودقت رقبته وكبر جوفه وقد تغرب معي ، فأنا أرعى له ذلك ، فدخل بالبغلة إلى اصطبل ذلك الصديق هو وغلمان الحاضرين ، وعندنا شاب تركي سكر وغلب عليه السكر ، فخرج إلى الاصطبل جذب سكينه وهجم على الغلمان ، فانهزموا وخرجوا . وغنيم لضعفه ومرضه قد طرح السرج تحت رأسه ونام ، فما قام حتى خرج كل من في الاصطبل ، فضربه ذلك السكران بالسكين تحت سرته فشق من جوفه قدر أربع أصابع ، فوقع موضعه . فحمله الذي دعانا ، وهو صاحب قلعة باشزى (٦٣) إلى داري ، وحمل الذي جرحه وهو مكتوف معه الى داري ، فاطلقته ، وتردد إليه الجرائحي فصلح ومشى وتصرف ، إلا أن الجرح ما ختم ، ومازال يخرج منه مثل القشور وماء اصفر مدة شهرين ، ثم ختم وضمر جوفه وعاد إلى الصحة ، فكان ذلك الجرح سببا لعافيته .

ورأيت يوما البازدار قد وقف بين يدي والدي ، رحمه الله ، وقال : « يامولاي ، هذا الباز قد لحقه حص(٦٤) وهو يموت ، وعينه الواحدة قد تلفت ، فتصيد به ، فهو باز شاطر وهو تالف » ، فخرجنا إلى الصيد وكان معه ، رحمه الله ، عدة بزاة . فرمى ذلك الباز على دراجة وكان يهجم في الذبج (٦٥) . فنبحت الدراجة في اجمة حلفاء ودخل الباز معها ، وقد صار على عينه كالنقطة الكبيرة ، فضربته شوكة من الحلفاء في تلك النقطة ففقتها » ، فجاء به البازدار ، وعينه قد سالت وهي مطبوقة ، فقال : « يامولاي ، تلفت

عين الباز » ، فقال : « كله تالف » ثم مـن الغـد فتـح عينه وهـي سالمة ، وسلم ذلك الباز عندنا حتى قرنص قرناصين فكان من أشطر البزاة .

ذكرته بما جرى لجمعة وغنيم وإن لم يكن موضع ذكر البزاة ورأيت من استسقى وفصـدوا جـوفه فمـات ، وغنيم شـق ذلك السكران جوفه سلم وعوفي ، فسبحان القادر .

وأغار علينا عسكر أنطاكية وأصحابنا قد التقوا أوائلهم وجاؤوا قدامهم ، وأنا واقف في طريقهم أنتظر وصولهم إلي لعلي أنال منهـم فرصة ، وأصحابنا يعبرون علي منهزمين ، فعبر علي في مـن عبـر محمود بن جمعة ، فقلت : « قف يامحمود » ، فوقف لحظة ثم دفـع فرسه ومضى عني ، ووصلني أوائل خيلهم ، فـاندفعت بين أيديهـم وأنا راد رمحي اليهم ملتفت أنظـرهم لا يتسرع إلي منهـم فـارس يطعنني ، وبين يدي جماعة من أصحابنا ، ونحن بين بسـاتين لهـا حيطان طول قعدة الرجل ، فندس(٦٦) فرسي بصدرها رجـل(رجل) من أصحابنا ، فرددت رأس فرسي على يساري ، فضربتها بالمهاميز ففزت الحائط ، فضبطت حتى صرت أنا والافرنج مصـطفين وبيننا الحائط ، فتسرع منهم فارس عليه تشهير حـرير أخضر وأصـفر ، فظننت أن ما تحته درع ، فتركته حتى تجاوزني وضربـت الفـرس بالمهاميز ، ففزت الحائط ، وطعنته ، فمال إلى أن وصل رأسه ركابه ووقع ترسه والرمح من يده والخونة عن رأسه ، ونحن قد وصلنا الى رجالنا ، ثم عاد انتصب في سرجه وكان عليه زردية تحت التشهير .

فما جرحته الطعنة ، وأدركه اصحابه ثم عادوا ، وأخذ الرجـالة الترس والرمح والخونة .

فلما انقضى القتال ورجع الافرنج جاءني جمعـة ، رحمـه الله ، يعتذر عن ابنه محمود وقـال : « هـذا الكلب انهـزم عنك » ، قلت : « وأي شيء يكون ؟ » قـال : « ينهـزم عنك ولايكون شيء ؟» قلت :

« وحياتك ياأبا محمودوانت تنهزم عني أيضا » ، قـال : « ياشـين والله إن موتي أسهل علي من أن انهـزم عنك » ، ولم يمض إلا أيام قلائل حتى أغارت علينا خيل حماة فأخذوها لنا باقورة وحبسوها في جزيرة(٦٧) تحت الطاحون الجلالي .

وطلع الرماة على الطـاحون يحمـون البـاقورة . فـوصلتهم أنا وجمعة وشجاع الدولة ماضي ــ مولد لنا ــ وكان رجـلا شـجاعا ، فقلت لهما : « نعبـر الماء ونأخـذ الدواب » ، فعبـرنا ، فـأما أنا فضربت فرسي نشابة في أصل رقبتها فجازت فيها قدر شبر ، فـوالله ما رمحت ولا قلقت ولا كأنها احسست بالجرح ، وأما جمعة فـرجع خوفا على فرسه ، فلما عدنا قلت : « ياأبا محمود ، مـا قلت لك إنك تنهزم عني وأنت تلوم ابنك محمودا؟ » قال : « والله مـا خفـت إلا على الفرس .فانها تعز علي » واعتذر .

وقد كنا ذلك اليوم التقينا نحن وخيل حماة وقد سـبقهم بعضـهم بالباقورة إلى الجزيرة ، فاقتتلنا نحن وهم ، وفيهم فرسان عسـكر حماة : سرهنك وغازي التلي ، ومحمود بن بلداجي وخضر الطـوط واسباسلار خطلخ ، وهم أكثر عددا منا ، فحملنا عليهم ، فهزمناهم وقصدت فارسا منهم أريد أطعنه واذا هو خضر الطـوط ، فقـال : « الصنيعة ، يافلان ! » فعدلت عنه الى آخر فطعنته فـوقع الرمـح تحت ابطه ، فلو تركه ما كان وقع ، فشـد عضـده عليه يريد يأخـذ الرمح والفرس مسـندرة(٦٨) بـي فـطار في السرج على رقبـة الحصان ، فوقع . ثم قـام وهـو على شـفير الوادي المنحـدر إلى الجـلالي ، فضرب حصـانه وسـاقه بين يديه ونزل ، وحمـدت الله سبحانه الذي مـا ناله ضرر مـن تلك الطعنة لأنه كان غازي التلي ، وكان رحمه الله ، رجلا جيدا .

ونزل علينا عسكر أنطاكية في بعض الايام منزلا كان ينزله كلمـا نزل علينا ، ونحن ركاب مقابلهم وبيننا النهر ، فلم يقصـدنا منهـم أحد ، وضربوا خيامهم ونزلوا فيها ، فرجعنا نحـن نزلنا في دورنا ،

ونحن نراهم من الحصن ، فخرج من جندنا نحو من عشرين فارسا الى بندرقنين قرية بالقرب من البلد يرعون خيلهم ، وقد تركوا رماحهم في دورهم ، فخرح من الافرنج فارسان سارا إلى قريب من أولئك الجند الذين يرعون خيلهم ، فصادفا رجلا ، وعلى الطريق يسوق بهيمة فأخذاه وبهيمته ونحن نراهم من الحصن ، وركب اولئك الجند ووقفوا ما معهم رماح ، فقال عمي : « هؤلاء عشرون لايخلصون أسيرا مع فارسين ، لو حضرهم جمعة رأيتم ما يعمل » ، هو يقول ذلك وجمعة لابس يركض إليهم ، فقال عمي « أبصروا الساعة ما يعمل » .

فلما دنا من الفارسين وهو يركض كف رأس فرسه وسار خلفهم سترة ، فلما رأى عمي توقفه عنهما ، وهو على روشن له في الحصن يراه ، دخل من الروشن مغضبا وقال : « هذا خذلان !» ، وكان توقف جمعة خوفا من جورة كانت بين يدي الفارسين لا يكون لهم فيها كمين ، فلما وصل تلك الجورة وما فيها أحد حمل على الفارسين خلص الرجل والبهيمة وطردهما إلى الخيام .

وكان ابن بيموند صاحب انطاكية يرى ما جرى ، فلما وصل الفارسان أنفذ أخذ ترسيهما جعلهما معالف الدواب ، ورمى خيمتهما وطردهما وقال : « فارس واحد من المسلمين يطرد فارسين من الافرنج ، ما أنتم رجال ، أنتم نساء » .

واما جمعة فوبخه وحرد عليه لوقوفه عنهما أول ما وصلهما ، فقال : « يامولاي ، خفت يكون لهم في جورة رابية القرافطة كمين يخرج علي ، فلما كشفتها وما رأيت فيها أحدا استخلصت الرجل والبهيمة وطردتهما حتى دخلا عسكرهما » ، فلا والله ما قبل عذره ولا رضي عنه .

والافرنج ، خذلهم الله ، ما فيهم فضيلة من فضائل الناس سوى الشجاعة ، فهم اصحاب الرأي وهم اصحاب القضاء والحكم ، وقد

حاكمتهم مرة ، على قطعان غنم اخذها صاحب بانياس من الشعراء وبيننا وبينهم صلح ، وأنا إذ ذاك بدمشق ، فقلت للملك فلك بن فلك : « هذا تعدى علينا وأخذ دوابنا ، وهو وقت ولاد الغنم ، فولدت وماتت أولادها وردها علينا بعد ان اتلفها » ، فقال الملك لستة سبعة من الفرسان : « قوموا اعملوا له حكما » ، فخرجوا من مجلسه واعتزلوا وتشاوروا حتى اتفق رأيهم كلهم على شيء واحد ، وعادوا الى مجلس الملك ، فقالوا : « قد حكمنا أن صاحب بانياس عليه غرامة ما أتلف من غنمهم » ، فأمره الملك بالغرامة ، فتوسل إلي ولعل(٦٩) علي ، وسألني حتى أخذت منه أربع مائة دينار ، وهذا الحكم بعد أن تعقده الفرسان ما يقدر الملك ولا احد من مقدمي الافرنج يغيره ولا ينقضه ، فالفارس أمر عظيم عندهم .

واقد قال لي الملك : «يافلان ، وحق ديني لقد فرحت البارحة فرحا عظيما » ، قلت : «والله يفرح الملك بماذا فرحت ؟» قال : «قالوا لي انك فارس عظيم ، وما كنت اعتقد أنك فارس » ، قلت : « يامولاي ، أنا فارس من جنسي وقومي » ، وإذا كان الفارس دقيقا طويلا ، كان أعجب لهم .

وكان نزل علينا دذكري وهو أول اصحاب انطاكية بعد بيموند ، فقاتلنا ثم اصطلحنا ، فنفذ حصانا لغلام لعمي عز الدين ، رحمه الله ، وكان فرسا جوادا ، فنفذه له عمي تحت رجل من أصحابنا كردي يقال له حسنون ، وكان من الفرسان الشجعان ، وهو شاب مقبول الصورة دقيق ، ، ليسابق بالحصان بين يدي دذكري ، فسابق به فسبق الخيل المجراة كلها ، وحضر بين يدي دذكري فصار الفرسان يكشفون سواعده ويتعجبون من دقته وشبابه ، وقد عرفوا أنه فارس شجاع فخلع عليه دذكري ، فقال له حسنون : « يامولاي ، أريدك تعطيني أمانك أنك ان ظفرت بي في القتال ، تصطنعني وتطلقني » ، فاعطاه امانه ، على ما توهم حسنون ، فانهم لايتكلمون إلا بالافرنجي ما ندري ما يقولون .

ومضى على هذا سنة أو أكثر وانقضت مدة الصلح ، وجاءنا دذكري في عسكر انطاكية ، فقاتلنا عند سور المدينة ، وكانت خيلنا لقيت أوائلهم ، فطعن فيهم رجل يقال له كامل المشطوب من أصحابنا كردي ، وهو وحسذون نظراء في الشجاعة ، وحسذون واقف مع والدي ، رحمه الله ، على حجرة له ينتظر حصانه يأتيه به غلامه من عند البيطار ويأتيه كزاغنده ، فأبطأ عليه واقلقه طعن كامل المشطوب فقال لوالدي : « يامولاي ، أمر لي بلباس خفيف » ، فقال : « هذه البغال عليها السلاح واقفة . مهما صلح لك البسة » ، وأنا إذ ذاك واقف خلف والدي ، وأنا صبي وهو أول يوم رأيت فيه القتال ، فنظر الكزاغندات في عيبها على البغال فما وافقته ، وهو يغلي يريد يتقدم يعمل كما عمل كامل المشطوب ، فتقدم على حجرته ، وهو معرى ، فاعترضه فارس منهم ، فطعن الفرس في قطاتها(٧٠) فعضت على فاس اللجام وحملت به حتى رمته في وسط موكب الافرنج ، فاخذوه أسيرا وعذبوه أنواع العذاب ، وأرادوا قلع عينه اليسرى ، فقال لهم دذكري ، لعنه الله : « اقلعوا عينه اليمين ، حتى إذا حمل الترس استترت عينه اليسار فلا يبقى يبصر شيئا » ، فقلعوا عينه اليمين كما امرهم وطلبوا منه ألف دينار وحصانا أدهم كان لوالدي من خيل خفاجة جوادا من أحسن الخيل ، فاشتراه بالحصان ، رحمه الله .

وكان خرج من شيزر في ذلك اليوم راجل كثير ، فحمل عليهم الفرنج فما زعزعوهم من مكانهم ، فحرد دذكري وقال : « أنتم فرساني ، وكل واحد منكم له ديوان مثل ديوان مائة مسلم ، وهؤلاء سرجند – يعني رجالة – ما تدرون تقلعونهم من موضعهم! » قالوا : « انما خوفنا على الخيل ، وإلا دسناهم وطعناهم » ، قال : «الخيل لي ، من قتل حصانه اخلفته عليه» ، فحملوا على الناس عدة حملات ، فقتل منهم سبعون حصانا وما قدروا يزحزحونهم من مواقفهم .

وكان بـ فامية فارس من كبار فرسانهم يقال له بدرهوا (٧١) ،

فكان ابدا يقول : « ترى ما التقى جمعة في القتال؟ » ، وجمعة يقول : « ترى ما التقى بدرهوا في القتال ؟» .

فنزل علينا عسكر انطاكية وضرب خيامه في الموضع الذي كان ينزله ، وبيننا وبينهم الماء ، ولنا موكب واقف على شرف مقابلهم ، فركب فارس من الخيام وسار حتى وقف تحت موكبنا ، والماء بينه وبينهم ، وصاح بهم : « فيكم جمعة ؟» قالوا : «لا » ، والله ما كان حاضرا فيهم ، وكان ذلك الفارس بدرهوا ، فالتفت فرأى أربعة فوارس منا من ناحيته : يحيى بن صافي الاعسر ، وسهل بن أبي غانم الكردي ، وحارثة النميري ، وفارس آخر .

فحمل عليهم فهزمهم ، ولحق واحدا منهم طعنه فشلة ماألحقه حصانه ليمكن الطعن ، وعاد الى الخيام

ودخل اولئك النفر الى البلد فافتضحوا ، واستخفهم الناس ولاموهم وأزروا بهم وقالوا :« أربعة فوارس يهزمهم فارس واحد ، كنتم افترقتم له فكان طعن واحدا منكم وكان الثلاثة قتلوه ، ولاقد افتضحتم » ، وكان أشد الناس عليهم جمعة النميري

فكأن تلك الهزيمة منحتهم قلوبا غير قلوبهم ، وشجاعة ماكانوا يطمعون فيها ، فانتخوا وقاتلوا واشتهروا في الحرب ، وصاروا من الفرسان المعدودين ، بعد تلك الهزيمة .

وأما بدرهوا فانه سار بعد ذلك من أفامية في بعض شغله يريد انطاكية . فخرج عليه الأسد من غاب في الروج في طريقه فخطفه عن بغلته ودخل به الى الغاب أكله ـ لارحمه الله .

ومن اقدام الرجل الواحد على الجمع الكثير : فمن ذلك ان اسباسلار مودود رحمه الله ، نزل بظاهر شيزر يوم الخميس تاسع ربيع الأول سنة خمس وخمس مائة وقد قصده دنكري صاحب انطاكية في جمع كثير، فخرج اليه عمي ووالدي ، رحمهما

الله ، وقالا: « الصواب ان تـرحل – وكان نازلا شرقـي البلد على النهر – وتنزل في البلد ، ويضرب العسكر خيامهم على السطوحات في المدينة ونلقى الافرنج بعد أن نحرز خيامنا وأثقالنا » فرحل ونزل كما قالا له ، واصبحا خرجا اليه ، وخرج من شـيزر خمسـة آلاف راجل معدين ففرح بهم اسباسلار وقويت نفسه .

وكان معه ، رحمه الله ، رجـال جياد ، فصـفوا مـن قبلي الماء والأفـرنج نزول شـماليه ، فمنعـوهم مـن الشرب والورود نهـارهم ، فلمـا كان الليل رحلوا راجعين الى بـلادهم والناس حولهم ، فنزلوا على تل الترمسي (٧٢) فمنعوهم مـن الورود كمـا عملوا بـالأمس ، فـرحلوا في الليل ونزلوا على تـل التلول (٧٣) والعسكر قد ضايقهم ومنعهم من المسير ، فـاحتاطوا بـالماء ومنعـوهم مـن الورود ، ورحلوا في الليل متـوجهين الى أفامية ، ففزع اليهم العسكر واحتاطوا بهم وهم سائرون ، فخـرج منهم فارس واحـد فحمـل على الناس حتـى تـوسطهم ، فقتلوا حصانه ، وأثخنوه بالجراح ، فقاتل وهو راجـل حتـى وصـل الى اصحابه .

ودخل الأفرنج أرضهم وعاد المسلمون عنهم .

ومضى اسباسلار مودود ، رحمه الله ، الى دمشق ، فجاءنا بعد اشهر كتاب دنكري صاحب انطاكية مع فارس معه غلمان وأصحاب يقول :« هذا فارس محتشم من الأفرنج ، وصل حج ويريد الرجوع الى بلاده ، وسألني أن اسيره اليكم يبصر فرسانكم ، وقـد نفـذته فاستوصوا به » ، وكان شابا حسن الصورة حسن اللباس ، الا أن فيه آثار جراح كثيرة وفي وجهه ضربة سيف قد قدت من مفـرقه الى حكمته (٧٤) ، فسألت عنه فقالوا : « هذا الذي حمل على عسـكر اسباسلار مودود ، وقتلوا حصـانه ، وقـاتل حتـى رجـع الى اصحابه »، فتعالى الله القادر على مايشاء كيف شاء لايؤخر الأجل الاحجام ولايقدمه الاقدام .

ومن ذلك ماحكاه لي العقاب الشاعر ، رجل من اجنادنا من المغرب ، قال :« خرج أبي من تدمر يريد سوق دمشق ومعه أربعة فوارس وأربعة رجاله وهم يسوقون ثمانية جمال ليبيعوها ، قال : بينا نحن نسير اذا فارس مقبل من صدر البرية ، فجاء يسير حتى صار بالقرب منا ، فقال : خلوا عن الجمال ، فصحنا عليه وشتمناه ، فاطلق حصانه علينا ، فطعن منا فارسا رماه عن فرسه وجرحه ، فطردناه فسبق ، ثم عاد الينا وقال : خلوا عن الجمال ، فصحنا عليه وشتمناه ، فحمل علينا ، فطعن راجلا منا اوثقه بالجرح وتبعناه فسبقنا ، ثم عاد وقد بطل منا رجلان فأطلق علينا ، فاستقبله رجل منا ، فطعنه صاحبنا فوقعت الطعنة في قربوس سرجه فانكسر رمح صاحبنا ، وطعنه الفارس فجرحه ، ثم حمل علينا فطعن رجلا منا فصرعه ، وقال : خلوا عن الجمال ، والا افنيتكم ، قلنا : تعال خذ نصفها ، قال : لا ، احبسوا منها اربعة اتركوها وقوفا وخذوا أربعة وامضوا ، ففعلنا وماصدقنا نخلص بما سلم معنا ، وساق هو تلك الأربعة ونحن نراه مالنا فيه حيلة ولاطمع ، وعاد بالغنيمة وهو وحده ونحن ثمانية رجال » .

ومن ذلك ان دنكري صاحب أنطاكية أغار على شيزر ، فاستاق دواب كثيرة وقتل وسبى • ونزل على قرية يقال لها زلين فيها مغار معلقة لايوصل إليها في وسط الجبل ، ما إليها من فوق منزل ولا إليها من أسفل مطلع ، إنما ينزل إليها من يحتمي فيها بالحبال ، وذلك يوم الخميس العشرين من ربيع الآخر سنة اثنتين وخمس مائة فجاء شيطان من فرسانهم الى دنكري فقال :« اعمل لي صندوقا من خشب ، وأنا أقعد فيه ، ودلوني من الجبل اليهم بسلاسل أوثقوها في الصندوق حتى لايقطعوها بالسيوف ، فاسقط » ، فعملوا له صندوقا ودلوه بالسلاسل المعلقات الى المغار ، فأخذها وأنزل كل من كان فيها الى دنكري ، وذلك أن المغار بهو مافيه مكان يستتر الناس فيه ، وذلك يرميهم بالنشاب فلا تقع نشابة الا في انسان لضيق الموضع وكثرة الناس فيه .

وكان ممن أسر في جملة من أسر في ذلك اليوم امرأة كانت من اصل جيد من العرب ، وصفت لعمي عز الدين أبي العساكر سلطان ، رحمه الله ، قبل ذلك وهي في بيت أبيها ، فأرسل عمي عجوزا من أصحابه تبصرها فعادت تصفها وجمالها وعقلها إما لرغبة بذلوها لها وأما أروها غيرها ، فخطبها عمي وتزوجها ، فلما دخلت عليه رأى غير ماوصف له منها ، ثم هي خرساء ، فوفاها مهرها وردها الى قومها ، فأسرت من بيوت قومها ذلك اليوم ، فقال عمي :« ماادع امرأة تزوجتها وانكشفت علي في أسر الافرنج » ، فاشتراها ، رحمه الله ، بخمس مائة دينار وسلمها الى أهلها .

ومن ذلك ماحدثني به المؤيد الشاعر البغدادي بالموصل سنة خمس وستين وخمس مائة قال :« أقطع الخليفة والدي ضيعة وهو يتردد اليها ، وبها جماعة من العيارين يقطعون الطريق ، والدي يصانعهم لخوفه منهم ولانتفاعه بشيء مما يأخذونه ، فنحن يوما جلوس بها أقبل غلام تركي على حصانه ومعه بغل رحل عليه خرج وجاريه راكبة فوق الخرج ، فنزل وأنزل الجارية فقال :يافتيان ، اسعدوني على حط الخرح ، فجئنا حططناه معه ، واذا به كله دنانير ذهب ومصاغ ، فجلس هو والجارية أكلا شيئا ثم قال :« اسعدوني على رفع الخرج » فرفعناه معه ، فقال لنا : كيف طريق الأنبار » ؟ فقال له والدي : الطريق هاهنا — وأشار الى الطريق — ولكن في الطريق ستون عيارا أخاف عليك منهم ، فضرط له وقال :« أنا أخاف من العيارين !»

فتركه والدي ومضى الى العيارين أخبرهم خبره ومامعه ، فخرجوا حتى عارضوه في الطريق ، فلما رآهم أخرج قوسه وترك فيه سهما واستوفاه يريد يرميهم ، فانقطع الوتر ، فهجم عليه العيارين ، فانهزم ، واخذوا البغل والجارية والخرج ، فقالت لهم الجارية : ياشباب ، بالله لاتهتكوني ، وبيعوني نفسي والبغل ايضا بعقد جوهر مع التركي

قيمته خمس مائة دينار ، وخذوا الخرج ومـافيه ، قـالوا : « قـد فعلنا » قالت ابعثوا معي بعضكم حتى أتحدث مـع التـركي وآخـذ العقد، فبعثوا معها من يحفظها حتى دنت من التركي وقالت له : قـد اشتريت نفسي والبغل بالعقد الذي في ساق مـوزك خفـك اليسـار • فادفعه لي ، قال : نعم » وانفسح عنهم وأخرج الساق (٧٥) مـوزا واذا فيه وترقوس ، فركبه على قوسه ورجـع اليهـم ، فمـا زالوا يقاتلونه وهو يقتل منهم واحدا واحـدا حتـى قتـل ثـلاثة وأربعين رجلا ، ونظر فـاذا والدي في الجمـاعة البـاقين مـن العيارين فقال :« وأنت فيهـم ، فتشـتهي أعطيك نصـيبك مـن النشاب ؟ » قال « لا » ، قال : خذ هؤلاء السبعة عشر البـاقين امض بهم الى شحنة البلد يشنقهم واولئك قـد زنهـروا ورمـوا سلاحهم ، وساق بغله بما عليه ومضى ، وقد ارسل الله تعـالى على العيارين منه مصيبة وسخطة عظيمة »

ومن ذلك ماحضرته في سنة تسـع وخمس مـائة وقـد خـرج والدي ، رحمه الله ، بـالعسكر الى اسـباسلار بـرسق بـن برسق ، رحمه الله ، وقد وصل بأمر السلطان إلى الغزاة ، وهو في خلق عظيم وجماعة من الأمراء : منهم أمير الجيوش اوزبه صاحب الموصـل ، وسـنقر دراز صـاحب الرحبـة ، والأمير كند غدي ، والحاجب الكبير بـكتمر ، وزنكي بـن بـرسق وكان مـن الأبطال ، وتميرك ، واسـماعيل البـكجي ، وغيرهـم مـن الأمراء فنزلوا على كفر طـاب وفيهـا أخـو ثيوفـل والأفـرنج ، فقـاتلوها ، ودخلوا الخـراسانية في الخندق ينقبون ، والأفرنج قد ايقنوا بالهلاك ، فـطرحوا النار في الحصـن فأحرقوا السـقوف ووقعـت على الخيل والدواب والغنم والخنازير والأسارى ، فاحترق الجميع ، وبقي الأفـرنج معلقين في اعلاه على الحيطان .

فـوقع لي أن أدخـل في النقـب أبصره ، فنزلت في الخندق ، والنشـاب والحجـار مثـل المطـر علينا ، ودخلت

الذقب ، فرأيت حكمه عظيمة : قد نقبوا من الخندق الى الباشورة وأقاموا في جوانب الذقب قائمتين وعليهما عرضية تمنع من تهدم مافوقها ، ونظموا الذقب بالأخشاب كذلك الى اساس البرج ، والذقب ضيق ، إنما هو طريق الى البرج ، فلما وصلوه وسعوا الذقب في حائط البرج وحملوه على الأخشاب ، ويخرجون نقارة الأحجار اولا فأولا ، وأرض الذقب من النقش قد صارت طينا ، فرأيته وخرجت ولم يعرفني الخراسانية ، ولو عرفوني ماتركوني اخرج الا بغرامة كثيرة لهم .

وشرعوا في تقطيع الخشب اليابس وحشوا الذقب بذلك الخشب ، وأصبحوا طرحوا فيه النار ، وقد لبسنا وزحفنا الى الخندق لنهجم الحصن اذا وقع البرج ، وعلينا من الحجارة والنشاب بلاء عظيم ، فاول ما عملت النار صار يسقط ما بين الاحجار من تكحيل الكلس ثم انشق واتسع الشق ووقع البرج ، ونحن نظن انه اذا وقع تمكنا من الدخول عليهم ، فوقع اوجه البراني وبقي الحائط الجواني كما هو ، فوقفنا الى أن حميت علينا الشمس ورجعنا الى خيامنا ، وقد نالنا من الحجارة أذى كبيرا .

فمكثنا الى الظهر ، واذا قد خرج من العسكر راجل واحد معه سيفه وترسه فمضى الى حائط البرج الذي قد وقع ، وقد صارت جوانبه كدرج السلم ، فتوقل فيه حتى صعد الى أعلاه ، فلما رآه رجال العسكر تبعه منهم قدر عشرة رجال تسرعوا بعدتهم فصعدوا واحدا وراء واحد حتى صاروا على البرج والافرنج لايشعرون بهم ، ولبسنا نحن من الخيام وزحفنا ، فكثروا على البرج قبل ان يتكامل الناس عندهم .

ففزع اليهم الافرنج فرموهم بالنشاب ، فجرحوا الذي طلع في الأول ، فنزل وتتابع الناس في الطلوع ، وصاروا مع الافرنج على بدن من حيطان البرج ، وبين يديهم برج في بابه فارس لابس ومعه

ترسه وقنطاريته يحمي من دخول البرج ، وعلى البرج جماعة من الافرنج يقاتلون الناس بالنشاب والحجارة ، فصعد رجل من الاتراك ، ونحن نراه ، ومشى والبلاء يأخذه الى أن دنا من البرج وضرب الذي عليه بقارورة نفط ، فرأيته كالشهاب على تلك الحجارة البهم وقد رموا نفوسهم الى الأرض خوفا من الحريق ، ثم عاد .

وطلع آخر يمشي على البدن ومعه سيف وترس ، فخرج عليه من البرج الذي في بابه الفارس رجل منهم عليه زرديتان وبيده قنطارية وما معه ترس ، فلقيه التركي وفي يده سيفه ، فطعنه الافرنجي ، فدفع سنان القنطارية عنه الترس ومشى الى الافرنجي وقد دخل ، على الرمح ، إليه فولى عنه وأدار ظهره وأمال ظهره كالراكع خوفا على رأسه ، فضربه التركي ضربات ما عملت فيه شيئا ، ومشى حتى دخل البرج وقوي عليهم الناس وتكاثروا فسلموا الحصن ونزل الأسارى الى خيام برسق بن برسق .

فشاهدت ذلك الذي خرج بقنطاريته على التركي وقد جمعوهم في سرادق برسق بن برسق ليقطعوا على نفوسهم ثمنا يخلصون به ، فوقف وكان سرجنديا وقال:« كم تأخذون مني؟ » قالوا :« نريد ستمائة دينار » ، فضرط لهم وقال :« أنا سرجندي ، ديواني كل شهر ديناران من اين لي ستمائة دينار ؟» وعاد جلس بين أصحابه ، وكان خلقه عظيمة ، فقال الأمير السيد الشريف وكان من كبار الأمراء ، لوالدي رحمه الله :« ياأخي ترى هؤلاء القوم ؟ نعوذ بالله منهم ».

فقضى الله سبحانه ان العسكر رحل عن كفر طاب الى دانيث وصبحهم عسكر أنطاكية يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من ربيع الآخر وكان تسليم كفر طاب يوم الجمعة ثالث عشر ربيع الآخر فقتل الأمير السيد ، رحمه الله ، وخلق كثير من المسلمين .

وعاد الوالد ، رحمه الله ، وكنت فارقته من كفر طاب وقد كسر

العسكر ، ونحن في كفر طاب نحرزها نريد نعمرها ، وكان اسباسلار سلمها الينا ، ونحن نخرج الأسارى كل اثنين في قيد من أهل شيزر وقد احترق نصف ذا وقد بقيت فخذه ، وذا قد مات في النار ، فرأيت منهم عبرة عظيمة ، فتركناها وعدنا الى شيزر مع الوالد ، رحمه الله ، وقد أخذ كل ماكان معه من الخيام والجمال والبغال والبرك والتجمل وتفرق العسكر .

وكان ماجرى عليهم بمكيدة من لؤلؤ الخادم صاحب حلب ذلك الوقت ، قرر مع صاحب انطاكية ان يحتال عليهم ويفرقهم ويخرج ذلك من أنطاكية بعسكره يكسرهم ، فأرسل الى اسباسلار برسق رحمه الله ، يقول : « تنفذ لي بعض الأمراء ومعه جماعة من العسكر أسلم اليه حلب ، فاني أخاف من أهل البلد أن لايطاوعوني على التسليم ، فأريد أن يكون مع الأمير جماعة أتقوى بهم على الحلبيين »، فنفذ اليه أمير الجيوش اوزبة ومعه ثلاثة آلاف فارس ، وصبحهم روجار لعنه الله ، كسرهم لنفاذ المشيئة .

وعاد الأفرنج لعنهم الله ، الى كفر طاب عمروها وسكنوها .

وقدر الله تعالى أن خلص الأسرى من الفرنج الذين أخذوا من كفر طاب ، فان الأمراء اقتسموهم وأبقوهم معهم ليشتروا أنفسهم الا ما كان من أمير الجيوش فانه تقدم الذين طلعوا في سهمه ضرب رقاب جميعهم قبل أن يتوجه الى حلب ، وافترق العسكر - من سلم منهم من دانيث - وتوجهوا الى بلادهم ، فذلك الرجل الذي طلع وحده الى برج كفر طاب كان سبب أخذها .

ومن ذلك : كان في خدمتي رجل يقال له نمير العلاروزري ، راجل شجاع أيد ، نهض هو وقوم من رجال شيزر الى الروج الى الأفرنج ، فعثروا في البلد على قافلة من الأفرنج في مغارة ، فقال بعضهم لبعض :« من يدخل عليهم ؟» قال نمير :« أنا » فدفع اليهم سيفه وترسه وجذب سكينه ودخل عليهم ، فاستقبله رجل منهم ، فضربه بالسكين رماه وبرك عليه يقتله ، وخلفه افرنجي معه

سيف فضربه ، وعلى ظهر نمير مزود فيه خبز ، فهو يرد عنه ، فلما قتل الرجل الذي تحته التفت الى صاحب السيف يريده ، فضربه بالسيف في جانب وجهه فقطع حاجبه وجفن عينه وخده وأنفه وشفته العليا ، فتدلى جانب وجهه على صدره ، فخرج من المغارة الى اصحابه فشدوا جرحه ورجعوا به في ليلة باردة ماطرة ، فوصل شيزر وهو على تلك الحالة ، فخيط وجهه وداوى جراحه فبرأ وعاد الى ماكان عليه ، الا أن عينه تلفت ، وهو أحد الثلاثة الذين رماهم الاسماعيلية من حصن شيزر وقد تقدم ذكرهم

وحدثني الرئيس سهري وكان في خدمة الأمير شمس الخواص آلتونتاش صاحب رفنية ، وكان بينه وبين علم الدين علي كرد صاحب حماة عداوة وخلاف ، قال :« أمرني شمس الخواص أن أخرج أقدر بلد رفنية وأبصر زرعه ، فخرجت ومعي قوم من الجند قدرت البلد ، ونزلت ليلة عند المساء بقرية من قرى رفنية لها برج صعدنا الى سطحه تعشينا وجلسنا وخيلنا على باب البرج ، فما شعرنا الا برجل قد اشرف علينا من بين شراريف البرج فصاح علينا ورمى نفسه الينا وفي يده سكينة فانهزمنا ونزلنا في السلم الأول وهو خلفنا ، ونزلنا في السلم الثاني ، وهو خلفنا ، حتى وصلنا الباب ، فخرجنا وأذا قد رتب لنا رجالا على الباب فقبضونا جميعا وأوثقونا رباطا ودخلوا بنا الى حماة الى علي كرد ، فما فعل بنا ذلك كله رجل واحد »

ومثل ذلك جرى في حصن الخريبة ، كانت لصلاح الدين محمد بن أيوب اليغسياني ، رحمه الله ، وفيها الحاجب عيسى واليها ، وهو حصن منيع على صخرة مرتفعة من جميع جوانبه يطلع إليه بسلم خشب ، ثم يرفع السلم فلا يبقى اليها طريق ، وليس مع الوالي في الحصن سوى ابنه وغلامه وبواب الحصن وله صاحب يقال له ابن المرجي يطلع اليه في الوقت بعد الوقت في أشغاله ، فتحدث مع الاسماعيلية وقرر له معهم قرارا أرضاه من مال واقطاع ويسلم اليهم حصن الخريبة ، ثم جاء الى الحصن فاستأذن وطلع ، فبدأ

بالدواب قتله، ولقيه الغـلام فقتله ، ودخـل على الوالي قتله ، وعاد الى ابن الوالي قتله ، وسلمه الى الاسماعيلية وقاموا له بما كانوا قرروه له .

والرجال اذا قووا نفوسهم على شيء فعلوه .

ومن ذلك تفاضل الرجـال في هممهـم ونخـواتهم ، وكان الوالد ، رحمه الله يقول لي:« كل جيد من سائر الأجناس ، مـن الرديء من جنسه مايكون بقيمته ، مثل حصان جيد يسوى مـائة دينار ، خمس حصـن رديئة تسـوى مـائة دينار ، وكذلك الجمال ، وكذلك أنواع الملبوس ، الا ابن آدم فان ألف رجـل أردياء لايساوون رجلا واحدا جيدا »، وصدق رحمه الله .

كنت قد نفذت مملوكا لي في شغل مهـم الى دمشـق ، واتفـق أن أتابك زنكي رحمه الله ، أخـذ حمـاة ونزل على حمص ، فـاستدت الطريق على صاحبي ، فتـوجه الى بعلبـك ومنهـا الى طـرابلس واكترى بغل رجل نصراني يقـال له يونان فحمله الى حيث اكتـراه ودعه ، ورجع وخرج صاحبي في قافلة يريد يتوصل الى شيزر مـن حصون الجبل ، فلقيهـم انسـان فقـال لأربـاب الدواب :« لاتمضوا ، فان في طريقكم في الموضع الفلاني عقد حرامية في ستين سبعين رجلا يأخذونكم » قال : « فوقفنا لاندري مـانعمل ماتطيب نفوسنا بالرجوع ولانجسر على المسير من الخوف ، فنحـن كذلك اذا الريس يونان قد أقبل مسرعا ، فقلنا ما لك ياريس ؟ قـال سمعت ان في طريقكم حرامية جئت لأسيركم ،سيروا . فسرنا معـه الى ذلك الموضع ، واذا قد نزل من الجبل خلق عظيم مـن الحـرامية يريدون أخذنا ، فلقيهـم يونان وقـال :« يافتيان ، مـوضعكم انا يونان ، وهؤلاء في خفـارتي ، والله مـافيكم مـن يتقـرب منهم ؟ » فـردهم والله جميعهـم عنا ومـاأكلوا مـن عندنا رغيف خبز ، ومشى معنا يونان حتى أمنا ثم ودعنا وانصرف »

وحكى لي صاحبي هذا عن ابن صاحب الطور ، وكان طلع معي من مصر في سنة ثمان وثلاثين وخمس مائة قال حدثني ابن والي الطور – وهي ولاية لمصر بعيدة كان الحافظ لدين الله ، رحمه الله ، اذا اراد ابعاد بعض الأمراء ولاه الطور ، وهو قريب من بلاد الافرنج – قال :« وليها والدي وخرجت أنا معه الى الولاية وكنت مغرى بالصيد ، فخرجت أتصيد ، فوقع بي قوم من الافرنج فأخذوني ومضوا بي الى بيت جبريل فحبسوني فيه في جب وحدي ، وقطع علي صاحب بيت جبريل ألفي دينار ، فبقيت في الجب سنة لايسأل عني أحد ، فأنا في بعض الأيام في الجب واذا قد رفع عنه الغطاء ودلي الي رجل بدوي ، فقلت :« من أين أخذوك ؟» قال :« من الطريق » فأقام عندي يويمات وقطعوا عليه خمسين دينارا ، فقال لي يوما من الأيام :« تريد تعلم ان مايخلصك من هذا الجب الا أنا ؟ فخلصني حتى اخلصك » فقلت في نفسي « رجل قد وقع في شدة يريد لروحه الخلاص » فما جاوبته ، ثم بعد ايام اعاد علي ذلك القول : فقلت في نفسي « والله لأسعين في خلاصه لعل الله يخلصني بثوابه » فصحت بالسجان فقلت له :« قل للصاحب اشتهي أتحدث معك » فعاد واطلعني من الجب وأحضرني عند الصاحب ، فقلت له : لي في حبسك سنة ماسأل أحد عني ولايدري أنا حي أو ميت ، وقد حبست عندي هذا البدوي وقطعت عليه خمسين دينارا اجعلها زيادة على قطيعتي ودعني اسيرة الى ابي حتى يفكني قال :« افعل »، فرجعت عرفت البدوي وخرج ودعني ومضى .

فانتظرت مايكون منه شهرين فما رأيت اثرا له ولا سمعت له خبرا ، فيئست منه ، فما راعني ليلة من الليالي الا وهو قد خرج علي من نقب في جانب الجب وقال :« قم والله لي خمسة (٧٦) اشهر أحفر هذا السرب من قرية خربة حتى وصلت اليك » فقمت معه وخرجنا من ذلك السرب وكسر قيدي وأوصلني الى بيتي ، فما ادري مم اعجب من حسن وفائه او من هدايته حتى طلع نقبه من جانب الجب » .

واذا قضى الله سبحانه بالفرج فما اسهل اسبابه .

كنت اتردد الى ملك الافــرنج في الصــلح بينه وبين جمــال الدين محمد بن تاج الملوك رحمه الله ، ليد كانت للوالد ، رحمه الله ، على بغدوين الملك والد الملكة امراة الملك فلك بــن فلك ، فــكان الافــرنج يسوقون أساراهم الي لأشتريهم ، فكنت أشتري منهم من سهل الله تعالى خلاصه ، فخرج شيطان منهم يقال له كليام جينا في مــوكب له يغزي فأخذ مركبا فيه حجاج من المغاربة نحو اربع مائة نفس رجال ونساء ، فكان يجيء أقوام مع مالكهم فاشتري منهم من قدرت على شراه ، وفيهم رجل شاب يسلم ويقعد لايتكلم ، فسألت عنه فقيل لي هــو رجل زاهــد صــاحبه دبــاغ ، فقلت له : « بــكم تبيعني هذا ؟ » قال « وحق ديني مااْبيعه الا هــو وهذا الشــيخ جملة كمــا اشتريتهما بثلاثة واربعين دينارا » فاشتريتهما واشتريت لي منهــم نفرا ، واشتريت للأمير معين الدين رحمه الله ، منهم نفــرا بمــائة وعشرين دينارا، ووزنت ماكان معي وضمنت علي بالباقي .

وجئت الى دمشق فقلت للأمير معين الدين ، رحمــه الله ، « قــد اشتريت لك أسارى اختصك بهم ، وماكان معي ثمنهم ، والآن قــد وصلت الى بيتــــي ، إن أردتهــــم وزنت ثمنهــــم ، والا وزنتـــه انا »؟ قــال :« لابــل أنا أزن والله ثمنهــم ، وأنا أرغب الناس في ثوابهم » ، وكان رحمه الله ، اسرع الناس الى فعــل خير وكســب مثوبة، ووزن ثمنهم ، وعدت بعد أيام إلى عكا .

وقد بقــــي مــــن الاسرى عند كليام جينا ثمــانية وثـــلاثون اسيرا ، وفيهــم امــراة لبعض الذين خلصــــهم الله تعــالى على يدي ، فاشتريتها منه ، ومــاوزنت ثمنهــا ، فــركبت الى داره لعنه الله ، وقلت :« تبيعني منهم عشرة ؟» قال :« وحق ديني مااْبيع الا الجميع »، قلت :« مــــامعي ثمـــن الجميع ، وأنا اشـــــــتري بعضهم ، والنوبة الاخرى اشتري الباقي » قــال: « مــاأبيعك الا الجميع » فانصرفت وقدر الله ســبحانه أنهــم هــربوا في تلك الليلة

جميعهم ، وسكان ضياع عكا كلهم من المسلمين اذا وصل اليهم الأسير أخفوه وأوصلوه الى بلاد الاسلام .

وتطلبهم ذاك الملعون فما ظفر منهم بأحد ، واحسن الله سبحانه خلاصهم ، واصبح يطالبني بثمن المراة التي كنت اشتريتها وماوزنت ثمنها وقد هربت في من هرب ، فقلت :« سلمها الي وخذ ثمنها » قال :« ثمنها لي من أمس قبل أن تهرب » وألزمني بوزن ثمنها ، فوزنته وهان ذلك علي لسرتي بخلاص أولئك المساكين .

ومن عجائب السلامة اذا جرى بها القدر وسبقت بها المشيئة ان الأمير فخر الدين قرا أرسلان بن سقمان بن أرتق ، رحمه الله ، عمل على مدينة آمد عدة مرار ، وأنا في خدمته ، ولايبلغ منها مقصودة ، وكان آخر ماعمل عليها أن أميرا من الأكراد كان مديونا بآمد راسله ومعه جماعة من أصحابه وقرر الأمر أن تصله العساكر في ليلة تواعدوا اليها ويطلعهم بالحبال ويملك آمد ، فعول فخر الدين في ذلك المهم على خادم له افرنجي يقال له ياروق ، والعسكر كله يمقته ويكرهه لسو أخلاقه ، فركب في بعض العسكر وتقدم ، وركب باقي الأمراء فتبعوه ، وتوانى هو في السير فسبقه الأمراء إلى آمد ، فأشرف عليهم ذلك الأمير الكردي وأصحابه من برج ودلوا اليهم الحبال وقالوا :« اطلعوا » - ماطلع منهم أحد ، فنزلوا كسروا أقفال باب المدينة وقالوا « ادخلوا » مادخلوا ، وكل ذلك لاعتماد فخر الدين على صبي جاهل في هذا المهم العظيم دون الأمراء الكبار .

وعلم بذلك الأمير كمال الدين علي بن نيسان والبلدية والجند ، ففزعوا اليهم ، فقتلوا بعضهم ، ورمى بعضهم نفسه ، وقبضوا بعضهم ، ومد بعض الذين رموا نفوسهم ، وهو نازل في الهواء ، يده كأنه يريد شيئا يتمسك به ، فوقع في يده حبل من تلك الحبال التي دلوا أول الليل وماطلعوا فيها فتعلق به ونجا

دون أصحابه ، وإلا أن كفيه انسلختا من الحبل ، هذا وأنا حاضر .

وأصبح صاحب آمد يتبع الذين عملوا عليه فقتلهم ، وسلم ذلك من دونهم ، فسبحان من إذا قدر السلامة انقذ الانسان من لهاة الأسد فذلك حق لا مثل .

كان في حصن الجسر (٧٧) رجل من أصحابنا من بني كنانة يعرف بابن الأحمر ركب فرسه من حصن الجسر يريد كفر طاب لشغل له ، فاجتاز بكفر نبوذا (٧٨) وقافلة عابرة على الطريق ، فرأوا الأسد ومع ابن الأحمر حربة تلمع ، فصاح اليه أهل القافلة :« ياصاحب الخشت (٧٩) البراق دونك الاسد » فحمله الحياء من صياحهم ان حمل على الأسد فحاصت به الفرس فوقع ، وجاء فبرك عليه ، وكان لما يريد الله من سلامته ، الأسد شبعان ، فالتقم وجهه وجبهته ، فجرح وجهه وصار يلحس الدم ، وهو بارك عليه لايؤذيه ، قال :« ففتحت عيني فأبصرت لهاة الأسد ، ثم جذبت نفسي من تحته ، ورفعت فخذه عني ، وخرجت تعلقت بشجرة بالقرب منه ، وصعدت فيها ، فرآني وجاء خلفي ، فسبقت وطلعت في الشجرة ، فنام الأسد تحت الشجرة وعلاني من الذر شيء عظيم على تلك الجراح - والذر يطلب جريح الأسد كما يطلب الفأر جريح النمر - قال :« فرأيت الأسد قد قعد وانصب آذانه كأنه يتسمع ، ثم قام يهرول فاذا قافلة قد أقبلت على الطريق ، كأنه سمع حسها » فعرفوه وحملوه الى بيته ، وكان اثر انياب السبع في جبهته وخديه كوسم النار فسبحان المسلم

قلت : تفاوضنا يوما في ذكر القتال ومؤدبي الشيخ العالم أبو عبد الله محمد بن يوسف المعروف بابن المنيرة (٨٠) رحمه الله ، يسمع فقلت له :« ياأستاذ ، لو ركبت حصانا ولبست كزاغندا وخونة وتقلدت سيفا وحملت رمحا وترسا ووقفت عند مشهد العاصي موضع ضيق كان الافرنج ، لعنهم الله ، يجتازون به - ماكان

يجوزك أحد منهم » ، قال :« بلى والله كلهم » ، قلت :« كانوا يهابونك ، ولايعرفونك » قال :« سبحان الله ، فأنا ماأعرف نفسي !» ، ثم قال لي « يافلان ، مايقاتل عاقل » قلت: « ياأستاذ تحكم على فلان وفلان وعددت له رجالا من أصحابنا من شجعان الفرسان أنهم مجانين !» قال:« ماهذا قصدت ، انما قصدي ان العقل لايحضر وقت القتال ، ولو حضر ماكان الانسان يلقى بوجهه السيوف وبصدره الرماح والسهام ، ماهذا شيء يقضي به العقل ».

وكان رحمه الله ، بالعلم أخبر مما هو بالحرب ، فان العقل هو الذي يحمل على الاقدام على السيوف والرماح والسهام أنفة من موقف الجبان وسوء الأحدوثة ، ودليل ذلك ان الشجاع يلحقه الزمع والرعدة وتغير اللون قبل دخوله في الحرب لما يفكر فيه وتحدث به نفسه مما يريد يعمله ويباشره من الخطر ، والنفس ترتاع لذلك وتكرهه ، فاذا دخل في الحرب وخاض غمارها ذهب عنه ذلك الزمع والرعدة وتغير اللون ، وكل أمر لايحضره العقل يظهر فيه الخطأ والزلل .

ومن ذلك ان الفرنج نزلوا مرة على حماة في أزوارها و فيها زرع مخصب ، فضربوا خيامهم في ذلك الزرع ، وخرج من شيزر جماعة من الحرامية يديرون بعسكر الافرنج يسرقون منه ، فرأوا الخيام في الزرع ، فأصبح بعضهم حضر صاحب حماة وقال :« الليلة احرق عسكر الافرنج كله » قال :« ان فعلت خلعت عليك » فلما امسى خرج ومعه نفر على رأيه طرحوا النار غربي الخيام في الزرع لتسوقها الرياح الى خيامهم ، فصار الليل بضوء النار كالنهار ، فرآهم الافرنج فقصدوهم فقتلوا أكثرهم ، ومانجا منهم الا من رمى نفسه بالماء وسبح الى الجنب الآخر ، فهذه آثار الجهل وعواقبه .

ورأيت مثل ذلك ، وان لم يكن في الحرب ، وقد عسكر الافرنج على بانياس في جمع كثير ، ومعه البطرك وقد ضرب خيمة كبيرة جعلها كنيسة يصلون فيها يتولى خدمتها شيخ شماس منهم ، وقد

فرش ارضها بالحلفاء والحشيش ، فكثرت البراغيث فطرح فيه النار ، وقد يبس ، فارتفعت ألسنتها وعلقت بالخيمة فتركتها رمادا ، فهذا لم يحضره العقل

وضده اننا ركبنا في بعض الأيام من شيزر الى الصيد وعمي ، رحمه الله ، معنا وجماعة من العسكر ، فخرج علينا السبع من قصباء دخلناها لصيد الدراج ، فحمل عليه رجل من الجند كردي يقال له زهر الدولة بختيار القبرصي سمي بذلك اللطف خلقته ، وكان رحمه الله ، من فرسان المسلمين ، فاستقبله السبع فحاص به الحصان ، وجاءه السبع وهو ماقي ، فرفع رجله ، فتلقمها السبع ، وبادرناه فقتلنا السبع واستخلصناه وهو سالم ، فقلنا له :« يازهر الدولة ، لم رفعت رجلك الى فم السبع ؟» فقال:« جسمي كما ترونه ضعيف نحيف ، وعلي ثوب وغلالة ، وما في أكسى من رجلي ، فيها الرانات والخف والساق موزا ، فقلت :« اشغله بها عن اضلاعي أو يدي أو راسي الى أن يفرج الله تعالى » فهذا حضره العقل في موضع تزول فيه العقول ، وأولئك ماحضرهم العقل ، فالانسان أحوج الى العقل من كل ماسواه ، وهو محمود عند العاقل والجاهل .

ومن ذلك ان روجار صاحب انطاكية كتب الى عمي يقول :« قد نفذت فارسا من فرساني في شغل مهم الى القدس ، أسأل أن تنفذ خيلك تأخذه من أفامية ويوصلونه الى رفنية »، فركب وأرسل اليه من أحضره ، فلما لقيه قال :« قد نفذني صاحبي في شغل وسر له ، لكني رأيتك رجلا عاقلا ، فأنا أحدثك به » فقال له عمي :« من اين عرفت أني عاقل ومارأيتني قبل الساعة ؟ » قال « لأني رأيت البلاد التي مشيت فيها خربة وبلدك عامر ،فعرفت أنك ماعمرته الا بعقلك وسياستك » ، وحدثه ماجاء فيه .

وحدثني الأمير فضل بن أبي الهيجاء صاحب إربل قال :« حدثني أبو الهيجاء وقال :« بعثني السلطان ملك شاه لما وصل الى الشام

الى الامير ابن مروان صاحب ديار بكر يقـول :« أريد ثـلاثين ألف دينار ، فاجتمعت بـه وأعدت عليه الرسـالة ، فقـال :« تسـتريح ونتحدث واصبح أمر أن يدخلوني الحمام ، ونفذ آلة الحمام جميعها فضة ونفذ لي بدلة ثياب ، وقالوا لفراشي : كل آلة الحمام لكم ، فلما خرجت لبست ثيابي ورددت جميع الحوائج ، فتركني أياما ثم أمـر لي بالحمام ومااذكر رد الحوائج ، وحملوا معى آلة الحمام أفضـل من الآلة « الأولة » وبدلة ثياب افضل من البدلة «الأولة » وقـال الفراش لفراشي كما قال أولا ، فلما خرجت لبسـت ثيابـي ورددت الحوائج والثياب ، فتركني ثـلاثة أربعـة أيام ثـم عاد أدخلني الى الحمام وحملوا معي آلات فضة أفضل مـن« الأولة» ، وبـدلة ثياب افضل من «الأولة »، فلما خرجت لبست ثيابي ورددت الجميع ، فلما حضرت عند الأمير قـال لي :« ياولدي»، نفـذت اليك ثيابـا مالبستها ، وآلة الحمـام مـاقبلتها ، ورددتهـا ، اي شيء سـبب هذا ؟ قلت : يامولاي ، جـئت بـرسالة السـلطان في شـغل ماانقضى ، أقبل ماتفضلت به وأرجع ومـاانقضى شـغل السـلطان فكأني ماجئت الا في حاجتي ، قال : ياولدي مارأيت عمارة بـلادي وكثرة خيرها وبساتينها وكثرة فلاحيها وعمارة ضـياعها أتـراني كنت أتلف هذا كله من أجل ثلاثين ألف دينار ؟ والله إن الذهب قـد كيسته من يوم وصولك ، وانما انتظرت أن يتجاوز السلطان بـلادي وتلحقه بالمال خوفا من أن استقبله بالذي طلب ، فيطلب مني اذا دنا من بلادي اضعافه ، فلا تشغل قلبك ، فشغلك قد انقضى ، ثم نفـذ لي الثلاث بدلات ، التي كان نفذها لي ورددتها ، مع جميع حـوائج الحمام التي نفذها لي في الثلاث دخـلات ، فقبلتهـا ، ولما تجـاوز السلطان ديار بكر ، أعطاني المال فحملته ولحقت به السلطان » .

وفي حسن السياسة ربح كثير من عمـارة البـلاد ، فمـن ذلك ان أتابك زنكي ، رحمه الله ، خطب بنت صاحب خلاط وقد مات أبوها وأمها مدبرة البلد ، ونفذ حسام الدولة بن دلماج خطبها لابنه ، وهو صاحب بدليس فسار أتـابك بعسـكر حسـن الى خـلاط على غير الطريق المسلوك لأجل درب بدليس فسلك فيها الجبال ، فـكنا ننزل

بغير خيام ، وكل واحد في موضعه من الطريق حتى وصلنا خلاط فخيم أتابك عليها ودخلنا قلعتها وكتبنا المهر .

فلما انقضى الشغل أمر أتابك أن يأخذ صلاح الدين معظم العسكر ويسري الى بدليس يقاتلها فركبنا أول الليل وسرنا وأصبحنا على بدليس ، فخرج الينا حسام الدولة صاحبها ، فلقينا على فسحة من البلد ، وأنزل صلاح الدين في الميدان ، وحمل اليه الضيافة الحسنة ، وخدمه وشرب عنده في الميدان وقال :« يامولاي ، اي شيء ترسم ؟ فقد تعنيت وتعبت في مجيئك » قال :« اتابك احذقه خطبتك البنت التي كان خطبها ، وأنت بذلت لهم عشرة آلاف دينار نريدها منك » قال :« السمع والطاعة » فعجل له بعض المال واستمهله بباقيه اياما عينها ، ورجعنا وبلده بحسن سياسته عامر مادخل عليه خلل .

وهذا قريب مما جرى لنجم الدولة مالك بن سالم رحمه الله (٨١) وذلك ان جوسلين أغار على الرقة والقلعة فأخذ كل ماعليها وسبى وساق غنائم كثيرة ، ونزل مقابل القلعة وبينهم الفرات ، فركب نجم الدولة مالك في زورق ومعه ثلاثة أربعة من غلمانه وعبر الفرات الى جوسلين وبينهما معرفة قديمة ، ولمالك عليه جميل ، وظن جوسلين أن في الزورق رسولا من مالك ، فجاءه واحد من الافرنج وقال :« هذا مالك في الزورق »، قال :« ماهو صحيح » ، فأتاه آخر قال :« نزل مالك من الزورق وهو جاءني يمشي »، فقام جوسلين والتقاه وأكرمه ورد عليه جميع ماكان أخذه من الغنائم والسبي ، ولولا سياسة نجم الدولة كان خرب بلده .

اذا انقضت المدة لم تنفع الشجاعة ولا الشدة .

شاهدت يوما وقد زحف الينا عسكر الافرنج يقاتلنا ، ومضى بعضهم مع طغدكين أتابك الى حصن الجسر يقاتله ، وكان أتابك

اجتمع هو وايلغازي بن أرتق و الافرنج في افامية لمحاربة عساكر السلطان وكان وصل بها الى الشام اسباسلار برسق بن برسق ، وقد نزل حماة يوم الأحد تاسع عشر محرم سنة تسع وخمس مائة فأما نحن فقاتلونا بالقرب من سور المدينة ، فاستظهرنا عليهم ودفعناهم وانبسطنا معهم ، فشاهدت رجلا من أصحابنا يقال له محمد ابن سرايا وهو شاب شديد أيد ، قد حمل عليه فارس من الافرنج لعنه الله ، فطعنه في فخذه فنفذ القنطارية فيها ، فمسكها محمد وهي في فخذه ، وجعل الافرنجي يجذبها ليأخذها ومحمد يجذبها ليأخذها فترجع في فخذه حتى قورت فخذه ، واستلب القنطارية بعد أن أتلف فخذه ، ومات بعد يومين ، رحمه الله .

ورأيت في ذلك اليوم ، وأنا في جانب الناس في القتال ، فارسا قد حمل على فارس منا طعن حصانه قتله ، وصاحبنا راجل في الأرض ولاأدري من هو لبعد مابيننا ، فدفعت حصاني اليه خوفا عليه من الأفرنجي الذي طعنه ، وقد بقيت القنطارية في الحصان وهو ميت قد خرجت مصارينه ، والافرنجي قد اعتزل عنه غير بعيد وجذب سيفه ووقف مستقبله ، فلما وصلته وجدته ابن عمي ناصر الدولة كامل بن مقلد ، رحمه الله ، فوقفت عليه وأخليت له ركابي وقلت :« اركب » فلما ركب رددت رأس حصاني الى المغرب ، والمدينة من شرقينا ، قال لي :« الى أين تروح ؟» قلت :« الى هذا الذي طعن حصانك ، فهو فرصة » فمد يده وقبض على عنان الحصان وقال :« ماتطاعن وعلى حصانك لابسان ، اذا اوصلتني ارجع طاعنه » فمضيت أوصلته وعدت الى ذلك الكلب ، وقد دخل في اصحابه.

وشاهدت من لطف الله تعالى وحسن دفاعه أن الافرنج ، لعنهم الله ، نزلوا علينا بالفارس والراجل ، وبيننا وبينهم العاصي وهو زائد زيادة عظيمة لايمكنهم ان يجوزوا الينا ، و لانقدر نحن نجوز اليهم ، فنزلوا على الجبل بخيامهم ، ونزل منهم قوم الى البساتين

وهي من جانبهم ، هملوا خيلهم في القصيل وناموا ، فتجرد شـباب من رحالة شيزر وخلعوا ثيابهم وأخذوا سيوفهم وسبحوا الى اولئك النيام ، فقتلوا بعضهم ، وتكاثروا على اصحابنا ، فرموا نفوسهم الى الماء وجازوا ، وعسكرالفرنج قـد ركب مـن الجبـل مثـل السيل ، ومن جانبهم مسجد يعرف بمسجد ابي المجد بن سـمية فيه رجل يقال له حسن الزاهد ، وهوواقف على سطح يذوب في المسجد يصلي وعليه ثياب سود صوف ـ ونحن نراه ومالنا اليه سبيل ، وقد جاء الافرنج فنزلوا علي بـاب المسـجد وصـعدوا اليه ونحـن نقول: لاحول ولا قوة الا بالله السـاعة يقتلونه ، فـلا والله مـا قطع صلاته ولازال من مـكانه ، وعاد الأفـرنج نزلوا وركبـوا خيلهـم وانصرفوا وهـو واقف مكانه ، ولانشك ان الله سبحانه اعماهم عنه وستره عن ابصارهم ، فسبحان القادر الرحيم .

ومن الطاف الله تعالى ان ملك الروم لما نزل على شـيزر في سـنة اثنين وثلاثين وخمس مائة خرج من شيزر جماعة من الرجالة للقتال فاقتطعهم الروم فقتلوا واسروا بعضا في جملة من أسروا زاهد مـن بني كردوس من الصالحية ، من مولدي محمـود بـن صـالح(٨٢) صـاحب حلب ، فلمـا عاد الروم كان معهـم مأسورا ، فوصل القسطنطينية ، فهو في بعض الأيام فيهـا اذ لقيه انسان فقال: «أنت ابن كردوس؟» قال «نعم» قال «سر معـي أوقفني على صاحبك» فسار معه حتى اراه صاحبه ، فقاوله على ثمنه حتى تقرر بينه وبين الرومي مبلغ أرضاه فوزن له الثمـن وأعطـى ابـن كردوس نفقـة وقـال: «تبلغ بهـا الى اهلك ، وامض في دعة الله تعالى ، فخـرج مـن القسـطنطينة وتـوصل الى ان عاد الى شيزر ، وذلك من فرج الله تعالى وخفي لطفه ، ولا يدري مـن الذي شراه وأطلقه .

وقد جرى لي ما يشبه ذلك لما خرج علينا الافرنج في طـريق مصر وقتلوا عباس بن أبي الفتوح وابنه نصرا الكبير ، انهزمنا نحن الى جبل قريب منا ، فصعد الناس فيه رجالة يمشون يجرون خيلهم وأنا

على اكديش ولا استطيع المشي ، فصعدت وأنا راكب وسفوح ذلك الجبل كلها دقارة وحصى كلما وطئة الفرس انهر تحت قوائمه ، فضربت الاكديش ليطلع فما استطاع ، ونزل والحصى والدقارة تنزل به ، فترجلت عنه وأقمته ووقفت لا أقدر على المشي ، فنزل الي رجل من الجبل فمسك بيدي وبرذوني في يدي الأخرى حتى اطلعني ، ولا ، والله ، ما أدري من هو ولا عدت رأيته .

وقد كان في ذلك الوقت الصعب يمتن فيه بيسير الاحسان ، ويطلب المكافأة عنه ، ولقد شربت من بعض الأتراك شربة ماء اعطيته عنها دينارين ، وما زال بعد وصولنا دمشق يقتضيني حوائجه ويتوصل بي الى اغراضه لأجل تلك الشربة التي سقانيها ، وما كان ذلك الذي اعانني الا ملكا رحمني الله تعالى فأغاثني به .

ومن لطف الله تعالى ما حدثني به عبد الله المشرف قال «حبست بحيزان (٨٣) قيدت وضيق علي ، فأنا في الحبس والموكلون على بابه فرأيت النبي ، صلى الله عليه وسلم ، في النوم فقال: «اقلع القيد واخرج» فانتبهت جذبت القيد ، فخرج من رجلي ، وقمت الى الباب أريد افتحه ، فوجدته مفتوحا ، فتخطيت الرجال الموكلين الى منفس في السور ما ظننت يدي تخرج منه ، فخرجت منه ، ووقعت على مزبلة ، فبقي فيها آثار وقوعي وآثار رجلي ، ونزلت في واد حول السور ودخلت مغارة في سفح الجبل من ذلك الجانب وأنا اقول في نفسي: الساعة يخرجون يرون أثري ويأخذوني ، فأرسل الله سبحانه ثلجا غطى ذلك الأثر ، وخرجوا يطوفون علي ، وأنا أراهم نهارهم ذلك ، فلما امسيت وأمنت الطلب خرجت من تلك المغارة وسرت الى مأمني » ، كان هذا الرجل مشرفا على مطبخ صلاح الدين محمد بن أيوب اليغسانياني رحمه الله .

ومن الناس من يقاتل كما كان الصحابة ، رضوان الله عليهم ، يقاتلون الجنة لا لرغبة ولا لسمعة

ومن ذلك أن ملك الالمان الافرنجي ، لعنة الله ، لما وصل الشام اجتمع اليه كل من بالشام من الافرنج ، وقصد دمشق ، فخرج عسكر دمشق واهلها لقتالهم وفي جملتهم الفقيه الفندلاوي والشيخ الزاهد عبد الرحمن الحلحولي ، رحمهما الله ، وكانا من خيار المسلمين ، فلما قاربوهم قال الفقيه إلى متى نحن وقوف؟» قال «سر على اسم الله تعالى » فتقدما قاتلا حتى قتلا رحمهما الله ، في مكان واحد .

ومن الناس من يقاتل للوفاء ، فمن ذلك ان رجلا من الأكراد يقال له فارس ، وكان كاسمه فارسا وأي فارس . فحضر ابي وعمي ، رحمهما الله ، وقعة كانت بينهما وبين سيف الدولة خلف ابن ملاعب عمل عليهم فيها وغدر بهم ، وقد حشد وجمع وهم غير متأهبين لما جرى ، وسبب ذلك انه راسلهم وقال: «نمضي الى اسفونا(٨٤) وفيها الفرنج نأخذها » فسبقه اصحابنا اليها وترجلوا وزحفوا الى الحصن نقبوه ، وهم في القتال وابن ملاعب وصل ، فأخذ خيل من كان ترجل من اصحابنا ووقع القتال بينهم ، بعدما كان للافرنج ، واشتد بينهم القتال ، فقاتل فارس الكردي قتالا عظيما وجرح عدة جراح ، وما زال يقاتل ويجرح حتى اثخن بالجراح ، وانفصل القتال ، فاجتاز به ابي وعمي ، رحمهما الله ، وهو محمول بين الرجال فوقفا عليه «وهنياه» بالسلامة . فقال «والله ما قاتلت أريد السلامة ، لكن لكم علي جميل وفضل كثير وما رأيتكم في شدة مثل هذا اليوم ، فقلت «اقاتل بين أيديكم وأجازيكم عن جميلكم وأقتل قدامكم».

وقضي الله سبحانه انه عوفي من تلك الجراح ومضى الى جبلة وفيها فخر الملك بن عمار وفي اللاذقية الأفرنج ، فخرجت خيل من جبلة تريد الغارة على اللاذقية ، وخرجت خيل من اللاذقية تريد

الغارة على جبلة ، فنزل الفريقان في الطريق وبينهما رابية ، فطلع فارس من الافرنج من جانبهم يكشف الرابية وطلع فارس الكردي من الجانب الآخر كشف لأصحابه ، ، فالتقى الفارسان على متن الرابية فحمل كل واحد منهما على صاحبه فاختلفا طعنتين فوقعا ميتين وبقيت الحصن تتصاول على الرابية ، والفارسان قتيلان .

وكان لفارس هذا عندنا ولد اسمه علان من الجند له الخيل الملاح والعدة الحسنة ، ولكن ما كان كأبيه ، فنزل علينا دنكري صاحب أنطاكية يوما وقاتلناه قبل ضرب الخيام ، وهذا علان بن فارس على حصان مليح باغز (٨٥) من أحسن الخيل ، وهو واقف على رفعة من الأرض ، فحمل عليه فارس من الافرنج وهو كالغافل ، فطعن حصانه في رقبته نفذ القنطارية ، فشب الحصان رمى علان ، وعاد الافرنجي ، والحصان معارضه ، والقنطارية في رقبته ، كأنه يجنبه ، يتمختر بغنيمة حسنة .

وعلى ذكر الخيل ففيها الصبور كالرجال وفيها الخوار ، فمن ذلك انه كان في جندنا رجل كردي يقال له كامل المشطوب فيه الشجاعة والدين والخير ، رحمه الله ، وله حصان أدهم اصم مثل الجمل ، فالتقى هو وفارس من الافرنج فطعن الافرنجي حصانه في موضع القلادة فمالت رقبته من شدة الطعنة وخرجت القنطارية من أصل رقبة الحصان فضربت فخذ كامل المشطوب وخرجت من الجانب الآخر ، وما تزعزع الحصان من تلك الطعنة ، ولا فارسه ، فكنت ارى ذلك الجرح الذي في فخذه بعد ما اندمل وختم وهو كأكبر ما يكون من الجراح ، وسلم الحصان وعاد حضر عليه القتال ، فالتقى هو وفارس من الافرنج ، فطعن الحصان في جبهته خسفها ولم يتزعزع ، وسلم من تلك الطعنة الثانية ، فكانت بعد ان اختمت اذا اطبق الانسان كفه وادخلها في جبهة الحصان في موضع الجرح ، وسعها.

وكان من طريف ما جرى في ذلك الحصان أن أخي عز الدولة ابا

الحسن عليا رحمه الله ، اشتراه من كامل المشـطوب ، وكان ثقيل العدو ، فاخرجه في ضمان قرية كانت بيننا وبين فارس مـن افـرنج كفرطاب ، فبقي عنده سنة ثم مات ، فأرسل الينا يطلب ثمنه ، قلنا «اشتريته وركبته ، ومـات عندك ، كيف تـطلب ثمنه قـال « انتـم سقيتموه شيئا يموت منه بعد سـنة » فعجبنا مـن جهله وسـخافة عقله .

وجرح تحتي حصان على حمص شقت الطعنة قلبه وأصـابه عدة سهام ، فاخرجني مـن المعـركة ومنخـراه يدميان بـالدم كالغرلتين ، (٨٦)ومـا انكرت منه شـيئا ، وبعـد وصـولي الى اصحابي مات .

وجرح تحتي حصان في بلد شيزر في حرب محمود بن قراجا ثلاثة جراح ، وأنا اقاتل عليه ، ولا اعلم ، والله انه قد جرح ، لأني مـا انكرت منه شيئا .

وأما خورها وضعفها على الجراح ، فإن عسكر دمشق نزل على حماة ، وهى لصلاح الدين محمـد بـن ايوب اليغسـياني ودمشـق لشهاب الدين محمود بن بوري بن طغدكين ، وأنا بهـا ، وزحفـوا الينا في جمع كثير ، ووالي حماة شهاب الدين احمد بن صلاح الدين وهو على تل مجاهد (٨٧) فجاءه الحاجب غازي التلي فقال :« قد انتشرت الرجالة ، والخوذ تتلامع بين الخيام ، والساعة يحملون على الناس يهلكونهم » ، فقال « امض ردهـم» فقـال :«والله مـا يردهـم الا انت او فـلان» ، يعنيني ، فقـال لي : تخـرج تردهم» ، فقلعت زردية كانت على غلام لي لبسـتها وخـرجت رددت الناس بالدبوس ، وتحتي حصـان أشـقر مـن أجـود الخيل واقلعها ، فلما رددت الناس زحفوا الينا ، وما برا من سور حمـاة فارس غيري ، منهم من دخل المدينة وايقنوا انهم مـأخوذون، ومنهم من هو مترجل في ركابي ، فاذا حملوا علينا اخرت الحصـان بعنانه وانا مستقبلهم ، وأذا عادوا مشيت خلفهم شـبرة لضـيق المجـال

وازدحام الناس ، فضربت حصاني ذشابة في ساقه خمشته ، فـوقع بي وقام ، ووقع ، وأنا أضربه حتى قال لي الرجال الذين في ركابي «ادخل الى الباشورة (٨٨) اركب غيره» فقلتد والله مـا انزل عنه» فرأيت من ضعف ذلك الحصان ما لم اره من غيره.

ومن حسن صبر الخيل ان طراد بن وهيب النميري حضر القتـال بين بني نمير ، وقد قتلوا علي بن شمس الدولة سالم بن مالك والي الرقة وملكوها ، والحرب بينهم وبين اخيه شهاب الدين مـالك بـن شمس الدولة ، وتحت طراد بن وهيب حصان له من أجـود الخيل له قيمة كبيرة ، فطعن في خاصرته ، فخرجت مصارينه ، فشدها طراد في السموط لا يدوسها فيقطعها ، وقاتل حتى انقضى القتال ، فدخل به الى الرقة ، فمات .

قلت اذكرني ذكر الخيل بأمر جرى لي مع صلاح الدين محمـد بن ايوب اليغسـياني ، رحمـه الله ، وذلك ان ملك الأمـراء اتـابك زنكي ، رحمه الله ، نزل على دمشق في سنة ثـلاثين وخمس مـائة بأرض داريا وقد راسله صاحب بعلبك جمال الدين محمد بن بـوري ابن طغدكين ، رحمه الله ، في الوصول اليه ، وخـرح مـن بعلبـك متوجها الى خدمة اتابك ، فبلغـه أن عسـكر دمشـق خـرح يريد أخذه ، فأمر صـلاح الدين ان نركب للقـائه ودفـع الدمشـقيين عنه ، وهو قـد ركب ووقـف عند خيمتـه ، فـركبت في الوقت ، فقـال :« كنت قـد علمـت بـركوبي قلت :(لا والله » ، قال :« السـاعة دفـنت اليك ، فـركبت في الوقـت »! قلت :« يا مولاي حصاني يأكل شعيره ، ويلجمه الركابـي ويقعـد وهو في يده على بـاب الخيمـة ، وأنا ألبس عدتـي وأتقلد سـيفي وأنام ، فلما جاءني رسولك ما كان لي ما يعوقني ».

فوقف الى أن اجتمع عنده جماعة من العسكر ، وقال :« البسوا سلاحكم » ، وقد لبس أكثـر الحـاضرين وأنا الى جـانبه ، ثـم قال :« كم أقول لكم البسوا سلاحكم ؟» قلت :«يامولاي ، لا تكون

تعنيني »؟ قال :«نعم» ، قلت :«والله ما أقدر البس ، نحن في أول الليل ، وكزا اغندي فيه زرديتـان مـطبقتان إذا رأيت العـدو لبسته » ، فسكت

وسرنا فصبحنا عند ضمير ، فقال« لي : « مانننزل نأكل شـيئا؟ فقد جعت من السهر » ؟ قلت :« الأمر لك » ، فنزلنا فما اسـتقر على الأرض حتـى قـال :« أين كزاغندك فـأمرت الغـلام فأحضره ، وأخرجته من عيبتـه وأخـرجت السـكين فتقتـه عند صدره ، وأظهرت جانب الزرديتين – وكان فيه زردية أفـرنجية الى نيله وفوقها أخـرى الى وسـطه على كل زردية البـطائن واللبـد واللاسين ووبر الأرنب ، فالتفت الى غلام له كلمه بالتركي ولا أدري ما يقول ، فاحضر بين يديه حصانا كميتا كان اعطاه اياه اتـابك في تلك الأيام كالصخرة الصماء قدت من قنة الجبـل ، فقـال :« هـذا الحصان يصلح لهذا الكزاغند ، سلمه الى غلام فلان » ، فسلمه الى غلامي

قلت كان عمي عز الدين ، رحمه الله ، يتفقد مني حضور فـكري في القتال ، ويمتحني بالمسألة ، فنحن يوما في بعض الحـرب التـي كانت بيننا وبين صاحب حماة وقد حشد وجمع ووقف على ضيعة من ضياع شيزر يحرق وينهب ، فجرد عمي من العسكر نحو من سـتين سبعين فارسا وقال لي «خذهم وسر اليهـم» ، فمضـينا نتـراكض والتقينا بوادر خيلهم فكسرناهم وطعنا فيهم وقلعناهم من موضعهم الذي كانوا عليه ، وذفذت فـارسا مـن اصـحابي الى عمـي وابي ، رحمهما الله ، وهما واقفان ومعهما باقي العسكر وراجـل كثير أقول لهما :« سيرا بـالرجالة فقـد كسرتهـم » ، فسـارا الي ، فلما قربا حملنا عليهـم كسرناهـم ، ورمـوا خيلهـم في الساروت(٨٩) ، وعبـروه سـباحة وهـو زائد ، ومضـوا وعدنا بالنصر ، فقال لي عمي : أي شيء ذفذت تقول لي ؟ قلت :« ذفـذت أقول لك تقدم بالرجالة فقد كسرناهم » ، فقال :« مـع مـن ذفـذت

الي ؟» قلت : « مع رجب العبد» ، قال :« صدقت » ، ما أراك كنت إلا حاضر القلب ، ما أدهشك القتال».

ومرة أخرى اقتتلنا نحن وعسكر حماة ، وكان محمود بن قراجا قد استعان على قتالنا بعسكر أخيه خير خان بن قراجا صاحب حمص ، وكان قد ظهر لهم في ذلك الزمان حمل الرماح المؤلفة بوصل الرمح الى بعض رمح آخر بحيث يصير طوله عشرين ذراعا او ثمانية عشر ذراعا ، فوقف مقابلي موكب منهم ، وأنا في سرية نحو من خمسة عشر فارسا ، فحمل علينا منهم علوان العراقي ، وهو من فرسانهم وشجعانهم ، فلما دنا منا وما تزعزعنا رجع ورد رمحه الى خلفه ، فرأيته كالحبل مطروحا على الأرض لايقدر يرفعه ، فأطلقت حصاني عليه ، فطعنته وقد وصل إلى أصحابه ، وعدت وراياتهم على رأسي ، فلقيهم أصحابي وفيهم أخي بهاء الدولة منقذ ، رحمه الله ، فردهم وقد انقطع نصف يرقي (٩٠) في كزاغند علوان ، ونحن بالقرب من عمي ، وهو يراني ، فلما انفصل القتال قال لي عمي :« أين طعنت علوان العراقي ؟» قلت :« اردت ظهره ، فمال الهواء بالبيرق فوقع الرمح في جانبه ».

قال :« صدقت ، ما كنت الا حاضر القلب ذلك الوقت ».

(مع الأسود وسائر الحيوانات)

وما رأيت الوالد ، رحمه الله ، نهاني عن قتال ولا ركوب خطر مع ما كان يرى في وأرى من اشفاقه وإيثاره لي ، ولقد رأيته يوما وكان عندنا بشيزر رهائن عن بغدوين ملك الأفرنج على قطعية قطعها لحسام الدين تمرتاش بن ايلغازي ، رحمه الله ، فرسان افرنج وأرمن ، فلما وفوا ما عليهم وأرادوا الرجوع الى بلادهم نفذ خيرخان صاحب حمص خيلا كمنوا لهم في ظاهر شيزر ، فلما توجه الرهائن خرجوا عليهم أخذوهم ، ووقع الصائح ، فركب عمي وأبي ، رحمهما الله ، ووقفا ، وكل من يصل اليهما قد سيراه من خلفهم ، وجئت أنا فقال لي أبي:«اتبعهم بمن معك ، وأرموا أنفسكم عليهم ، واستخلصوا رهائنكم» فتبعتهم وأدركتهم بعد ركض أكثر النهار واستخلصت من كان معهم وأخذت بعض خيل حمص ، وعجبت من قوله: « ارموا نفوسكم عليهم ».

ومرة كنت معه ، رحمه الله ، وهو واقف في قاعة داره وإذا حية عظيمة قد اخرجت رأسها على افريز رواق القناطر التي في الدار ، فوقف يبصرها ، فحملت سلما كان في جانب الدار أسندته تحت الحية وصعدت اليها ، وهو يراني فلا ينهاني ، واخرجت سكينا صغيرة من سوطي ، وطرحتها على رقبة الحية وهي نائمة وبين وجهي وبينها دون الذراع ، وجعلت أحز رأسها ، وخرجت التفت على يدي ، الى أن قطعت رأسها وألقيتها الى الدار ، وهي ميته .

بل رأيته ، رحمه الله ، وقد خرجنا يوما لقتال أسد ظهر على الجسر فلما وصلناه حمل علينا من أجمة كان فيها ، فحمل على الخيل ، ثم وقف ، وأنا وأخي بهاء الدولة منقذ ، رحمه الله ، بين

الأسد وبين موكب فيه ابي وعمي ، رحمهما الله ، ومعهما جماعة من الجند ، والأسد قد ربض على حرف النهر يتضرب بصدره على الأرض ويهدر ، فحملت عليه ، فصاح علي أبي ، رحمه الله «لا تستقبله ، يا مجنون ، فيأخذك !» فطعنته . فلا والله ما تحرك من مكانه . ومات موضعه .

فما رأيته نهاني عن قتال غير ذلك اليوم .

خلق الله عز وجل خلقه أطوارا (٩١) مختلفي الخلق والطبائع : الأبيض والأسود والجميل والقبيح ، والطويل والقصير ، والقوي والضعيف ، والشجاع والجبان ، بمقتضى حكمته وعموم قدرته .

رأيت بعض أولاد الأمراء التركمان الذين كانوا في خدمة ملك الأمراء أتابك زنكي ، رحمه الله ، وقد أصابته نشابة ما دخلت في جلده مقدار شعيرة فاسترخي وانحلت اعضاؤه وانقطع كلامه وغاب ذهنه ، وهو رجل مثل الاسد ، اجسم ما يكون من الرجال ، فأحضروا له الطبيب والجرائحي . فقال الطبيب :« ما به بأس ، بل متى ما جرح ثانية مات ». فهدأ وركب وتصرف كما كان ، ثم اصابته نشابة اخرى بعد مدة احقر من « الاولة» وأقل نكاية ، فمات .

ورأيت ما يقارب ذلك ايضا ، كان عندنا بشيزر اخوان يقال لهما بنو مجاجو الواحد اسمه أبو المجد والآخر محاسن وهما ضمان رحاة الجسر بثمان مائة دينار ، وعند الرحا مذبح للغنم يذبح فيه جزارو البلد ويجتمع الزنابير على آثار الدم ، فاجتاز محاسن بن مجاجو يوما الى الرحا ، فلسعه زنبور ، فانفلج وانقطع كلامه وأشرف على الموت ، وبقي كذلك مدة ، ثم أفاق وانقطع عن الرحا مدة فعاتبه أخوه أبو المجد وقال له: «يا أخي ، ضمنا هذه الرحا بثمان مائة دينار ولا تشرف عليها ولا تبصرها؟ وغدا ينكسر علينا ضمانها ونموت في الحبس » ، فقال له محاسن :« أنت مقصودك ان

يلسعني زنبـــور آخـــر فيقتلني ». وأصـــبح جـــاء الى الرحا ، فلسعه ، زنبور ، فمات فـأيسر الأشياء يقتـل اذا فـرغ الأجل ، والفأل موكل بالمنطق .

فمن ذلك أنه ظهر عندنا بأرض شيزر سبع ، فركبنا اليه فـوجدنا غلاما للأمير اسمه شـماس ، فقـال له عمـي :«أين الأســد ؟» قال : « في تلك الحلفاء » قال :« سر قدامي اليهـا ». قـال :« انت مقصودك ان يخرج الأسد يأخذني» ومشى قدامه ، فخرج الأسد كأنه مرسل الى شماس فأخذه ، فقتله دون الناس ، وقتل الأسد .

وشاهدت من الأسد مـالم أكن لأظنه ، ولا اعتقـدت ان الأســد كالناس فيهــا الشــجاع وفيهــا الجبـــان ، وذلك أن جوبان (٩٢)الخيل جاءنا يوما يركض وقال :« في اجمة تل التلول ثلاثة سباع » ، فركبنا فخـرجنا اليهـا ، وإذا لبـوة خلفهـا اسدان ، فدرنا في تلك الأجمة ، فخرجت علينا اللبوة ، فحملت على الناس ووقفت ، فحمل عليهـا أخـي بهـاء الدولة ابـو المغيث منقذ ، رحمه الله ، طعنها قتلها ، وتكسر رمحه فيها .

ورجعنا الى الأجمة ، فخـرج علينا احـد الســبعين فـطرد الخيل ، ووقفت أنا وأخي بهاء الدولة في طريقه عند عودته من طـرد الخيل ، فإن الأسد اذا خرج من موضع لا بد له من الرجوع اليه بلا شبهة ، وجعلنا اعجاز خيلنا اليه ، ورددنا رمـاحنا نحـوه ونحـن نعتقد انه يقصدنا فنذشب الرماح فيه فنقتله ، فمـا راعنا الا وهـو عابر علينا كالريح الى رجل مـن اصـحابنا يقـال له ســعد الله الشيباني ، فضرب فرسه رماها ، فطعنته وسـطت القنطـارية فيه فمات مكانه .

ورجعنا الى الأسد الآخر ومعنا نحـو مـن عشرين راجـلا مـن الأرمن الأجناد رماة ، فخرج السبع الآخـر وهـو أعظمهـا خلقـة يمشي ، وعارضه الأرمن بالنشاب ، وأنا معارض الأرمـن انتـظره

يحمل عليهم يأخذ واحدا منهم فأطعنه وهو يمشي ، وكلما وقعت فيه نشابة قد هدر ولوح بذنبه فأقول: « الساعة يحمل» ثم يعود يمشي ، فما زال كذلك حتى وقع ميتا ، فرأيت من ذلك الأسد شيئا ما ظننته .

ثم شاهدت من الأسد أعجب من ذلك .

كان بمدينة دمشق جرو أسد قد رباه سباع معه حتى كبر وصار يطلب الخيل وتأذى الناس به ، فقيل للأمير معين الدين ، رحمه الله ، وأنا عنده: « هذا السبع قد آذى الناس . وهو في الطريق » ، وكان على مصطبة بالقرب من دار معين الدين في النهار والليل ، فقال : « قولوا للسباع يجي به » . فقال للخوان سلار (٩٣) « أخرج من ذبائح المطبخ خروفا اتركه في قاعة الدار حتى نبصر كيف يكسره السبع». فأخرج خروفا الى قاعة الدار ، ودخل السباع ومعه السبع ، فساعة رآه الخروف ، وقد ارسله السباع من السلسلة التي في رقبته ، حمل عليه فنطحه ، فانهزم السبع وجعل يدور حول البركة والخروف خلفه يطرده وينطحه ، ونحن قد غلبنا الضحك عليه ، فقال الأمير معين الدين ، رحمه الله : «ذا سبع منحوس» أخرجوه اذبحوه واسلخوه ، وهاتوا جلده ». فذبحوه وسلخوه ، وأعتق ذلك الخروف من الذبح .

ومن عجيب أمور السباع أن أسدا ظهر عندنا في أرض شيزر ، فخرجنا اليه ومعنا رجالة من أهل شيزر فيهم غلام المعند (٩٤) الذي كان يطيعه اهل الجبل ويكاد ان يعبد ، ومع ذلك الغلام كلب له ، فخرج الأسد على الخيل ، فجالت قدامه جافلة ، ودخل في الرجالة ، فأخذ ذلك الغلام وبرك عليه ، فوثب الكلب على ظهر الأسد ، فذفر عن الرجل وعاد الى الأجمة ، خرج الرجل الى بين يدي والدي ، رحمه الله ، يضحك وقال :« يا

مولاي ، وحياتك ، ما جرحني ولا آذاني ». وقتلوا الأسد ، ودخل الرجل فمات في تلك الليلة من غير جرح أصابه الا انقطع قلبه .

فكنت أعجب من اقدام ذلك الكلب على الأسد ، وكل الحيوان ينفر من الأسد ويتجنبه .

ولقد رأيت رأس الأسد يحمل الى بعض دورنا فترى السنانير تهرب من تلك الدار وترمي نفوسها من السطوحات ، وما رأت الأسد قط ، وكنا نسلخ الأسد ونرميه من الحصن الى سفح الباشورة فلا تقربه الكلاب ولا شيء من الطير ، واذا رأت القيقان اللحم نزلت اليه ثم دنت منه صاحت وطارت ،وما أشبه هيبة الأسدعلى الحيوان بهيبة العقاب على الطير ، فان العقاب يبصره الفروج الذي مارأى العقاب قط فيصيح وينهزم ، هيبة القاها الله تعالى في قلوب الحيوان لهذين الحيوانين.

وعلى ذكر السباع كان عندنا أخوان من أصحابنا يقال لهما بنو الرعام رجالة يترددان من شيزر الى اللاذقية ـ واللاذقية لعمي عز الدولة أبي المرهف نصر ، وفيها اخوه عز الدين ابو العساكر سلطان ، رحمهما الله ـ بالكتب بينهما قالا: «خرجنا من اللاذقية فأشرفنا من عقبة الميدة ، وهي عقبة عالية تشرف على ما تحتها من الوطا ، فرأينا السبع وهو رابض على نهر تحت العقبة ، فوقفنا مكاننا ما نجسر على النزول من خوف الأسد ، فرأينا رجلا قد أقبل ، فصحنا اليه ولوحنا بثيابنا إليه نحذره من الأسد فما سمعنا ، وأوتر قوسه وطرح فيه نشابة ومشى ، فرآه الأسد فوثب إليه ، فضربه به ما أخطأ قلبه ، فقتله ، ومشى اليه فتمم قتله ، وأخذ نشابته وجاء الى ذلك النهر فنزع زربوله وقلع ثيابه ونزل اغتسل في الماء ، ثم طلع لبس ثيابه ، ونحن نراه ، وجعل ينفض شعره لينشفه من الماء ، ثم لبس فردة زربوله واتكى على جنبه وطول في الاتكاء ، فقلنا: والله ما قصر ، ولكن على من يتيه؟ ، ونزلنا إليه وهو على حاله فوجدناه ميتا ما ندري ما أصابه ، فنزعنا فردة الزربول من رجله وإذا فيه عقرب صغيرة قد

لسعته في ابهامه ، فمات لوقته ، فعجبا من ذلك الجبار الذي قتل الأسد وقتله عقرب مثل الاصبع ، فسبحان الله القادر النافذ المشيئة في الخلق

قلت: قاتلت السباع في عدة مواقف لا أحصيها ، وقتلت عدة منها ما شركني في قتلها احد ، سوى ما شاركني فيه غيري ، حتى خبرت منها وعرفت من قتالها ما لم يعرفه غيري ، فمن ذلك ان الأسد مثل سواه من البهائم يخاف ابن آدم ويهرب منه وفيه غفلة وبله ، ما لم يخرج فحينئذ هو الأسد ، وذلك الوقت يخاف منه ، وإذا خرج من غاب أو أجمة وحمل على الخيل فلا بد له من الرجوع الى الأجمة التي خرج منها ، ولو أن النيران في طريقه ، وكنت أنا قد عرفت هذا بالتجربة ، فمتى حمل على الخيل وقفت في طريق رجوعه ، قبل ان يجرح ، فإذا رجع تركته الى ان يتجاوزني وطعنته ، قتلته٠

فأما النمور فقتالها أصعب من قتال الأسد لخفتها وبعد وثبتها ، وهي تدخل في المغارات والمجاحر كما تدخل الضباع ، والأسد ما تكون الا في الغابات والآجام ، وقد كان ظهر عندنا نمر في قرية يقال لها معرزف(٩٥) من أعمال شيزر ، فركب اليه عمي عز الدين ، رحمه الله ، وأرسل إلي فارسا وأنا راكب في شغل لي يقول: «الحقني الي معرزف » ، فلحقته وجئنا الى الموضع الذي زعموا ان النمر فيه ، فما رأيناه ، وكان هناك جب ، فنزلت عن حصاني ومعي قنطارية وجلست على فم الجب ، وهو قصير نحو القامة وفي جانبه خرق كالمحجر . فحركت القنطارية في ذلك الخرق الذي في الجب فخرج النمر برأسه من ذلك الخرق ليأخذ القنطارية ، فلما علمنا انه في ذلك الموضع نزل معي بعض اصحابنا ، وصار بعضنا يحرك ذلك الموضع بالرمح ، فاذا خرج طعنه الآخر ، وكلما اراد الصعود من الجب اوثقناه بالرماح ، حتى قتلناه ، وكان خلقة عظيمة ، إلا انه كان قد أكل من دواب القرية حتى عجز عن نفسه ، وهو دون سائر الحيوان يقفز الى فوق اربعين ذراعا٠

وقد كان في كنيسة حناك (٩٦) طاقة في ارتفاع اربعين ذراعا ، فكان يأتيها نمر في الهاجرة يثب اليها ينام فيها الى آخر النهار ، ويثب منها ينزل ويمضي ، ومقطع حناك ذلك الوقت فارس افرنجي يقال له سير آدم من شياطين الافرنج ، فأخبروه خبر النمر فقال:«إذا رأيتموه أعلموني» فجاء النمر كعادته وثب الى تلك الطاقة ، فجاء بعض الفلاحين أخبر السير آدم ، فلبس درعه وركب حصانه وأخذ ترسه ورمحه وجاء الى الكنيسة وهي خراب ، إنما فيها حائط قائم فيه تلك الطاقة ، فلما رآه النمر وثب من الطاقة عليه ، وهو على حصانه فكسر ظهره وقتله ومضى. فكان فلاحو حناك يسمونه النمر المجاهد .

ومن خواص النمر انه اذا جرح الانسان وبالت عليه فأرة مات ، ولا ترتد الفأرة عن جريح النمر ، حتى أنه يعمل له سرير يجلس في الماء ويربط حوله السنانير خوفا عليه من الفأر .

والنمر لايكاد يألف بالناس ولا يستأنس بهم ، وقد كنت مرة مجتازا بمدينة حيفا من الساحل ، وهي للافرنج ، فقال لي افرنجي منهم : «تشتري مني فهدا جيدا؟» قلت: «نعم» ، فجاءني بنمر قد رباه حتى صار في قد الكلب ، قلت: «لا» ما يصلح لي ، هذا نمر ما هو فهد فعجبت من أنسه وتصرفه مع الافرنجي .

والفرق بين النمر والفهد أن وجه النمر طويل مثل وجه الكلب ، وعيناه زرق ، والفهد وجهه مدور وعيناه سود ، وقد كان بعض الحلبيين أخذ نمرا وجاء به في عدل(٩٧) الى صاحب القدموس ، وهو لبعض بني محرز ، وهو يشرب ، ففتح العدل ، فخرج النمر على من في المجلس . فأما الأمير فكان عند طاقة في البرج دخل منها وغلق عليه الباب ، وجال النمر في البيت قتل بعضهم وجرح بعضهم الى أن قتلوه .

وسمعت وما رأيت أن في السباع الببر (٩٨) ، وماكنت أصدق

ذلك ، فحدثني الشيخ الامام حجة الدين أبو هاشم محمد بن محمد ابن ظفر ، رحمه الله ، قال: «سافرت من المغرب ومعي غلام شيخ كان لوالدي قد سافر وجرب الأمور ، ففرغ الماء الذي معنا وعطشنا وليس معنا ثالث ، إنما نحن أنا وهو على نجيبين ، فقصدنا ماء في طريقنا فوجدنا عليه الببر وهو نائم فاعتزلنا عنه ، ونزل صاحبي عن جمله وأعطاني زمامه وأخذ سيفه وترسه وقربة معنا وقال لي: احتفظ برأس النجيب ، ومشى الى الماء ، فلما رآه الببر قام ووثب مستقبله حتى تجاوزه . ثم صاح فثارت اليه مجريات له عدوا لحقوه .وما عارضنا ولا آذانا ، فشربنا وأسقينا ثم مضينا ».

وهكذا حدثني ، رحمه الله ، وكان من خيار المسلمين في دينه وعلمه .(٩٩)

(تجارب حربية)

ومن عجيب الآجال لما نزل الروم الى شيزر سنة اثنتين وثلاثين وخمس مائة نصبوا عليها مجانيق هائلة جاءت معهم من بلادهم ترمي الثقل ، وتبلغ حجرها ما لا تبلغه النشابة ، وترمي الحجر عشرين وخمسة وعشرين رطلا ، ولقد رموا مرة دار صاحب لي يقال له يوسف بن أبي الغريب ، رحمه الله ، بفلت فوق (١٠٠) فهدمت علوها وسفلها بحجر واحد ، وكان على برج في دار الأمير ، قنطارية فيها راية منصوبة ، وطريق الناس في الحصن من تحتها ، فضرب القنطارية حجر المنجنيق كسرها من نصفها ، وانقلب كسرها الذي فيه السنان تنكس ووقع الى الطريق ، ورجل من أصحابنا عابر ، فوقع السنان من ذلك العلو وفيه نصف القنطارية في ترقوته خرج الى الأرض وقتله .

وحدثني خطلخ مملوك لوالدي ، رحمه الله تعالى ، قال : «كنا في حصار الروم جلوسا في دهليز الحصن بعددنا وسيوفنا فإذا شيخ قد جاءنا يعدو وقال: « يا مسلمين الحريم! دخل الروم معنا » فأخذنا سيوفنا وخرجنا وجدناهم قد طلعوا من ثغرة في السور ثغرتها المجانيق . فضربناهم بالسيوف حتى أخرجناهم ، وخرجنا خلفهم حتى أوصلناهم إلى أصحابهم ، وعدنا فتفرقنا ، وبقيت أنا وذلك الشيخ الذي استفزعنا ، فوقف وأدار وجهه الى الحائط يريق الماء ، فأعرضت عنه ، فسمعت وجبة ، فالتفت وإذا الشيخ قد ضربت رأسه حجر المنجنيق كسرته والصقته بالحائط ، ومخه قد سال على الحائط ، فحملته وصلينا عليه ودفناه في مكانه ، رحمه الله »

وضربت حجر المنجنيق رجلا من أصحابنا كسرت رجله ، فحملوه

الى بين يدي عمي وهو جالس في دهليز الحصن ، فقال: «هاتوا المجبر» ، وكان بشيزر رجل صانع يقال له يحيى صانع في التجبير ، فحضر وجلس يجبر رجله وهو في سترة خارج باب الحصن ، فضربت الرجل المكسور حجر في رأسه طيرته ، فدخل المجبر الى الدهليز فقال عمي : «ما اسرع ما جبرته»! ، قال: «يا مولاي ، جاءته حجر ثانية أغنته عن التجبير».

قصد الفرنج دمشق

ومن نفاذ المشيئة في الآجال والأعمار أن الافرنج ، خذلهم الله ، أجمع رأيهم على أن يقصدوا دمشق ويأخذوها ، فاجتمع منهم خلق كثير . وسار اليهم صاحب الرها وتل باشر وصاحب أنطاكية ، فنزل صاحب انطاكية على شيزر في طريقه الى دمشق ، وقد تبايعوا بينهم دور دمشق وحماماتها وقياسيرها واشتراها البرجاسية ووزنوا لهم أثمانها وما عندهم شك في فتحها وملكها ، وكفر طاب اذ ذاك لصاحب أنطاكية ، فجرد من عسكره مائة فارس انتخبهم وأمرهم بالمقام بكفر طاب مقابلنا ومقابل حماة ، فلما سار الى دمشق اجتمع من بالشام من المسلمين لقصد كفرطاب ، وأنفذوا رجلا من أصحابنا يقال له قنيب بن مالك ، فجس لهم كفرطاب في الليل ، فوصلها دارها وعاد وقال: «ابشروا بالغنيمة والسلامة»..

فسار المسلمون اليهم فالتقوا على بتكين ، فنصر الله سبحانه الاسلام وقتلوا الافرنج جميعهم ، وكان قنيب الذي جس لهم كفرطاب قد رأى في خندقها دواب كثيرة ، فلما ظفروا بالافرنج وقتلوهم طمع في اخذ تلك الدواب التي في الخندق ورجا ان يفوز بالغنيمة وحده ، فمضى يركض الى الخندق ، فرمى عليه رجل من الأفرنج من الحصن حجرا فقتله ، وكانت له عندنا والدة عجوزكبيرة تندب في مأتمنا ثم تندب ولدها ، فكانت اذا ندبت على ابنها قنيب

تتدفق ثدياها باللبن حتى تغرق ثيابها ، فاذا فرغت من ندبهــا عليه وسكنت لوعتها عادت ثــدياها كالجلدتين مــا فيهمــا قــطرة لبن ، فسبحان من اشرب القلوب الحنية على الاولاد .

ولما قيل لصاحب انطاكية وهو على دمشق: «قد قتــل المســلمون اصحابك » ، قال: «ما هـو صحيح ، قد تركت بكفرطاب مائة فارس تلتقي المسلمين كلهم ».

وقضى الله ســبحانه أن المســلمين بــدمشق نصروا على الافرنج ، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة وأخذوا جميع دوابهم ، فرحلوا عن دمشق أسوأ رحيل وأذله ، والحمد لله رب العالمين .

ومن عجيب ما جرى في تلك الوقعة بـالافرنج انه كان في عســكر حماة اخوان كرديان اسم الواحد بدر واسم الآخر عناز ، وكان هذا عناز ضعيف النظر ، فلما كسر الافـرنج وقتلوا قـطعوا رؤوســهم وشدوها في سموط خيلهــم ، وقــطع عناز رأســا وشــده في سموطه ، فرآه ، قوم من عسكر حماة فقالوا له: «يا عناز ، اي شيء هذا الرأس معك ؟» قال: «ســبحان الله لما جـرى بيني وبينه حتــى قتله » ، قالوا له: «يا رجـل ، هــذا رأس أخيك بــدر!» فنظــره وتأمله ، فإذا هـو رأس أخيه ، فاستحيى مــن الناس وخـرج مــن حماة ، فما ندري اين قصد ولا عدنا سمعنا له خبرا ، وكان أخــوه بدر قتل في تلك الوقعة قتله الافرنج ، خذلهم الله تعالى .

اذكرني ضرب حجر المنجنيق رأس ذلك الشيخ رحمه الله ، ضرب السيوف الماضية ، فمن ذلك أن رجلا من اصحابنا يقــال له همــام الحاج التقي هو ورجل مــن الاســماعيلية ، لما عملوا على حصــن شيزر ، في رواق في دار عمــي ، رحمــه الله ، وفي يد الاســماعيلي سكين والحاج في يده سيف ، فهجم عليه الباطني بالسكين ، فضربه همام بالسيف فوق عينيه فقطع قحف رأسه ووقع مخــه على الأرض فانبسط عليها وتطاير ، فوضع همام السيف مــن يده وتقيأ مــا في

بطنه لما لحقه من نظر ذلك المخ من الغثيان ، ولقيني في ذلك اليوم واحد منهم في يده سيخ وفي يدي سيف لي فهجم علي بالسيخ فضربته في وسط ساعده ، والسيخ في يده قبضته ونصله لاصق بساعده ، فقطع قد أربع أصابع من نصل السيخ وقطع الساعد من نصفه ، فأبانه ، وبقي أثر فم السيخ في حد السيف ، فرآه صانع عندنا فقال: « انا أخرج هذا الثلم منه » ، قلت: « دعه كما هو ، فهو أحسن ما فيه » وهو الى الآن اذا رآه الانسان علم انه اثر سكين

ولهذا السيف خبر انا ذاكره

كان للوالد ، رحمه الله ركابي يقال له جامع فأغار الفرنج علينا ، فلبس الوالد كزاغنده وخرج من داره ليركب ، فما وجد حصانه ، فوقف ساعة ينتظره ، فوصل جامع الركابي بالحصان ، وقد ابطأ ، فضربه الوالد بهذا السيف وهو في غمده متقلد به ، فقطع الجهاز والنعل الفضة وبشتا(١٠)كان على الركابي وصوفية وعظم مرفقة ، فرميت يده ٠ فكان رحمه الله يقوم به وبأولاده بعد تلك الضربة ، وكان السيف يسمى الجامعي باسم ذلك الركابي .

ومن ضربات السيوف المذكورة أن أربعة أخوة من أنساب الأمير افتخار الدولة أبي الفتوح بن عمرون صاحب حصن ابو قبيس صعدوا اليه الحصن وهو نائم أوثقوه بالجراح ، وما معه في الحصن غير ابنه ، ثم خرجوا وهم يظنون أنهم قد قتلوه يريدون ابنه ، وكان هذا افتخار الدولة قد آتاه الله من القوة أمرا عظيما ، فقام من فراشه عريانا ، وسيفه معلق في البيت معه ، فأخذه وخرج اليهم ، فلقيه واحد منهم وهو مقدمهم وشجاعهم ، فضربه افتخار الدولة بالسيف وقفز من مقابله خوفا من ان يصل اليه بسكين كانت في يده ، ثم التفت اليه فوجده ملقى قد قتله بتلك الضربة ، وصار الى الآخر ضربة قتله.

وانهزم الاثنان الباقيان ، فرميا انفسهما من الحصن ، فمات احدهما ونجا الآخر .

وأتانا الخبر إلى شيزر . فنفذنا من هنأه بالسلامة . وطلعنا بعد ثلاثة أيام إلى حصن أبو قبيس لعيادته ، فان اخته كانت عند عمي عز الدين وله منها أولاد ، فحدثنا حديثه وكيف كان أمره ، ثم قال « متن كتفي يحكني ، وما أصل اليه » ، ودعا غلاما له ليبصر ذلك الموضع أي شيء قرصه فيه ، فنظر فاذا هو جرح وفيه رأس دشن(١٠٢) قد انكسر في ظهره ، وما معه منه علم ولا أحس به ، فلما قاح حكه .

وكان من قوة هذا الرجل أنه كان يمسك رسغ رجل البغل ويضرب البغل فلايقدر يخلص رجله من يده ، ويأخذ المسمار البيطاري بين أصابعه ويدفنه في دف خشب البلوط ، وكان أكله مثل قوته لا بل أعظم .

قد ذكرت شيئا من أفعال الرجال ، وسأذكر شيئا من أفعال النساء ، بعد بساط اقدمه .

وذلك أن انطاكية كانت لشيطان من الافرنج يقال له روجار ، فمضى يحج إلى البيت المقدس ، وصاحب البيت المقدس بغدوين الرويس وهو رجل شيخ ، وروجار شاب ، فقال لبغدوين « اجعل بيني وبينك شرطا ،إن مت قبلك كانت أنطاكية لك ، وإن مت قبلي كان البيت المقدس لي » ، فتعاقدا وتواثقا على ذلك .

وقدر الله تعالى أن نجم الدين ايلغازي بن أرتق ، رحمه الله ، لقي روجار بدانيث يوم الخميس خامس جمادى الاولى سنة ثلاث عشرة وخمس مائة فقتله وقتل جميع عسكره ، ولم يدخل انطاكية منهم إلا دون العشرين رجلا .وسار بغدوين إلى أنطاكية فتسلمها .

وضرب مع نجم الدين مصافا بعد أربعين يوما ، وكان إيلغازي اذا شرب النبيذ يخمر عشرين يوما ، فشرب بعد كسر الافرنج وقتلهم ودخل في الخمار فما أفاق حتى وصل الملك بغدوين الرويس إلى انطاكية بعسكره .

فكان المصاف الثاني بينهما على السواء ، كسر بعض الفرنج بعض المسلمين ، وكسر بعض المسلمين بعض الفرنج ، وقتل من هؤلاء وهؤلاء جماعة ، وأسر المسلمون روبرت صاحب صهيون وبلاطنس (١٠٣) وتلك الناحية ، وكان صديقا لاتابك طغدكين صاحب دمشق ذلك الوقت ، وكان مع نجم الدين إيلغازي لما اجتمع بالافرنج في أفامية حين وصل عساكر الشرق مع برسق بن برسق ، فقال هذا روبرت الابرص لأتابك طغدكين : « ما أدري بأي شيء أضيفك ، ولكن قد ابحتك بلادي ، انفذ خيلك تغير عليها وتأخذ كلما وجدوه ، بس لايسبوا ولايقتلوا ، الدواب والمال والغلة لهم يأخذون ذلك مباحا لهم » ، فلما اسر روبرت ، وأتابك طغدكين حاضر المصاف في معونة ايلغازي ، قطع روبرت على نفسه عشرة آلاف دينار فقال إيلغازي : « امضوا به إلى اتابك لعله يفزعه فيزيدنا في القطيعة » ، فمضوا به وأتابك في خيمته يشرب ، فلما رآه مقبلا قام شمر أنيال قبائه في البند وأخذ سيفه وخرج إليه ضرب رقبته ، فنفذ إليه إيلغازي يعتب عليه وقال : « نحن محتاجون الى دينار واحد للتركمان ، وهذا كان قد قطع على نفسه عشرة آلاف دينار نفذته إليك تفزعه لعله يزيدنا في القطيعة ، قتلته ! » قال : « انا ما أحسن افزع الا كذا »

ثم ملك بغدونين الرويس أنطاكية . وكان لأبي وعمي ، رحمهما الله ، عليه جميل كبير حيث كان أسره نور الدولة بلك ، رحمه الله ، وصار بعد قتل بلك الى حسام الدين تمرتاش بن إيلغازي ، فحمله إلينا إلى شيزر ليتوسط أبي وعمي رحمهما الله بيعه ، فأحسنا إليه . فلما ملك كانت لصاحب انطاكية علينا قطعية سامحنا بها . وصار أمرنا في أنطاكية نافذا .

فهو فيما هو فيه ، وعنده رسول من أصحابنا ، إذ وصل مركب الى السويدية فيه صبي عليه اخلاق ، فحضر عنده وعرفه انه ابن بيموند ، فسلم انطاكية إليه وخرج منها ضرب خيمه في ظاهرها ، فحلف لنا رسـ ـولنا الذي كان عنده أنه - يعني الملك بغدوين - اشترى عليق خيله تلك الليلة من السوق ، وأهراء انطاكية ملأى من الغلة . ورجع بغدوين الى القدس .

وخرج على الناس من ذلك الشيطان ابن بيموند بلية عظيمة ، فنزل علينا يوما من الايام بعسكره ، فضرب خيامه ، ونحن قد ركبنا مقابلهم ، فما خرج إلينا منهم أحد ونزلوا في خيامهم ، ونحن ركاب على شرف نبصرهم ، وبيننا وبينهم العاصي ، فنزل من بيننا ابن عمي ليث الدولة يحيى بن مالك بن حميد ، رحمه الله ، يسير الى العاصي ، فظنناه يسقي فرسه ، فخاض الماء وعبر وسار نحو موكب للافرنج واقف بالقرب من خيامهم ، فلما دنا منهم نزل اليه فارس واحد ، فحمل كل واحد منهما على صاحبه ، وراغ كل واحد منهما عن طعنة الاخر ، فتسرعت أنا وأمثالي من الشباب ذلك الوقت إليهما ، ونزل الموكب وركب ابن بيموند وعسكره وجاؤوا كالسيل ، وصاحبنا قد طعنت فرسه ، فالتقت أوائل خيلنا وأوائل خيلهم . وفي اجنادنا رجل كردي يقال له ميكائيل قد جاء في أوائل خيلهم منهزما ، وخلفه فارس أفرنجي قد لزه ، وللكردي بين يديه ضجيج وصياح عال ، فلقيته ، فمال عن ذلك الفارس الكردي وزل عن طريقي وقصد خيلا لنا في جماعة على الماء واقفين مما يلينا ، وأنا خلفه أجهد أن يلحقه حصاني فأطعنه ، فلا يلحقه ، ولا الافرنجي يلتفت إلي إلا يريد تلك الخيل المجتمعة الى ان وصل الى خيلنا ، وانا تابعه . فطعن أصحابي حصانه طعنة أوثقته وأصحابه في إثره في جمع ما لنا بهم قوة ، فرجع الفارس وحصانه في آخر رمقه التقاهم فردهم جميعهم ، وعاد ، وهم معه ، وكان الفارس ابن بيموند « صاحب انطاكية وهو صبي قد امتلأ قلبه من الرعب ، ولو ترك أصحابه هزمونا إلى أن يدخلوا المدينة .

كل ذلك وأمة عجوز يقال لهـا بـريكة مملوكة لرجـل كردي مـن أصحابنا يقال له علي بن محبوب واقفة بين الخيل على شط النهر في يدها شربة تستقي بها وتسقي الناس ، واكثر اصحابنا الذين كانوا على الشرف لما رأوا الافرنج مقبلين في ذلك الجمـع اندفعـوا نحـو المدينة وتلك الشيطانة واقفة لايروعها ذلك الامر العظيم .

وانا ذاكر شيئا من أمر هذه بريكة ، وإن لم يكن مـوضعه ، لكن الحديث شجون كان مولاها علي يتـدين ولايشرب الخمـر ، فقـال لوالدي يوما « والله ، ياأمير ، ماا ستحل أكل من الديوان ولا آكل إلا من كسب بريكـة » ، وهـو الجاهل يظن ان ذلك السحت الحرام أحل من الديوان الذي هـو مستأجر به .

وكانت هذه الامة لها ولد اسمه نصر رجل كبير ، وكيلا في ضـيعة للوالد ، رحمه الله ، وهـو رجل يقال له بقية بن الاصيفر .

حدثني قال : « دخلت في الليل إلى البلد أريد الدخول إلى داري في شغل لي ، فلما دنوت مـن البلد رأيت بين المقـابر في ضـوء القمـر شخصا ما هـو أدمي ولا هـو وحش ، فوقفت عنه وتهيبة ، ثـم قلت في نفسي : « ما أنا بقية ! ما هذا الخوف من واحد ؟ » فوضعت سيفي ودرقتي والحربة التي معي ومشـيت قليلا قليلا ، وأنا اسـمع لذلك الشخص زجلا وصوتا ، فلما قربت منه وثبت عليه وفي يدي دشـني فقبضته ، وإذا بها بريكة مكشوفة الرأس قد نفشت شـعرها وهـي راكبة قصبة تصهل بين المقابر وتجـول ، قلت : « ويحـك ! أي شيء تعملين في هذا الوقت هاهنا ؟» قالت : « أسـحر » قلت : « قبحـك الله وقبح سحرك وصنعتك من بين الصنائع ! »

اذكرني قوة نفس هذه الكلبة بأمور جرت للنساء في الوقعة التـي كانت بيننا وبين الاسماعيلية ، وإن لم تكن سواء

لقي في ذلك اليوم مقدم القوم علوان بن حراز ابـن عمـي سـنان

الدولة شبيب بن حامد بن حميد ، رحمه الله في الحصن ، وهو تربى ولدتي ولدت أنا وهو في يوم واحد يوم الاحد السابع والعشرين من جمادى الاخرة سنة ثمان وثمانين وأربع مائة إلا أنه ما باشر الحرب حتى ذلك اليوم ، وأنا كنت قطبها ، فأراد علوان اصطناعه .

فقال له : « ارجع الى بيتك ، احمل منه ما تقدر عليه ورح لاتقتل ، فالحصن قد ملكناه » ، فرجع الى الدار وقال : « من كان له شيء يعطيني إياه – يقول ذلك لعمته ونساء عمه – فكل منهم اعطاه شيئا ، فهو في ذلك وإذا انسان قد دخل الدار عليه زربية وخونة ومعه سيف وترس ، فلما رآه أيقن بالموت ، فوضع الخونة ، وإذا هي أم ابن عمه ليث الدولة يحيى ، رحمه الله ، فقالت : « أي شيء تريد تعمل ؟ » قال : « آخذ ما قدرت عليه ، وأنزل من الحصن بحبل ، وأعيش في الدنيا » ، قالت : « بئس ما تفعل ، تخلي بنات عمك وأهلك للحلاجين وتروح ؟ أي عيش يكون عيشك إذا افتضحت في أهلك وانهزمت عنهم ؟ اخرج قاتل عن أهلك حتى تقتل بينهم ، فعل الله بك وفعل » ، ومنعته ، رحمها الله ، من الهرب . وكان من الفرسان المعدودين بعد ذلك .

وفي ذلك اليوم فرقت والدتي ، رحمها الله ، سيوفي وكزاغنداتي ، وجاءت إلى أخت لي كبيرة السن ، وقالت : « البسي خفك وإزارك » فلبست وأخذتها الى روشن في داري يشرف على الوادي من الشرق أجلستها عليه وجلست إلى باب الروشن ،ونصرنا الله سبحانه عليهم ، وجئت إلى داري اطلب شيئا من سلاحي ما وجدت إلا جهازات السيوف وعيب الكزاغندات ، قلت : « ياأمي ، أين سلاحي ؟ » قالت : « يابني ، أعطيت السلاح لمن يقاتل عنا . وما ظننتك سالما » . قلت : « فأختي أي شيء تعمل هاهنا ؟ » قالت : « يابني ، اجلستها على الروشن وجلست برا منها ، إذا رأيت الباطنية قد وصلوا إلينا دفعتها رميتها إلى الوادي فأراها قد ماتت ولا أراها مع الفلاحين والحلاجين مأسورة » ، فشكرتها على ذلك

وشكرتها الاخت وجزتها خيرا ، فهذه النخـوة أشـد مـن نخـوات الرجال .

وتلثمت في ذلك اليوم عجوز من جواري جدي الأمير أبي الحسـن علي ، رحمه الله ، يقال لها فتون . فـأخذت سـيفا وخـرجت إلى القتال ، ومازالت كذلك حتى صعدنا وتكاثرنا عليهم .

وما يذكر للنساء الكرام الانفة والنخوة والاصابة في الرأي .

ولقد خرجت يوما من الأيام مع الوالد ، رحمه الله ، إلى الصيد ، وكان مشغوفا بالصيد عنده من البزاة والشواهين والصقور والفهود والكلاب الزغارية مـا لايكاد يجتمــع عند غيره ، ويركب في أربعين فارسا من أولاده ومماليكه كل منهم خبير بالصيد عارف بـالقنص ، وله بشيزر متصيدان : يوما يركب إلى غربي البلد الى أزوار وأنهار فيتصـيد الدراج وطير الماء والارانب والغـزلان ويقتـل الخنازير ، ويوما يركب إلى الجبل قبلي البلد يتصيد الحجل والارانب ، فنحن في الجبل يوما وقد حانت صلاة العصر فنزل ونزلنا نصلي فرادى ، وإذا غلام قد جاء يركض قال : « هذا الأسد » ، فسـلمت قبـل الوالد ، رحمه الله ، لكيلا يمنعني من قتال الأسد ، وركبـت ومعـي رمحـي فحملت عليه ، فاستقبلني وهدر ، فحاص بي الحصان ووقع الرمـح من يدي لثقله وطردني شوطا جيدا ، ثم رجع إلى سفح الجبل وقـف عليه وهو من أعظم السباع كأنه قنطرة ، جـائع ، وكلمـا دنونا منه نزل من الجبل طرد الخيل وعاد الى مكانه . وما ينزل نزلة إلا يؤثر في أصحابنا .

ولقد رأيته ركب مع رجل من غلمان عمي يقال له سـبتكين غرزة على وركي حصانه وخرق بمخالبه ثيابه وراناته وعاد الى الجبـل ، فما كان لي فيه حيلة إلا أن صعدت فوقه في سفح الجبل ، ثم حـدرت حصاني عليه فطعنته نفذت الرمح فيه وتركته في جـانبه ، فتقلب الى أسفل الجبل والرمح فيه ، فمات الاسد ، وانكسر الرمح ، والوالد ،

رحمه الله واقف يرانا ومعه أولاد أخيه عز الدين يبصرون ما يجري ، وهم صبيان .

وحملنا الاسد ودخلنا البلد العشاء ، واذا جدتي لأبي ، رحمها الله ، قد جاءتني في الليل وبين يديها شمعة – وهي عجوز كبيرة قد قاربت من العمر مائة سنة – فما شككت انها قد جاءت تهنئني بالسلامة وتعرفني مسرتها بما فعلت ، فلقيتها وقبلت يدها فقالت لي بغيظ وغضب : « يابني ، ايش يحملك على هذه المصائب التي تخاطر فيها بنفسك وحصانك وتكسر سلاحك ، ويزداد قلب عمك منك وحشة ونفورا ؟ » قلت « يا ستي، إنما اخاطر بنفسي في هذا ومثله لأتقرب إلى قلب عمي » ، قالت : « لا والله ، ما يقربك هذا منه وإنه يزيدك منه بعدا ويزيده منك وحشة ونفورا » ، فعلمت أنها ، رحمها الله ، نصحتني في قولها وصدقتني ، ولعمري إنهن أمهات الرجال .

ولقد كانت هذه العجوز ، رحمها الله ، من صالحي المسلمين من الدين والذمة والصوم والصلاة على أجمل طريقة ، ولقد حضرتها ليلة النصف من شعبان وهي تصلي عند والدي ، وكان رحمه الله ، من احسن من يتلو كتاب الله تعالى ، ووالدته تصلي بصلاته ، فأشفق عليها فقال : « يا أمي لو جلست صليت من قعود » ، قالت : « يابني ، بقي لي من العمر ما أعيش إلى ليلة مثل هذه الليلة ؟ لا والله ، ما اجلس » . وكان الوالد قد بلغ السبعين سنة وهي قد شارفت المائة سنة ، رحمها الله .

وشاهدت من نخوات النساء عجبا ، وهو أن رجلا من أصحاب خلف بن ملاعب يقال له علي عبد بن أبي الريداء كان قد رزقه الله تعالى من النظر ما رزق زرقاء اليمامة ، فكان ينهض مع ابن ملاعب يبصر القوافل على مسيرة يوم كامل .

ولقد حدثني رجل من رفاقه يقال له سالم العجائزي ، انتقل إلى

خدمة والدي بعد ما قتل خلف بن ملاعب قال : « نهضنا يوما وأرسلنا عليا عبد بن ابي الريداء بكرة يدبدب لنا(١٠٤) ، فجاءنا وقال : « ابشروا بالغنيمة ! هذه قافلة كثيرة مقبلة ، فنظرنا ما رأينا شيئا ، فقلنا : « ما نرى قافلة ولا غيرها ، قال : « والله ، إني لأرى القافلة وقدامها فرسان مجنبان ينفضان معارفهما ، فأقمنا في الكمين إلى العصر ، فوصلتنا القافلة والفرسان المجنبان قدامها فخرجنا أخذنا القافلة » .

وحدثني سالم العجائزي قال : « نهضنا يوما وصعد علي عبد ابن أبي الريداء يدبدب لنا ، فنام ومادرى إلا أخذه تركي من سرية أتراك ناهضه وقالوا : « أي شيء أنت ؟» قال : « أنا رجل صعلوك قد اكريت جملي لرجل من التجار في القافلة ، أعطني يدك أنك تعطيني جملي حتى اداكم على القافلة ، فأعطاه مقدمهم يده ، فمشى بين أيديهم الى أن أوصلهم إلينا إلى الكمين ، فخرجنا عليهم أخذناهم ، وتعلق هو بالذي كان بين يديه اخذ فرسه وعدته ، وغنمنا منهم غنيمة حسنة » .

فلما قتل ابن ملاعب انتقل علي عبد بن أبي الريداء إلى خدمة توفيل الافرنجي صاحب كفرطاب ، فكان ينهض بالافرنج إلى المسلمين يغنمهم ويبالغ في أذى المسلمين وأخذ مالهم وسفك دمهم حتى قطع سبل المسافرين ، وله امرأة معه بكفر طاب تحت يدي الافرنج تنكر عليه فعله وتنهاه فلا ينتهي ، فنفذت أحضرت نسيبا لها من بعض الضياع ، وأظنه أخاها ، وأخفته في البيت إلى الليل ، واجتمعت هي وهو على زوجها علي عبد بن أبي الريداء قتلاه ، واحتملا بجميع مالها .

وأصبحت عندنا بشيزر ، وقالت : « غضبت للمسلمين مما كان يفعل بهم هذا الكافر » ، فأراحت الناس من هذا الشيطان ، ورعينا لها ما فعلت وكانت عندنا في الكرامة والاحترام .

وكان في أمراء مصر رجل يقال له بدي الصليحي في وجهه ضربتان الواحدة من حاجبه الأيمن إلى حد شـعر رأسـه ، فسـألته عنهمـا فقال . « كنت انهض وأنا شاب من عسقلان ، وأنا راجل ، فنهضت يوما إلى طريق بيت المقدس أريد حجاج الافرنج ، فصـادفنا قـوما منهم ، فلقيت رجلا معه قنطارية وخلفه امرأته معها كوز خشـب فيه ماء . فطعني الرجل هذه الطعنة الواحدة وضربته قتلته فمشـت إلي امرأته وضربتني بالكوز الخشب في وجهي جـرحتني هـذا الجـرح الآخر فوسما وجهي .

ومن إقدام النساء أن جماعة من الافرنج الحجاج حجـوا وعادوا الى رفنية ، وكانت ذلك الوقت لهم ، وخرجوا منها يريدون أفـامية ، فتاهوا في الليل وجاءوا الى شيزر وهي اذ ذاك بغير سور ، فـدخلوا المدينة وهم في نحو من سبع مائة ثمان مائة رجال ونساء وصبيان ، وكان عسكر شيزر قد خرج مع عمي عز الدين أبي العساكر سـلطان وفخر الدين أبي كامل شافع ، رحمهمـا الله ، ليلقيا عروسـين قـد تزوجاهما مـن بني الصـوفي الحلبيين أختين ووالدي رحمـه الله في الحصن ، فخرج رجل من المدينة في شغل له في الليل فرأى أفرنجيا ، فعاد أخذ سيفه وخرج قتله ، ووقع الضياح في البلد ، وخـرج الناس فقتلوهم وغنموا ما كان معهم مـن النسـاء والصـبيان والفضـة والبهائم .

وفي شيزر امرأة من نساء اصحابنا يقـال لهـا نضرة بنت بـوز رماط خرجت مع الناس أخذت أفرنجيا أدخلتـه بيتهـا ، وخـرجت أخذت أخر أدخلته بيتها ، وعادت خرجت أخـذت آخـر ، فـاجتمع عندها ثلاثة من الأفرنج ، فاخذت ما كان معهم وما صلح لهـا مـن سلبهم وخرجت دعت قوما من جيرانها قتلوهم .

ووصل عماي والعسكر في الليل ، وقد كان انهـزم مـن الافـرنج ناس وتبعهم رجال من شيزر فقتلوهـم في ظـاهر البلد ، فصـارت

الخيل تعثر في الليل في القتلى ، ولايدرون بماذا تعثر ، حتى ترجل أحدهم وأبصر القتلى في الظلام ، فهالهم ذلك واعتقدوا أن البلد قد كبس .

وكانت غنيمة ساقها الله عز وجل إلى الناس ، فصار إلى دار والدي ، رحمه الله ، عدة من الجواري من سبيهم ، وهم ، لعنهم الله ، جنس ملعون لايألفون لغير جنسهم ، فرأى منهم جارية مليحة شابة فقال لقهرمانة داره : « ادخلي هذه الحمام ، واصلحي كسوتها ، واعملي شغلها للسفر » ، ففعلت ، وسلمها إلى بعض خدامه وسيرها إلى الامير شهاب الدين مالك بن سالم بن مالك صاحب قلعة جعبر ، وكان صديقه ، وكتب إليه يقول : « غنمنا من الافرنج غنيمة قد نفذت لك سهما منها » ، فوافقته وأعجبته واتخذها لنفسه ، فولدت له ولدا سماه بدران فجعله أبوه ولي عهده ، وكبر ومات والده ، وتولى بدران البلد والرعية وأمه الآمرة الناهية ، فواعدت قوما وتدلت من القلعة بحبل ومضى بها أولئك الى سروج ، وهي إذ ذاك للافرنج ، فتزوجت بافرنجي اسكاف وابنها صاحب قلعة جعبر .

وكان في أولئك الذين صاروا الى دار والدي امرأة عجوز ومعها بنت امرأة شابة حسنة الخلقة وابن مشتد ، فاسلم الابن وحسن اسلامه فيما يرى من صلاته وصومه ، وتعلم الترخيم من مرخم كان يرخم دار والدي ، فلما طال مقامه زوجه الوالد بامرأة من قوم صالحين ، وقام له بكل ما احتاجه لعرسه وبيته ، فرزق منها ولدين وكبرا وصار لكل واحد منهما خمس ست سنين ، والغلام راؤول أبوهما مسرور بهما ، فأخذهما وامهما وما في بيته وأصبح بافامية عند الافرنج ، وتنصر هو واولاده بعد الاسلام والصلاة والدين ، فالله تعالى يطهر الدنيا منهم .

-٥٦٨٤-

(طبائع الافرنج واخلاقهم)

سبحان الخالق الباري ، إذا خبر الانسان أمور الأفرنج سبح الله تعالى وقدسه ورأى بهائم فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لاغير ، كما في البهائم فضيلة القوة والحمل ، وساذكر شيئا من أمورهم وعجائب عقولهم .

كان في عسكر الملك فلك بن فلك فارس محتشم أفرنجي قد وصل من بلادهم يحج ويعود ، فأنس بي وصار ملازمي يدعوني « أخي » وبيننا المودة والمعاشرة ، فلما عزم على التوجه في البحر الى بلاده قال لي : «ياأخي ، أنا سائر الى بلادي ، وأريدك تنفذ معي ابنك ، وكان ابني معي ، وهو ابن أربع عشرة سنة ، إلى بلادي يبصر الفرسان ويتعلم العقل والفروسية ، وإذا رجع كان مثل رجل عاقل » ، فطرق سمعي كلام ما يخرج من رأس عاقل ، فإن ابني لو أسر ما بلغ به الاسر أكثر من رواحه إلى بلاد الافرنج ، فقلت : « وحياتك ، هذا الذي كان في نفسي ، لكن منعني من ذلك ان جدته تحبه وماتركته يخرج معي حتى استحلفتني أني أرده إليها » ، قال :« وأمك تعيش؟ » قلت :«نعم» قال :«لا تخالفها»

ومن عجيب طبهم ان صاحب المنيطرة(١٠٥) كتب إلى عمي يطلب منه إنفاذ طبيب يداوي مرضى من أصحابه ، فأرسل إليه طبيبا نصرانيا يقال له ثابت ، فما غاب عشرة أيام حتى عاد فقلنا له : « ما أسرع ما داويت المرضى !» قال : « أحضروا عندي فارسا قد طلعت في رجله دملة وامرأة قد لحقها نشاف . فعملت للفارس لبيخة ففتحت الدملة وصلحت ، وحميت المرأة ورطبت مزاجها . فجاءهم طبيب افرنجي فقال لهم : « هذا ما يعرف شيء يداويهم » وقال للفارس: « أيما أحب إليك تعيش برجل واحدة أو تموت برجلين ؟» قال : « أعيش برجل واحدة » قال : « احضروا لي فارسا قويا وفأسا قاطعا » . فحضر الفارس والفأس ، وأنا حاضر ، فحط

ساقه على قرمة خشب وقال للفارس : أضرب رجله بالفأس ضربة واحدة اقطعها . فضربه ، وأنا أراه ، ضربة واحدة ما انقطعت ، وضربه ضربة ثانية فسال مخ الساق ، ومات من ساعته ، وأبصر المرأة فقال : « هذه امرأة في رأسها شيطان قد عشقها ، احلقوا شعرها » فحلقوه ، وعادت تأكل من مأكلهم الثوم والخردل ، فزاد بها النشاف ، فقال : الشيطان قد دخل في رأسها ، فأخذ الموسى وشق رأسها صليبا وسلخ وسطه حتى ظهر عظم الرأس وحكه بالملح ، فماتت في وقتها ، فقلت لهم : بقي لكم إلي حاجة ؟ قالوا : « لا » فجئت وقد تعلمت من طبهم ما لم أكن أعرفه » .

وقد شاهدت من طبهم خلاف ذلك ، كان للملك خازن من فرسانهم يقال له برناد ، لعنه الله ، من ألعن الافرنج وأرجسهم ، فرمحه حصان في ساقه فعملت عليه رجله وفتحت في أربعة عشر موضعا ، والجراح كلما ختم موضع فتح موضع ، وأنا أدعو بهلاكه ، فجاءه طبيب أفرنجي فازال عنه تلك المراهم وجعل يغسلها بالخل الحاذق ، فختمت تلك الجراح وبرأ وقام مثل الشيطان .

ومن عجيب طبهم أنه كان عندنا بشيزر صانع يقال له أبو الفتح ، له ولد قد طلع في رقبته خنازير ، وكلما ختم موضع فتح موضع ، فدخل انطاكية في شغل له وابنه معه ، فرأه رجل افرنجي فساله عنه فقال : « هو ولدي » ، قال : « تحلف لي بدينك إن وصفت لك دواء يبرئه لا تأخذ من أحد تداويه به أجرة حتى أصف لك دواء يبرئه ؟»

فحلف . فقال : « تأخذ له اشنانا غير مطحون تحرقه وتربيه بالزيت والخل الحاذق وتداويه به حتى يأكل الموضع ، ثم خذ الرصاص المحرق وربه بالسمن ، ثم داوه به فهو يبرئه » ، فداواه بذلك فبرأ ، وختمت تلك الجراح . وعاد إلى ما كان عليه من الصحة .

وقد داويت بهذا الدواء من طلع فيه هذا الداء فنفعه وأزال ما كان يشكوه .

فكل من هو قريب العهد بالبلاد الافرنجية أجفى أخلاقا من الذين قد تبلدوا وعاشروا المسلمين .

فمن جفاء أخلاقهم ، قبحهم الله ، أنني كنت إذا زرت البيت المقدس ، دخلت الى المسجد الاقصى وفي جانبه مسجد صغير قد جعله الافرنج كنيسة ، فكنت اذا دخلت المسجد الاقصى وفيه الداوية ، وهم اصدقائي يخلون لي ذلك المسجد الصغير اصلي فيه ، فدخلته يوما فكبرت ووقفت في الصلاة . فهجم علي واحد من الافرنج مسكني ورد وجهي إلى الشرق وقال :« كذا صل !» فتبادر قوم من الداوية أخذوه أخرجوه عني ، وعدت أنا الى الصلاة ، فاغتفلهم وعاد هجم علي ذلك بعينه ورد وجهي الى الشرق وقال : « كذا صل !» ، فعاد الداوية دخلوا إليه وأخرجوه ، واعتذروا إلي ، وقالوا : « هذا غريب وصل من بلاد الافرنج في هذه الايام ، وما رأى من يصلي إلى غير الشرق » ، فقلت : « حسبي من الصلاة !» فخرجت فكنت أعجب من ذلك الشيطان وتغيير وجهه ورعدته وما لحقه من نظر الصلاة إلى القبلة .

ورأيت واحدا منهم جاء إلى الامير معين الدين ، رحمه الله ، وهو في الصخرة فقال : « تريد تبصر الله صغيرا ؟» قال : « نعم » ، فمشى بين أيدينا حتى أرانا صورة مريم والمسيح عليه السلام صغير في حجرها ، فقال : « هذا الله صغير » ، تعالى الله عما يقول الكافرون علوا كبيرا .

وليس عندهم شيء من النخوة والغيرة ، يكون الرجل منهم يمشي هو وامرأته يلقاه رجل آخر يأخذ المرأة ويعتزل بها ويتحدث معها ، والزوج واقف ناحية ينتظر فراغها من الحديث ، فاذا طولت عليه خلاها مع المتحدث ومضى .

ومما شاهدت من ذلك أني كنت اذا جئت الى نابلس أنزل في دار

رجل يقال له معز،دارن عمارة المسلمين لها طاقات تفتح الى الطريق ، ويقابلها من جانب الطريق الاخر دار لرجل افرنجي يبيع الخمر للتجار يأخذ في قنينة من النبيذ وينادي عليه ويقول : « فلان التاجر قد فتح بتيه(١٠٦) من هذا الخمر . من اراد منها شيئا فهو في موضع كذا وكذا » ، واجرته عن ندائه النبيذ الذي في تلك القنينة ، فجاء يوما ووجد رجلا مع امرأته في الفراش فقال له : « أي شيء ادخلك إلى عند امرأتي ؟» قال : « كنت تعبان دخلت استريح » ، قال : « فكيف دخلت الى فراشي ؟» قال : « وجدت فراشا مفروشا نمت فيه » ، قال : « والمرأة نائمة معك ؟» ، قال : « الفراش لها ، كنت أقدر أمنعها من فراشها؟» قال :«وحق ديني ،إن عدت فعلت كذا تخاصمت أنا وأنت» ، فكان هذا نكيره ومبلغ غيرته

ومن ذلك أنه كان عندنا رجل حمامي يقال له سالم من أهل المعرة في حمام لوالدي ، رحمه الله ، قال : « فتحت حماما في المعرة أتعيش فيها ، فدخل اليها فارس منهم ، وهم ينكرون على من يشد في وسطه المئزر في الحمام ، فمد يده فجذب مئزري من وسطي رماه ، فرآني ، وأنا قريب عهد بحلق عانتي ، فقال : « سالم ، فتقربت منه ، فمد يده على عانتي وقال : سالم ، جيد ! وحق ديني اعمل لي كذا » ، واستلقى على ظهره وله مثل لحيته في ذلك الموضع ، فحلقته فمر يده عليه فاستوطأه(١٠٧) فقال: « سالم ، بحق دينك اعمل الداما » — والداما بلسانهم الست — يعني امرأته ، وقال لغلام له : « قل الداما تجيء ، فمضى الغلام أحضرها وأدخلها ، فاستلقت على ظهرها وقال : « اعمل كما عملت لي فحلقت ذلك الشعر وزوجها قاعد ينظرني ، فشكرني ووهبني حق خدمتي » .

فانظروا إلى هذا الاختلاف العظيم : ما فيهم غيرة ولانخوة ، وفيهم الشجاعة العظيمة ، وما تكون الشجاعة إلا من النخوة والأنفة من سوء الاحدوثة .

ومما يقارب هذا أنني دخلت الحمام بمدينة صور فجلست في خلوة

فيها ، فقال لي بعض غلماني في الحمـام : « معنا امـرأة » ، فلمـا خرجت جلست على المصاطب وإذا التي كانت في الحمام قد خـرجت وهي مقابلي قد لبست ثيابها وهي واقفة مع أبيها ولم اتحقـق أنهـا امرأة ، فقلت لواحد من أصحابي : « بالله أبصر هذه امرأة هي ؟ » وأنا اقصد أن يسال عنهـا ، فمضى ، وأنا أراه ، رفـع نيلهـا وطلع فيها ، فالتفت إلي أبوها وقال : « هذه ابنتي ، ماتت أمها وما لهـا من يغسل رأسها ، فأدخلتها معي الحمام غسلت رأسـها » ، قلت : « جيد عملت ، هذا لك فيه ثواب » .

ومن عجيب طبهم ما حدثنا به كليام دبور صاحب طبـرية ، وكان مقدما فيهم ، واتفق أنه رافق الأمير معين الدين ، رحمه الله ، من عكا الى طبرية وأنا معه ، فحدثنا في الطـريق قـال : « كان عندنا في بلادنا فارس كبير القدر فمرض وأشرف على الموت ، فجئنا الى قس كبير من قسوسنا قلنا : تجيء معنا حتى تبصر الفارس فـلانا ؟ قال : « نعم »

ومشى معنا ، ونحن نتحقق أنه إذا حط يده عليه عوفي ، فلمـا رآه قال : « اعطوني شمعا ، فأحضرنا له قليل من الشمع ، فلينه وعمله مثل عقد الاصبع ، وعمل كل واحدة في جانب اذفه ، فمات الفارس .

فقلنا له : « قد مات » قال : « نعم ، كان يتعذب سددت أذفـه حتى يموت ويستريح » .

دع ذا وعد القوم في هـرم

نرجع من حديث مجاريهم :

حضرت بطبرية في عيد من أعيادهم ، وقد خـرج الفـرسان يلعبـون بالرماح وقد خرج معهم عجوزان فانيتان أوقفـوهما في رأس الميدان وتركوا في رأسه الآخـر خنزيرا سـمطوه وطـرحوه على صـخرة ، وسابقوا بين العجوزين ومع كل واحـدة منهـن سرية مـن الخيالة يشدون منها ، والعجائز يقمـن ويقعـن على كل خـطوة ، وهـم

يضحكون ، حتى سبقت واحـــدة منهـــن ، فــأخذت ذلك الخنزير في سبقها .

وشهدت يوما بنابلس وقد احضروا اثنين للمبارزة ، وكان ســبب ذلك ان حرامية من المسلمين كبسوا ضيعة من ضياع نابلس فاتهموا بها رجلا من الفــلاحين ، وقـــالوا : « هـــو دل الحـــرامية على الضيعة » ، فهرب . فنفــذ الملك فقبض أولاده ، فعــاد إليه وقــال : « انصــفني ، أنا أبــارز الذي قــال عني أني دللت الحــرامية على القرية » ، فقال الملك لصــاحب القــرية المقـــطع : « أحضر مـــن يبارزه » ، فمضى الى قريته وفيها رجل حــداد فــأخذه ، وقــال له : «تبارز» اشفاقا من المقطع على فلاحيه لا يقتل منهم واحــد فتخــرب فلاحته ، فشاهدت هذا الحداد ، وهـو شاب قوي إلا أنه قد انقــطع ، يمشي ويجلي و يطلب ما يشربه ، وذلك الآخر الذي طلب البراز شيخ إلا أنه قوي الذفس يزجر وهـــو غير محتفــل بـــالمبارزة ، فجـــاء البسكند(١٠٨) وهـو شحنة البلد ، فأعطى كل واحد منهما العصـــا والترس ، وجعل الناس حولهم حلقة .

والتقيا فكان الشيخ يلز ذلك الحداد ، وهـو يتأخر حتى يلجئه الى الحلقة ، ثم يعود إلى الوسط ، وقد تضاربا حتى بقيا كعمود الدم ، فطال الامر بينهما والبسكند يستعجلهما وهـو يقول بالعجلة ، ونفـــع الحداد إدمانه بضرب المطرقة ، واعيى ذلك الشيخ ، فضربه الحداد ، فوقع ووقعت عصاه تحت ظهره ، فبرك عليه الحداد يداخل اصابعه في عينيه ولايتمكن من كثرة الدم من عينيه ، ثم قام عنه وضرب رأســه بالعصا حتى قتله ، فطرحوا في رقبته في الوقت حبلا وجروه شنقوه ، وجاء صاحب الحداد أعطاه غفارته وأركبه خلفه وأخذه وانصرف . وهذا من جملة فقههم وحكمهم لعنهم الله

ومضيت مرة مع الأمير معين الدين ، رحمه الله ، إلى القــدس ، فنزلنا نابلس ، فخرج إلى عنده رجل أعمى ، وهـو شاب عليه ملبوس جيد مسلم ، وحمل له فاكهة وســأله في أن يأذن له في الوصـــول إلى

خدمته إلى دمشق ، ففعل ، وسألت عنه فخبرت أن أمه كانت متزوجة لرجل أفرنجي فقتلته ، وكان ابنها يحتال على حجاجهم ويتعاون هو وأمه على قتلهم ، فاتهموه بذلك وعملوا له حكم الافرنج · جلسوا بتيه عظيمة وملأوها ماء ، وعرضوا عليها دف خشب ، وكتفوا ذلك المتهم وربطوا في كتافه حبلا ورموه في البتية ، فإن كان بريا غاص في الماء فرفعوه بذلك الحبل لايموت في الماء ، وإن كان له الذنب ما يغوص في الماء ، فحرص ذلك لما رموه في الماء أن يغوص ، فما قدر ، فوجب عليه حكمهم ، لعنهم الله ، فكحلوه .

ثم إن الرجل وصل إلى دمشق فأجرى له الامير معين الدين ، رحمه الله ، ما يحتاجه ، وقال لبعض غلمانه : « تمضي به إلى برهان الدين البلخي ، رحمه الله ، تقول له : تأمر من يقرىء هذا القرآن ، وشيئا من الفقه » ، فقال له ذلك الاعمى : « النصر والغلب ، ما كان هذا ظني » ، قال : « وما ظننت بي ؟ قال : « تعطيني الحصان والبغلة والسلاح وتجعلني فارسا » ، قال : « ما اعتقدت أن أعمى يصير من الفرسان » .

ومن الافرنج قوم قد تبلدوا وعاشروا المسلمين فهم أصلح من القريبي العهد ببلادهم ، ولكنهم شاذ لايقاس عليه .

فمن ذلك أنني نفذت صاحبا إلى أنطاكية في شغل ، وكان بها الرئيس تادرس بن الصفي وبيني وبينه صداقة ، وهو نافذ الحكم في أنطاكية ، فقال لصاحبي يوما : « قد دعاني صديق لي من الافرنج ، تجيء معي حتى ترى زيهم » ، قال : « فمضيت معه فجئنا الى دار فارس من الفرسان العتق الذين خرجوا في أول خروج الافرنج ، وقد اعتفى من الديوان والخدمة ، وله بأنطاكية ملك يعيش منه ، فأحضر مائدة حسنة وطعاما في غاية النظافة والجودة . ورآني متوقفا عن الأكل ، فقال : كل طيب النفس ، فأنا ما أكل من طعام الافرنج ، ولي طباخات مصريات ما آكل إلا من طبيخهن . ولايدخل داري لحم خنزير ، فأكلت وأنا محتزر وانصرفنا .

فانا بعد مجتازا في السوق وامرأة افرنجية تعلقت بي وهي تبربر بلسانهم وما أدري ما تقول ، فاجتمع علي خلق من الافرنج ، فايقنت بالهلاك ، وإذا ذلك الفارس قد أقبل فرآني ، فجاء فقال لتلك المرأة : « ما لك ولهذا المسلم ؟» قالت : « هذا قتل أخي عرس وكان هذا عرس فارسا بافامية قتله بعض جند حماة . فصاح عليها وقال : « هذا رجل برجاسي – اي تاجر – لايقاتل ولايحضر القتال ، وصاح على أولئك المجتمعين ، فتفرقوا وأخذ بيدي ومضى ، فكان تأثير تلك المؤاكلة خلاصي من القتل» .

من عجائب القلوب

ومن عجائب القلوب أن الانسان يخوض الغمرات ويركب الاخطار ولايرتاع قلبه من ذلك ، ويخاف ما لايخاف منه الصبيان ولا النسوان ٠

ولقد رأيت عمي عز الدين أبا العساكر سلطان ، رحمه الله ، وهو من أشجع أهله له المواقف المشهورة والطعنات المذكورة ، وهو إذا رأى الفأرة تغيرت صورة وجهه ولحقه كالزمع من نظرها ، وقام من الموضع الذي يراها فيه .

وكان في غلمانه رجل شجاع معروف بالشجاعة والاقدام اسمه صندوق ، يفزع من الحية حتى يخرج من عقله ، فقال له والدي ، رحمه الله ، وهو واقف بين يدي عمي : « ياصندوق ، أنت رجل جيد معروف بالشجاعة ما تستحي تفزع من الحية ؟» قال : « يامولاي ، وأي شيء في هذا من العجب ؟ في حمص رجل شجاع بطل من الابطال يفزع من الفأرة ويموت » ــ يعني مولاه ــ فقال له عمي ، رحمه الله : « قبحك الله ياكذا كذا »

ورأيت مملوكا لوالدي ، رحمه الله ، يقال له لؤلؤ ، وكان رجلا جيدا مقداما ، وقد خرجت ليلة من شيزر ومعي بغال كثيرة وبهائم أريد أحمل عليها من الجبل خشبا قد قطعته هناك لناعورة لي ، فسرنا من ظاهر شيزر ونحن نظن أن الصبح قد دنا ، فوصلنا إلى قرية يقال لها دبين(١٠٩) وما تنصف الليل ، فقلت : « انزلوا ما ندخل الجبل في الليل »

فلما نزلنا واستقررنا سمعنا صهيل حصان ، فقلنا . « الافرنج !» فركبنا في الظلام وأنا أحدث نفسي أني اطعن واحدا منهم وآخذ حصانه ويأخذ دوابنا الرجال الذين مع الدواب ،

فقلت للؤلؤ وثلاثة من الغلمان :« تقدمونا ، اكشفوا هذا الصهيل » ، فتقدموا يركضون ، فلقوا أولئك وهم في جمع وسواد كثير ، فسبق اليهم لؤلؤ وقال : « تكلموا ، والا اقتلكم كلكم » ، وهو رام جيد ، فعرفوا صوته وقالوا « حاجب لؤلؤ ؟» قال : « نعم » ، وإذا هم عسكر حماة مع الأمير سيف الدين سوار (١١٠) رحمه الله ، قد أغاروا على بلاد الافرنج وعادوا ، فكان هذا اقدامه على ذلك الجمع ، وإذا رأى في بيته حية خرج منهزما وقال لامرأته : دونك والحية ، فتقوم إليها تقتلها .

والمحارب ، ولو أنه الاسد ، أتلفه وأعجزه اليسير من العوائق ، كما أصابني على حمص ، جرحت وقتل حصاني ، وضربت خمسين سيفا – كل ذلك لنفاذ المشيئة ، ثم لتواني الركابي في تركيب عنان اللجام ، فإنه عقده في الباشات (١١١) لم يشدقه فلما جذبته أريد الخروج من بينهم انحل العنان من عقدته في الباشات ، فنالني مانالني .

وقد كان صاح الصائح يوما بشيزر من القبلة ، فلبسنا وفزعنا ، فكان الصائح كذابا ، فرحل أبي وعمي ، رحمهما الله ، ووقفت بعدهما ، فوقع الصائح من الشمال من جانب الافرنج ، فركضت حصاني إلى الصائح ، فرأيت الناس في المخاض يركب بعضهم بعضا وقالوا : « الفرنج !» فعبرت المخاض وقلت للناس : «لا بأس عليكم ، أنا دونكم !» ، ثم طلعت أركض إلى رابيه القرافطه ، وإذا الخيل مقبلة في جمع كثير ، وقد تقدم منهم فارس لابس زردية وخوذة ، وقد دنا مني ، فقصدته استفرص بعده من أصحابه ، واستقبلني ، فحين حركت حصاني اليه انقطع ركابي وما بقي لي مندوحة عن لقائه فقمت إليه بلا ركاب ، فلما تدانينا ولم يبق غير الطعن سلم علي وخدمني وإذا هو السلار عمر خال السلار زين الدين اسماعيل بن عمر بن بختيار ، وكان نهض مع عسكر حماة إلى بلد كفر طاب ، فخرج عليهم الافرنج فعادوا الى شيزر منهزمين ، وتقدمهم الامير سوار ، رحمه الله .

فسبيل الرجل المحارب يتفقد عدة حصانه ، فـان أيسر الأشـياء وأقلها يؤذي ويهلك ، كل ذلك مقرون بمـا تجـري بـه الاقـدار والاقضية .

وقد شهدت قتال الأسد في مواقف لا أحصيها ، وقتلت عدة منهـا لم يشركني أحد في قتلها ، فما نالني من شيء منها أذى .

وخرجت يوما مع والدي ، رحمه الله ، إلى الصيد في جبل قـريب من البلد نصيد منه الحجـل بـالبزاة ، ويكون الوالد ونحـن معـه والبازيارية على الجبل وبعض الغلمان والبازيارية أسفل من الجبـل للتخليص من البزاة والوقوف على النبج ، فقامت لنا ضبعة فـدخلت مغارة ، وفي تلك المغارة محجر دخلت فيه ، فصحت بغلام لي ركابـي اسمه يوسف خلع ثيابه واخذ سكينه ودخل في ذلك المحجـر ، وانا في يدي قنطـــــــــارية مستقبل الموضع إذا خرجت طعنتها ، فصاح الغـلام : « اليكم قـد خرجت !» فطعنتها أخطأتها لأن الضبعة رقيقـة الحجـم ، فصـاح الغلام « عندي ضبعة أخرى !» فخرجت في إثرها ، فقمت وقفـت في باب المغارة وهي ضيقة الباب متعلية قدر قامتين انظـر مـا يعمـل اصحابنا الذين في الوطا بالضباع التي نزلت اليهم ، فخرجت ضبعة ثالثة ، وأنا مشغول بالنظر إلى الاوائل ، فندستني(١١٢) رمتني من باب المغارة الى القرارة التي تحته فكادت تكسرني ، فتأنيت بضبعة وما تأنيت بالسباع فسبحان مقدر الاقدار ومسبب الاسباب.

وشاهدت من ضعف نفوس بعض الرجال وخورهم ما لا كنت أظنه بالنساء ، فمن ذلك أنني كنت يومـا على بـاب دار والدي ، رحمـه الله ، وأنا صبي عمري دون العشر سنين ، فلطم غلام لوالدي اسمه محمد العجمي صبيا مـن خـدام الدار ، فـانهزم منه وجـاء تعلق بثوبي ، فلحقه وهو ماسك بثوبي فلطمه ، فضربتـه بقضـيب كان في يدي فدفعني ، فجذبت من وسطي سكينا ضربته بها فوقعت في بـزه الايسر ، فوقع ، وجاءنا غلام كبير لوالدي يقال له القائد اسد فوقف

عليه ونظر الجرح واذا تنفس طلع منه الدم مثل فواقع الماء ، فاصفر وارتعد ووقع مغشيا عليه ، فحمل الى داره وكان يسكن معنا في الحصن على تلك الحال ، فما أفاق من غشيته إلى آخر النهار ، وقد مات المجروح وقبر .

ومما يقارب ذلك : كان يزورنا إلى شيزر رجل من أهل حلب فيه فضل وأدب يلعب بالشطرنج طبقة ، ويلعب بها غائبا ، يقال له أبو المرجى سالم بن قانت ، رحمه الله ، فكان يقيم عندنا السنة والاكثر والأقل ، فربما مرض فيصدف له الطبيب الفصاد ، فاذا حضر الفاصد تغير لونه وارتعد ، فاذا فصده غشي عليه فلا يزال في غشيه حتى يشد فصاده ثم يفيق .

ومما يضاد ذلك انه كان في أصحابنا من بني كنانة رجل أسود يقال له علي بن فرج طلعت في رجله حبة فتخبثت ، وتناثرت اصابعه وانتنت رجله ، فقال له الجرائحي : « مالرجلك إلا القطع ، وإلا تلفت » ، فحصل عنده منشارا وجعل ينشر ساقه حتى يغلبه فيض الدم ويغشى عليه ، فإذا هو افاق عاد إلى نشرها حتى قطعها من نصف ساقه ، وداواها فبرات .

وكان ، رحمه الله ، من أجلد الرجال وأقواهم ، فكان يركب في سرجه بركاب واحد ، وفي الجانب الاخر سير تكون فيه ركبته ، ويحضر القتال ويطاعن الفرنج وهو على تلك الحال ، وكنت أراه ، رحمه الله ، لايستطيع رجل يشابكه ولايقابضه ، وكان خفيف الروح مع قوته وشجاعته .

فأصبح يوما من الايام ، وهو وبنو كنانة يسكنون حصننا حصن الجسر ، أرسل إلى رجال من وجوه بني كنانة فقال : « اليوم يوم مطير ، وعندي فضلة نبيذ ومأكول تتفضلون علي بالحضور لنشرب » ، فاجتمعوا عنده ، فجلس في باب البيت وقال : « هل فيكم من يقدر يخرج من الباب إن لم أشأ ؟» يشير إلى قوته ، قالوا :« لا

والله » ، قال : « هذا يوم مطير ، وما أصبح في داري دقيق ولاخبز ولانبيذ ، وما فيكم إلا من في داره ما يحتاجه ليومه ، أنفذوا الى دوركم أحضروا طعامكم ونبيذكم ، والبيت من عندي ، ونجتمع اليوم نشرب ونتحدث » ، قالوا كلهم : « نعم ما رأيت ياأبا الحسن » ، وأنفذوا احضروا ما في دورهم من طعام وشراب وقضوا نهارهم عنده ، وكان رجلا محترما ، فتعالى من خلق الخلق أطوارا ، أين جلد هذا وقوة نفسه من خور أولئك وضعف نفوسهم ؟ .

وقريب من هذا أن رجلا من بني كنانة حدثني بحصن الجسر أن رجلا في الحصن استسقى فشق بطنه فبرىء ، وعاد صحيحا كما كان ، فقلت أريد أبصره واستخبره ، وكان الذي حدثني رجل من بني كنانة يقال له أحمد بن معبد بن أحمد ، فأحضر ذلك الرجل عندي ، فاستخبرته عن حاله وكيف فعل بنفسه فقال : « أنا رجل صعلوك وحيد استسقى جوفي ، وكبرت حتى عجزت عن التصرف ، وتبرمت بالحياة ، فأخذت موسى وضربت به فوق سرتي في عرض جوفي ، شققته ، فخرج منه قدر طباختين ماء — يعني قدرين — ومازال الماء يفز منه حتى ضمر جوفي ، فخيطته وداويت الجرح فبرأ ، فزال ما كان بي » ، وأراني موضع الشق في جوفه أطول من شبر ، ولا شبهة إن هذا الرجل كان له في الارض رزق يستوفيه .

وإلا فقد رأيت من استشفى وفصد الطبيب جوفه فخرج منه من الماء كما خرج من الذي بزل نفسه ، إلا أنه مات من ذلك الفصد ، لكن الاجل حصن حصين .

النصر في الحرب من الله تبارك وتعالى لابترتيب وتدبير ولا بكثرة نفير ولا نصير ، وقد كنت إذا بعثني عمي ، رحمه الله ، لقتال أتراك أو افرنج أقول له : « يامولاي ، امرني بما أتدبر به إذا لقيت العدو » . فيقول : « يابني ، الحرب تدبر نفسها » ، وصدق .

وكان أمرني أن آخذ امرأته وأولاده خاتون بنت تاج الدولة تتش

والعسكر وأمضى أوصلهم إلى حصن مصياث ، وهو إذ ذاك له ، وكان يشفق عليهم من حر شيزر ، فركبت وركب أبي وعمي ، رحمهما الله ، معنا إلى بعض الطريق ، وعادا وليس معهما الا المماليك الصغار لجر الجنائب وحمل السلاح ، والعسكر كله معي ، فلما قربا من المدينة سمعا طبل الجسر يضرب ، فقالا : « شيء قد جرى في الجسر» فدفعا خيلهما تناقلا ونخبا(١١٣) الى الجسر ، وكان بيننا وبين الافرنج ، لعنهم الله ، هدنة ، فنفذوا من كشف لهم مخاضة يعبرون منها الى مدينة الجسر ، وهي في جزيرة لايعبر اليها الا من جسر معقود بالحجر والكلس لايصل الافرنج إليه ، فدلهم ذلك الجاسوس على مخاضة ، فركبوا جميعهم من أفامية فأصبحوا إلى ذلك الموضع الذي دلهم عليه ، عبروا الماء وملكوا المدينة ونهبوا وسبوا وقتلوا ، ونفذوا بعض السبي والنهب إلى أفامية وملكوا الدور ، وعلم كل واحد منهم صليبه على دار وركز عليها رايته .

فلما أشرف أبي وعمي ، رحمهما الله ، على الحصن كبر أهل الحصن وصاحوا ، فالقى الله سبحانه على الافرنج الرعب والخذلان ، فنهلوا عن الموضع الذي عبروا منه ، ورموا خيلهم ، وهم بدروعهم عليها ، في غير مخاض ، فغرق منهم جماعة كثيرة ، كان الفارس يغوص في الماء فيسقط عن سرجه ويرسب في الماء ويطلع الحصان ، ومضى من سلم منهم منهزمين لايلوي بعضهم على بعض ، وهم في جمع كثير ، وأبي وعمي معهما عشرة مماليك صبيان .

فاقام عمي بالجسر ورجع أبي إلى شيزر ، وأوصلت أنا وأولاد عمي إلى مصياث وعدت من يومي وصلت العشاء ، فأخبرت بما جرى ، فحضرت عند والدي ، رحمه الله ، وشاورته في أن أمضي إلى عمي إلى حصن الجسر ، قال : تصل في الليل ، وهم نيام . ولكن سر اليهم من بكرة » . فأصبحت سرت وحضرت عنده . وركبنا وقفنا على ذلك الموضع الذي غرق فيه الافرنج .

ونزل إليه جماعة من السباح فأخرجوا جماعة من فرسانهم موتى ، فقلت لعمي : « يامولاي ، ما نقطع رؤوسهم وننفذها الى شيزر ؟» ، قال : « افعل » .

فقطعنا منهم نحو من العشرين رأسا ، فكان الدم يسيل منهم كأنهم قد قتلوا تلك الساعة ، ولهم يوم وليلة ، وأظن الماء حفظ فيهم دمهم .

وغنم الناس منهم سلاحا كثيرا من الزرديات والسيوف والقنطاريات والخوذ والكاسات الزرد ، ورأيت رجلا من فلاحي الجسر ، قد حضر عند عمي ويده تحت ثيابه ، فقال له عمي يمزح معه : « أي شيء اعزلت لي من الغنيمة ؟» قال : « اعزلت لك حصانا بعدته وزرديته وترسا وسيفا » ، ومضى أحضر الجميع ، فأخذ عمي العدة وأعطاه الحصان وقال : « اي شيء بيدك ؟» قال : « يامولاي ، تقابضت أنا والافرنجي وما معي عدة ولاسيف فرميته ولكمت وجهه وعليه اللثام الزرد حتى اسكرته ، واخذت سيفه قتلته به ، وتهرأ الجلد الذي على عقد اصابعي ، وورمت يدي فما تنفعني » ، وأظهر لنا يده وهي كما قال قد انكشفت عظام اصابعه .

وكان في جند الجسر رجل كردي يقال له أبو الجيش له بنت اسمها رفول قد سباها الافرنج ، وهو قد توسوس عليها يقول لكل من لقيه:« سبيت رفول !» فخرجنا من الغد نسير على النهر ، فرأينا في جانب الماء سوادا ، فقلنا لبعض الغلمان : « اسبح ابصر ما هذا السواد » ، فمضى إليه فاذا ذلك السواد رفول عليها ثوب ازرق وقد رمت نفسها من على فرس الافرنجي الذي أخذها فغرقت ، وعلق ثوبها في شجرة صفصاف .

فسكنت لوعة أبيها أبي الجيش ، فكانت الصيحة التي وقعت في الافرنج وهزيمتهم وهلاكهم من لطف الله عز وجل لابقوة ولابعسكر ، فتبارك الله القادر على ما يشاء .

وقد يكون الترهيب في بعض الاوقات نافعا في الحرب .

من ذلك أن أتابك ، وصل الشام وأنا معه في سنة تسع وعشرين وخمس مائة ، وسار قاصدا دمشق ، فلما نزلنا القطيفة قال لي صلاح الدين رحمه الله : اركب وتقدمنا الى الفستقية(١١٤) . أقم على الطريق لا يهرب أحد من العسكر الى دمشق». فتقدمت وقفت ساعة ، وإذا صلاح الدين قد أتى في قلة من أصحابه ، فرأينا في عذراء دخانا ، فأرسل خيلا تبصر ما هو الدخان ، فإذا هم قوم من عسكر دمشق يحرقون التبن الذي في عذراء ، فانهزموا ، فتبعهم صلاح الدين ونحن معه لعل في ثلاثين اربعين فارسا فوصلنا القصير وإذا عسكر دمشق جميعه في القصير قاطع الجسر ، ونحن عند الخان ، فوقفنا مستترين بالخان ويخرج منا خمسة ستة فوارس حتى يبصرهم عسكر دمشق ويعودون الى خلف الخان نوهمهم أن لنا كمينا .

ونفذ صلاح الدين فارسا إلى أتابك يعرفه بما نحن فيه ، فرأينا نحوا من عشرة فوارس مقبلين إلينا مسرعين ، والعسكر خلفهم متتابع ، فوصلونا واذا هو أتابك قد تقدم ، والعسكر في إثره ، فأنكر على صلاح الدين فعله وقال : « تسرعت الى باب دمشق بثلاثين فارسا لتكسر ناموسي » ، ولامه ، وهم يتكلمون بالتركي ولا أدري ما يقولون .

فلما وصلنا أوائل العسكر قلت لصلاح الدين:« عن أمرك آخذ هؤلاء الذين قد وصلوا ،وأعبر إلى خيل دمشق الواقفة مقابلنا أقلعهم » ، قال : « لا ، كذا وكذا ممن ينصح في خدمة هذا ، ما تسمع أي شيء قد عمل بي ؟» .

ولولا لطف الله تعالى ثم ذلك الترهيب والتخييل كانوا قلعونا .
وجرى لي مثل ذلك وقد سرت مع عمي ، رحمه الله ، من شيزر نريد كفر طاب ، ومعنا خلق من الفلاحين والصعاليك لنهب ما على

كفرطاب من غلة وقطن ، فانتشر الناس في النهب وخيل كفرطاب قد ركبت ووقفت عند البلد ، ونحن بينهم وبين الناس المنتشرين في الزرع والقطن ، وإذا فارس من أصحابنا يركض من الطلائع قال : « جاءت خيل أفامية » ، فقال عمي : « تقف أنت مقابل خيل كفر طاب ، وأسير أنا بالعسكر ألقى خيل أفامية » ، فوقفت في عشرة فوارس في شجر الزيتون متوارين ، ويخرج منا ثلاثة أربعة يخيلون للفرنج ويعودون إلى شجر الزيتون ، والافرنج يعتقدون أننا في جماعة فهم يجتمعون ويصيحون ويدفعون خيلهم إلى أن يقربوا منا ونحن لانتزعزع فيرجعوا ، فما زلنا كذلك حتى عاد عمي وانهزم الافرنج الذين جاؤوا من أفامية .

فقال له بعض غلمانه : « يامولاي ، ترى ما فعل - يعنيني - تخلف عنك وما سار معك للقاء خيل أفامية » ، فقال له عمي : « لولا وقوفه في عشرة فوارس مقابل خيل كفر طاب وراجلها ، كانوا أخذوا هذا العالم كله » .

فكان الترهيب والتخييل للافرنج في ذلك الوقت أنفع من قتالهم لأننا كنا في قلة وهم في جمع كثير .

وجرى لي مثل ذلك بدمشق ، كنت يوما مع الأمير معين الدين ، رحمه الله ، فأتاه فارس فقال : « قد أخذ الحرامية قافلة في العقبة حاملة خام » ، فقال لي : « نركب اليهم ؟ » قلت : « الأمر لك ، أمر الشاوشية تستركب العسكر معك » ، قال : « أي شيء حاجتنا إلى العسكر ؟» قلت : « وما يضرنا من ركوبهم ؟» ، قال : « ما نحتاجهم » ، وكان ، رحمه الله ، من أشجع الفرسان ، ولكن قوة النفس في بعض المواضع تفريط ومضرة .

فركبنا في نحو من عشرين فارسا فلما أن ضحونا نفذ فارسين كذا ، وفارسين كذا ، وفارسا كذا يكشفون الطرقات ، وسرنا نحن في قلة فحانت صلاة العصر ، فقال لغلام

لي : « ياسونج ، اشرف مغربا إلى ما نصلي » ، فما سلمنا إلا والغلام يركض ، قال : « هذه الرجالة ، وعلى رؤوسهم شقاق الخام ، في الوادي » ، فقال معين الدين ، رحمه الله : « اركبوا » ، قلت : « أمهل علينا نلبس كزاغنداتنا ، فاذا رايناهم رميناهم برؤوس الخيل ، وطعناهم فما يدرون كثيرا نحن أو قليل » . قال : « إذا وصلنا إليهم لبسنا » .

وركب وسرنا اليهم ، فلحقناهم في وادي حلبون وهو واد ضيق لعل ما بين الجبلين خمسة أذرع ، والجبال من جانبيه وعرة رفيعة ، وطريقه ضيقة إنما يمشي فيها فارس خلف فارس ، وهم في سبعين رجلا بالقسي والنشاب .

فلما وصلناهم كان غلاماننا خلفنا بسلاحنا لايصلون إلينا وأولئك قوم منهم في الوادي ومنهم قوم في سفح الجبل ، فظننت أن الذين في الوادي من أصحابنا فلاحي الضياع قد فزعوا خلفهم ، والذين في سفح الجبل هم الحرامية ، فجذبت سيفي وحملت على الذين في السفح . فلما طلع الحصان في ذلك الوعر إلا بآخر روحه ، فلما صرت اليهم وحصاني قد وقف ما بقي يندفع استوف واحد منهم نشابته في فوقه ليضربني .فصحت عليه وتهددته ، فمسك يده عني ، وعدت انزلت الحصان وما اصدق اخلص منهم .

وطلع الأمير معين الدين إلى أعلى الجبل يظن أن هناك من الفلاحين من يستنفزهم ، وصاح إلي من أعلى الجبل « لاتفارقهم حتى أعود » وتوارى عنا ، فرجعت الى الذين في الوادي وقد علمت انهم من الحرامية فحملت عليهم وحدي لضيق المكان فانهزموا ، ورموا ما كان معهم من الخام ، وخلصت منهم بهيمتين كانتا معهم عليهما خام أيضا ، وطلعوا إلى مغارة في سفح الجبل ونحن نراهم وما لنا إليهم سبيل .

وعاد الأمير معين الدين ، رحمه الله ، آخر النهار وما وجد من يستذفره .

ولو كان معنا العسكر كنا ضربنا رقابهم واستخلصنا كل ما معهم .

وقد جرى لي مرة أخرى مثل هذا ، والسبب فيه نفاذ المشيئة ، ثم قلة المخبرة بالحرب ، وذلك أننا سرنا مع الامير قطب الدين خسرو ابن تليل من حماة نريد دمشق إلى خدمة الملك العادل نور الدين ، رحمه الله ، فوصلنا الى حمص . فلما عزم على الرحيل على طريق بعلبك قلت له : « انا أتقدم أبصر كنيسة تعنايل الى حين تصل » ، قال : « افعل » .

فركبت ومضيت . فأنا في الكنيسة جاءني فارس من عنده يقول : « قد خرجت رجالة حرامية على قافلة أخذوها ، فاركب والقني إلى الجبل » ، فركبت ولقيته ، فصعدنا في الجبل فرأينا الحرامية في واد تحتنا ، والجبل الذي نحن عليه محيط بذلك الوادي ، فقال له بعض أصحابه : « ننزل اليهم ؟» قلت : « لاتفعل ، ندور على الجبل ونصير فوق رؤوسهم نحول بينهم وبين طريقهم الى المغرب ، ونأخذهم » ، وكانوا من بلاد الافرنج ، فقال آخر :« إلى ما ندور على الجبل ، نكون قد وصلنا إليهم وأخذناهم » ، فنزلنا ، فلما رآنا الحرامية صعدوا في الجبل ، فقال لي : « اصعد اليهم » ، فحرصت على الطلوع ، فما قدرت .

وكان على الجبل منا خيالة ستة سبعة . فترجلوا اليهم ، وجاءوا يقودون خيلهم معهم ، وأولئك في جماعة ، فحملوا على أصحابنا فقتلوا منهم فارسين ، وأخذوا حصانيهما وحصانا آخر ، وسلم صاحبه ، ونزلوا من جانب الجبل الآخر بالغنيمة ، وعدنا نحن وقد قتل منا فارسان وأخذ منا ثلاثة حصن والقافلة ، فهذا تغرير لقلة المخبرة بالحرب .

فأما التغرير في الاقدام فما هو الزهد في الحياة ، وإنما سببه أن الرجل إذا عرف بالاقدام ووسم باسم الشجاعة وحضر القتال طالبته همته بفعل ما يذكر به ويعجز عنه سواه ، وخافت نفسه الموت وركوب الخطر ، فتكاد تغلبه وتصده عما يريد يفعله ، حتى يضطرها ويحملها على مكروهها ، فيعتريه الزمع وتغير اللون لذلك ، فإذا دخل في الحرب بطل روعه وسكن جأشه .

ولقد حضرت حصار حصن الصور(١١٥) مع ملك الامراء أتابك زنكي ، رحمه الله – وقد تقدم شيء من ذكره – وكان للأمير فخر الدين قرا أرسلان بن داود بن سقمان بن أرتق رحمه الله . وكان مشحونا بالرجال الجرخية ، وذلك بعد كسرته على آمد ، فأول ما ضربت الخيام نفذ رجلا من أصحابه صاح تحت الحصن : « ياجماعة الجرخية ، يقول لكم أتابك : ونعمة السلطان لئن قتل من أصحابي رجل واحد بنشابكم لاقطعن أيديكم » ، ونصب على الحصن المجانيق .

فهدمت جانبا منه وما بلغ الهدم منه بحيث تطلع اليه الرجال ، فجاء رجل من جندارية أتابك من أهل حلب يقال له ابن العريق ، طلع في تلك الثغرة وضاربهم ، بسيفه فجرحوه عدة جراح ورموه من البرج الى الخندق ، وتكاثر الناس عليهم في تلك الثغرة فملكوا الحصن ، وطلع نواب أتابك إليه فأخذ مفاتيحه نفذها الى حسام الدين تمرتاش بن إيلغازي بن ارتق ، واعطاه الحصن .

واتفق أن نشابة جرخ ضربت رجلا من الخراسانية في ركبته قطعت الفلكة التي على مفصل الركبة ، فمات .

فأول ما ملك أتابك الحصن استدعى الجرخية ، وهم تسعة نفر ، فجاؤوا وقسيهم موتورة على أكتافهم ، فأمر بحز إبهاماتهم من زنودهم ، فاسترخت أيديهم وتلفت .

وأما ابن العريق فداوى جراحه وبرأ بعد أن شارف الموت ، وكان رجلا شجاعا يحمل نفسه على الاخطار .

ورأيت مثل ذلك وقد نزل أتابك على حصن البارعية(١١٦) وحوله صفا صخر لاتنضرب عليه الخيام ، فنزل أتابك في الوطا ووكل به الامراء بالنوبة ، فركب إليه أتابك يوما والنوبة للامير ابي بكر الدبيسي وما معه اهبة القتال ، فوقف أتابك وقال لابي بكر : « تقدم قاتلهم » . فزحف بأصحابه وهم أعراء ، وخرج اليهم الرجال من الحصن ، فتقدم رجل من أصحابه يقال له مزيد لم يكن قبل ذلك من المشهورين بالقتال والشجاعة ، فقاتل قتالا عظيما وضرب فيهم بسيفه وفرق جمعهم ، وجرح عدة جراح ، فرأيته قد حملوه الى العسكر وهو في آخر رمقه ، ثم عوفي ، وقدمه أبو بكر الدبيسي وخلع عليه وجعله من جملة جنداريته .

كان أتابك يقول لي : « ثلاثة غلمان : أحدهم يخاف الله تعالى ، وما يخافني – يعني زين الدين علي كوجك ، رحمه الله – والآخر يخافني وما يخاف الله تعالى يعني نصير الدين جقر ، رحمه الله ، والآخر ما يخاف الله ولايخافني – يعني صلاح الدين محمد بن ايوب اليغسياني ، رحمه الله –

وشهدت منه ، تجاوز الله عنه ، ما يحقق قول أتابك ، وذلك أنا زحفنا يوما إلى حمص وقد أصاب الأرض في الليل مطر عظيم حتى ما بقيت الخيل تتصرف من ثقل الأرض بالوحل ، والرجالة يتناوشون ، وصلاح الدين واقف وأنا معه ، ونحن نرى الرجالة بين أيدينا ، فعدا واحد من الرجالة إلى رجالة حمص اختلط بهم ، وصلاح الدين يراه ، فقال لواحد من أصحابه : « هات ذاك الرجل الذي كان إلى جانبه » ، فمضى أحضره ، فقال له : « من هذا الذي كان انهزم من جانبك ودخل الى حمص ؟» قال : « والله ، يامولاي ، ماأعرفه » ، قال : « وسطوه » ، قلت : « يامولاي تعتقله وتكشف عن ذلك الرجل ، فإن كان يعرفه أو متّه بنسب ضربت

رقبته ، وإلا ترى فيه رأيك » ، فكأنه جنح الى قولي ، فقال غلام له من خلفه : « يهرب واحد يؤخذ الذي كان جانبه تضرب رقبته اويوسط » ، فاحذقه كلامه وقال : « وسطوه » ، فرفسوه كجاري العادة ووسطوه ، وما له ذنب إلا اللجاج وقلة مراقبة الله تعالى .

وحضرته مرة أخرى بعد ما وصلنا من مصاف بغداد ، وأتابك يجتهد يظهر تجلدا وقوة وقد أمر صلاح الدين بالمسير الى الامير قفجاق يكبسه ، فسرنا من الموصل ستة أيام ونحن في غاية الضعف ، فوصلنا موضعه وجدناه قد تعلق في جبال كوهستان ، فنزلنا على حصن يقال له ماسر ، ونزلنا عليه طلوع الشمس ، وامرأة طلعت من الحصن قالت : « معكم خام ؟» قلنا : «أي وقت هذا البيع والشراء ؟» ، قالت : « نريد الخام نكفنكم به ، فإلى خمسة أيام تموتون كلكم » ، تريد أن ذلك الموضع وخم .

فنزل ورتب الزحف إلى الحصن من بكرة وأمر النقابين يدخلون تحت برج من تلك البراج ، والحصن كله معمور بالطين ، والرجال الذين فيه من الفلاحين ، فزحفنا اليه وطلعنا إلى تلة ، ونقب الخراسانية برجا فوقع وعليه اثنان . أما الواحد فمات واما الاخر فأخذه اصحابنا وجاؤوا به الى صلاح الدين ، قال : « وسطوه » ، قلت : « يامولاي ، هذا شهر رمضان ، وهذا رجل مسلم لاتتقلد أثمه » ، قال : « وسطوه حتى يسلموا الحصن » قلت : « يامولاي ، الحصن الساعة تملكه » ، قال « وسطوه » ، ولج فيه فوسطوه ، وأخذنا الحصن في ساعتنا تلك ، فجاء الى الباب يريد قوما من أصحابه ومضى نزل في خيمته لحظة بقدر ما تفرق العسكر الذي كان معه ، ثم ركب وقال لي : « اركب » . فركبنا وطلعنا الى الحصن . فجلس وأحضر ناطور الحصن يعرفه بما فيه ، وأحضر بين يديه نساء وصبيانا نصارى ويهود .

فحضرت عجوز كردية ، فقالت لذلك الناطور : « رأيت ابني فلانا ؟ » ، قال : قتل، ضربته نشابة ، قالت : « فابني فلان ؟» قال:

وسطه الأمير ، فصاحت وكشفت رأسها وشعرها كالقطنة المندوفة ، فقال لها الناطور : « اسكتي لأجل الامير » قالت : « وأي شيء بقي الامير يعمل بي ، كان لي ولدان قتلهما » ، فدفعوها .

ومضى الناطور فأحضر شيخا كبيرا مليح الشيبة يمشي على عصاتين سلم على صلاح الدين ، قال :« أي شيء هو هذا الشيخ ؟ » ، قال « إمام الحصن » ، قال : « تقدم يا شيخ تقدم » فتقدم ، حتى جلس بين يديه ، فمد يده قبض لحيته وأخرج سكينة مشدودة في بند قبائه وقطع لحيته من حكمته ، فبقيت في يده مثل البرجم(١١٧) فقال له ذلك الشيخ: « يامولاي ، بأي شيء استوجبت ان تفعل بي هذا الفعل ؟» ، قال : « بعصيانك على السلطان ، قال : « والله ، ما علمت بوصولكم حتى جاء الناطور الساعة أعلمني واستدعاني » .

ثم رحلنا نزلنا على حصن آخر للامير تفجاق يقال له الكرخيني(١١٨) .أخذناه فوجدوا فيه خزانه ملأى بثياب خام مخيطة صدقة لفقراء مكة ، وسبى من كان في الحصن من النصارى واليهود المعاهدين ، ونهب ما فيهما نهب الروم . فالله سبحانه يتجاوز عنه .
أقف من هذا الفضل عند هذا الحد متمثلا بقولي :

دع ذكر من قتل الهوى فحديثهم
فينا يشيب ذكره المولودا(١١٩)

وأعود إلى ذكر شيء مما جرى لنا والاسماعيلية في حصن شيزر اجتاز في ذلك اليوم ابن عم لي يقال له ابو عبد الله بن هاشم رحمه الله فرأى رجلا من الباطنية في برج من دار عمي معه سيفه وترسه ، والباب مفتوح وبرا منه خلق كثير من أصحابنا ومايجسر أحد يدخل اليه ، فقال ابن عمي لواحد من أولئك الوقوف :« ادخل اليه » فدخل اليه ، فما أمهله الباطني ان ضربه فجرحه ، فخرج وهو مجروح ، فقال لآخر : « ادخل اليه » فدخل اليه ، فضربه

الباطني فجرحه وخرج كما خـــرج صـــاحبه ، فقـــال ابـــن عمـــي :« يارئيس جـــــواد ادخـــــل اليه » فقـــــال له الباطني :« يامــؤاجر (١٢٠) أنت ليش مــاتدخل ؟ تـداخل الى الناس وأنت واقف ، ادخل حتى تبصر » فدخل اليه الرئيس جــواد فقتله ، وهذا الجواد حكم في الثقاف ، رجل شجاع ثقف .

ومامر عليه الا اعوام قليلة حتى رأيته بدمشق سنة أربع وثلاثين وخمس مائة وهو علاف يبيع الشعير والتبن ، وقد كبر حتى صـــار كالشن البالي يعجز عن دفع الفـــأر عن علفـــه ، فمـــا بـــال الرجال ؟ فكنت أتعجب من أول أمــره ، عندمـــا صـــار اليه آخـــر أمره ، ومااحال من حاله طول عمره .

ولم أدر أن داء الكبر عام ، يعدي كل من أغلفه الحمـــام ، فلمـــا توقلت ذروة التسعين ، وأبلاني مر الأيام والسنين ، صرت كجـواد العلاف ، لاالجواد المتلاف ، ولصقت من الضعف بالأرض ، ودخل مــن الكبــر بعضي في بعض ، حتـــى أنكرت نفسي ، وتحسرت على أمسي ، وقلت في وصف حالي :

لما بلغت من الحياة الى مدى
قد كنت أهواه تمنيت الردا

لم يبق طول العمر مني منة

القى بها صرف الزمان اذا اعتدا

ضعفت قواي وخانني الثقتان
من بصري وسمعي حين شارفت المدا

فاذا نهضت حسبت أني حامل
جبلا وأمشي ان مشيت مقيدا

-٥٧٠٨-

وأدب في كفي العصا وعهدتها
في الحرب تحمل اسمرا ومهندا

وأبيت في لين المهاد مسهدا
قلقا كأنني افترشت الجلمدا

والمرء ينكس في الحياة وبينما
بلغ الكمال وتم عاد كما بدا (١٢١)

وانا القائل بمصر أذم من العيش الراحة والدعة وما كان أعجل تقضيه وأسرعه :

أنظر الى صرف دهري كيف عودني
بعد المشيب سوى عاداتي الأول

وفي تغاير صرف الدهر معتبر
واي حال على الأيام لم تحل

قد كنت مسعر حرب كلما خمدت
ذكيتها باقتداح البيض في القلل

همي منازلة الأقران احسبهم
فرائسي فهم مني على وجل

أمضي على الهول من ليل وأهجم من
سيل وأقدم في الهيجاء من أجل

فصرت كالغادة المكسال مضجعها
لى الحشايا وراء السجف والكلل

قد كنت أعفن من طول الثواء كما
يصدى المهند طول اللبث في الخلل

أروح بعد دروع الحرب في حلل
من الد بيقي فبؤسا لي وللحلل

وما الرفاهة من رامي ولاأربي
ولا التنعيم من شأني ولا شغلي

ولست أرضى بلوغ المجد في رفه ولا
العلى دون حطم البيض والأسل (١٢٢)

وكنت أظن أن الزمان لايبلى جديده ، ولايهي شديده ، وأني اذا عدت الى الشام وجدت به أيامي كعهدي ، وماغيرها الزمان بعدي ، فلما عدت كذبتني وعود المطامع ، وكان ذلك الظن كالسراب اللامع ، اللهم غفرا هذه جملة اعتراضية عرضت ، ونفثه هم اقضت ثم انقضت أعود الى المهم ، وأدع تعسف الليل المدلهم ، لو صفت القلوب من كدر الذنوب ، وفوضت الى عالم الغيوب ، علمت أن ركوب اخطار الحروب ، لاينقص مدة الاجل المكتوب .

فإنني رأيت يوم تقاتلنا نحن والاسماعيلية في حصن شيزر معتبر يوضح للشجاع العاقل ، والجبان الجاهل ، أن العمر موقت مقدر ، لايتقدم أجله ولايتأخر ، وذلك أننا بعد فراغنا ذلك اليوم من القتال ، صاح انسان من جانب الحصن :« الرجال !» وعندي جماعة من أصحابي معهم سلاحهم ، فبادرنا الى الذي صاح ، فقلنا :« مالك ؟» فقال :« حس الرجال هاهنا » فجئنا الى اصطبل خال مظلم ، فدخلناه فوجدنا فيه رجلين معهما سلاحهما ، فقتلناهما ، ووجدنا رجلا من أصحابنا مقتولا ، وهو على شيء ، فرفعناه وجدنا تحته رجلا من الباطنية قد تسجى ورفع

المقتول على صدره ، فحملنا صاحبنا وقتلنا الذي كان تحته ووضعنا صاحبنا في الجـامع بـالقرب مـن ذلك المكان وفيه جـراح عظيمة ، ولاشك أنه ميت لايتحرك ويتنفس ، وأنا والله كنت احرك رأسه على بلاط الجامع برجلي ، ولاشـك أنه ميت كان السـكين اجتاز بذلك الاصطبل فسمع حسا ، فـادخل رأسـه ليحقـق السماع ، فجذبه واحد منهم وضربوه بالسكاكين حتى ظنوا أنه قـد مات ، فقضى الله سبحانه ان خيطت تلك الجراح في رقبته وفي جسمه وعوفي وعاد من الصحة الى ماكان عليه ، فتبارك الله مقدر الأقـدار وموقت الآجال والأعمار .

وشاهدت مايقارب ذلك وهو أن الافـرنج ، لعنهـم الله ، اغاروا علينا ثلث الليل الآخـر ، فـركبنا نريد نتبعهـم ، فمنعنا عمـي عز الدين ، رحمه الله من اتبـاعهم وقـال :« هـذه مـكيدة ، والاغارة ماتكون بالليل » ، وخرج من البلد رجالة خلفهم ماعلمنا بهم ، فوقع الافرنج ببعضهم عند رجوعهم قتلوهـم وسلم بعضهم .

وأصبحت أنا واقفا في بندر قنين قرية عند المدينة ، فرأيت ثـلاثة شخوص مقبلة : أما اثنان فكالناس ، وأما الأوسـط فمـا وجهـه كوجوه الناس ، فلما دنوا منا واذا الوسـطاني منهـم قـد ضربـه افرنجي بسيف في وسط انفه فقطع وجهه الى اذنيه ، وقد استرخى نصف وجهه صار على صدره وبين النصفين من وجهه فتح قريب من شبر وهو يمشي بين رجلين ، فدخل البلد وخاط الجـرائحي وجهـه وداواه ، فالتحم ذلك الجرح ، وعوفي وعاد الى مـاكان عليه الى أن مـات على فـراشه ، كان يبيع الدواب ويسـمى ابـن غازي المشطوب ، وانما سمي المشطوب بتلك الضربة ، فلا يظن ظـان أن الموت يقدمه ركوب الخطر ، ولايؤخره شدة الحـذر ، ففـي بقـائي أوضح معتبر ، فكم لقيت مـن الأهـوال ، وتقحمـت المخـاوف والأخـطار ، ولاقيت الفـرسان ، وقتلت الأسـود ، وضربـت بالسيوف ، وطعنت بالرماح ، وجرحت بالسهام والجـروخ ـ وأنا من الاجل في حصن حصين ـ الى أن بلغت تمام التسعين ، فـرأيت

- ٥٧١١ -

الصحة والبقاء ، كما قال صلى الله عليه وسلم :« كفى بالصحة داء » فاعقبت النجاة من تلك الأهوال ، وماهو اصعب من القتل والقتال ، وكان الهلاك في كنة الجيش ، أسهل من تكاليف العيش ، استرجعت مني الأيام بطول الحياة ، سائر محبوب اللذات ، وشاب كدر النكد ، صفو العيش الرغد ، فأنا كما قلت :

مع الثمانين عاث الدهر في جلدي
وساءني ضعف رجلي واضطراب يدي

اذا كتبت بخطي جد مضطرب
كخط مرتعش الكفين مرتعد

فاعجب لضعف يدي عن حملها قلما
من بعد حطم القنا في لبة الأسد

وان مشيت وفي كفي العصا ثقلت
رجلي أخوض الوحل في الجلد

فقل لمن يتمنى طول مدته
هذي عواقب طول العمر والمدد (١٢٣)

ضعفت القوة ووهت ، وتقضت بلهنية العيش وانتهت ، ونكسني التعمير بين الأنام ، والى الخمول يؤول تسعر الظلام ، حتى اصبحت كما قلت :

تناستني الآجال حتى كأنني
دريئة سفر بالفلاة حسير

ولما تدع مني الثمانون منة
كأني اذا رمت القيام كسير

-٥٧١٢-

أؤدي صلاتي قاعدا وسجودها
علي إذا رمت السجود عسير

وقد انذرتني هذه الحال أنني
دنت رحلة مني وحان مسير (١٢٤)

أعجزني وهن السنين ، عن خدمة السلاطين ، فهجرت مغشى أبوابهم ، وقطعت أسبابي من أسبابهم ، واستقلت من خدمتهم ، ورددت عليهم ماخولوني من نعمهم ، لعلمي ان ضعف الهرم ، لايقوى على تكاليف الخدم ، وأن سوق الشيخ الكبير ، لاينفق على الأمير ، ولزمت داري ، وجعلت الخمول شعاري ، ورضيت نفسي بالانفراد في الغربة ، ومفارقة الاوطان والتربة ، الى أن تسكن نفارتها عن مرارتها وصبرت صبر الاسير على قده ، والظمآن ذي الغلة عن ورده ، فناداني اليه مكاتبة مولانا الملك الناصر صلاح الدنيا والدين ، سلطان الاسلام والمسلمين ، جامع كلمة الايمان ، قامع عبدة الصلبان ، رافع علم العدل والاحسان ، محيي دولة أمير المؤمنين أبو المظفر يوسف بن أيوب ، جمل الله الاسلام والمسلمين بطول بقائه ، وأيدهم بماضي سيوفه وآرائه ، وأضفى عليهم وارف ظله ، كما اصفى لهم من الأكدار موارد فضله ، وأنفذ في البسيطة عالي أوامره ونواهيه ، وحكم صوارمه في أعناق اعاديه ، برحمة

نقبت عني في البلاد ودوني الحزن والسهل ، بمضيعة من الأرض لامال لدي ولاأهل فاستنقذني من أنياب النوائب برأيه الجميل ، وحملني الى بابه العالي بانعامه الغامر الجزيل ، وجبر ماهاضه الزمان مني ، ونفق على كرمه ماكسد على من سواه من علو سني ، فغمرني ربغرائب الرغائب ، وانهبني من انعامه أهنى المواهب ، حتى رعى لي بفائض الكرم ، ماأسلفت سواه من الخدم ، فهو يعتد لي بذلك ويرعاه ، رعاية من كأنه

شـاهده وراه ، فعـطاياه تـطرقني وأنا راقـد ، وتسري إلي وأنا محتسب قاعد، فأنا من انعامه كل يوم في مـزيد ، واكرام كتـكرمة الأهــل ، وأنا أقــل العبيد ، أمنني جميل رأيه حـــادث الحادثات ، وأخلف لي انعــامه مـا سلبه الزمـان بـالنكبات المجحفات ، وأفاض علي من نوافل فضله بعد تأدية فـرضه وسـنته مايعجز الاعناق عن حمل أيسر منته ، ولم يبق لي جوده أملا أرجـو نيله ، أقضي زماني بالدعاء له نهاره وليله ، والرحمة التي تدارك بها العباد ، وأحيي ببـركاتها البـلاد ، والسـلطان الذي أحيى سـنة الخلفاء الراشـدين ، وأقـام عمـود الدولة والدين ، والبحـر الذي لاينضب لكثرة الواردين ماؤه ، والجواد الذي لاينقـطع مـن تتـابع الوافدين عطاؤه ، فلا زالت الأمة من سيوفه في حمـى منيع ، ومـن انعامه في ربيع مـريع ، ومـن عدله في أنوار تـكشف عنهـم ظلم المظالم ، وتكف بسطة يد المعتدي الغانم ، ومن دولته القاهرة في ظل وارف ، وفي سعود متتابع آنف في أثـر سـالف ، ومـاتعاقب الليل والنهار ، ودار الفلك الدوار :

دعوت وقد أمن الحافظان
وذو العرش ممن دعاه قريب

وقد قال سبحانه للعباد
سلوني فاني سميع مجيب (١٢٥)

والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على سـيدنا محمـد وعلى آله اجمعين ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

الباب الثاني

نكت ونوادر

- ٥٧١٦ -

الباب الثاني

نكت ونوادر

(ومابكم من نعمة فمن الله) (١٢٦)

فصل

قال أسامه بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ ، غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين : هذه طرف أخبار حضرت بعضها وحدثني بعضها من أثق به جعلتها الحاقا في الكتاب ، اذ ليست مما قصدت ذكره فيما تقدم ، وابدأت منها بأخبار الصالحين ، رضي الله عنهم أجمعين .

حدثني الشيخ الأمام الخطيب سراج الدين أبو طاهر ابراهيم بن الحسين بن ابراهيم خطيب مدينة اسعرد (١٢٧) بها في ذي القعدة سنة اثنتين وستين وخمس مائة : قال حدثني ابو الفرج البغدادي (١٢٨) قال : « شهدت مجلس الشيخ الامام ابي عبد الله محمد البصري ببغداد وحضرته امرأة ، فقالت : ياسيدي انك كنت ممن شهد في صداقي ، وقد فقدت كتاب المهر ، واسألك أن تتفضل علي تقيم الشهادة بمجلس الحكم ، فقال : ما أفعل حتى تأتيني بحلاوة ، فوقفت المرأة وهي تظن أنه يمزح بقوله ، فقال : لاتطلبي ، لاأمضي معك الا أن تأتيني بالحلاوة ، فمضت ثم عادت فأخرجت من جيبها من تحت الازار قرطاسا فيه حلاوة يابسة ، فتعجب أصحابه من طلبه الحلاوة مع زهده وتعففه ، فأخذ القرطاس وفتحه ورمى بالحلاوة قطعة قطعة حتى فرغ القرطاس ، ونظره فاذا هو كتاب صداق المرأة الذي فقدته ، فقال : خذي صداقك ، فهذا هو فاستعظم من حضره ذلك ، فقال : كلوا الحلال وقد فعلتم ذلك وأكثر منه ».

حدثني الشيخ أبو القاسم الخضر بن مسلم بن قاسم الحموي بها يوم الاثنين سلخ ذي الحجة سنة سبعين وخمس مائة قال : قدم علينا رجل شريف من أهل الكوفة فحدثنا ، قال : حدثني أبي قال : كنت أدخل على قاضي القضاة الشامي الحموي فيكرمني ويجلني فقال لي يوما : « أنا أحب أهل الكوفة لشخص واحد منهم ، كنت بحماة وأنا شاب وقد توفي بها عبد الله بن ميمون الحموي ، رحمه الله ، فقالوا : أوص ، فقال : « اذا أنا مت وفرغتم من جهازي أخرجوني الى الصحراء ويطلع انسان على الرابية التي تشرف على المقابر ، وينادي : ياعبد الله بن القبيس مات عبد الله بن ميمون ، فاحضره وصل عليه » فلما مات فعلوا ماأمرهم به ، فاقبل رجل عليه ثوب خام ومئزر صوف من الجانب الذي نادى منه المنادي ، وجاء حتى صلى عليه ، والناس قد بهتوا لايكلمونه ، فلما فرغ من الصلاة انصرف راجعا من حيث جاء ، فتلاوموا اذ لم يتمسكوا به ويسألونه فسعوا في اثره ، ففاتهم ولم يكلمهم كلمة واحدة .

وقد حضرت مايقارب ذلك في حصن كيفا ، وكان في مسجد الخضر رجل يعرف بمحمد السماع له زاوية الى جانب المسجد يخرج وقت الصلاة يصلي جماعة ، ويعود الى زاويته ، وهو رجل من الأولياء ، فحضرته ـ وهو بالقرب من منزلي ـ الوفاة ، فقال :« كنت أشتهي على الله تعالى أن يحضرني شيخي محمد البستي » فما جمع له جهاز غسله وكفنه الا وشيخه محمد البستي عنده ، فتولى غسله وخرج خلفه تقدمنا صلى عليه ، ثم نزل في زاويته فأقام بها مديدة وهو يزورني وأنا أزوره ، وكان رحمه الله ، عالما زاهدا مارأيت ولا سمعت بمثله ، كان يصوم الدهر ولايشرب ماء ولايأكل خبزا ولا شيئا من الحبوب ، انما يفطر على رمانتين أو عنقود عنب أو تفاحتين ، ويأكل في الشهر مرة أو مرتين لقيمات من لحم مقلي ، فقلت له يوما :« يا شيخ أبا عبد الله ، كيف وقع لك أن

لاتأكل خبزا ولاتشرب ماء وأنت صائم أبدا ؟» قال :« صمت وطويت فوجدتني أقوى على ذلك ، فطويت ثلاثا وقلت : اجعل ما آكله كالميتة التي تحل للمضطر بعد ثلاث ، فوجدتني أقوى على ذلك فتركت الأكل وشرب الماء ، فألفت النفس ذلك ، وسكنت اليه فاستمررت على ماأنا عليه ».

وكان بعض أكابر حصن كيفا قد عمل للشيخ زاوية في بستان جعله له ، فحضر عندي في أول شهر رمضان وقال :« قد جئت مودعا » قلت :« والزاوية التي قد أعدت لك والبستان ؟» قال :« ياأخي ، مالي حاجة فيهما ، ولا أقيم » وودعني ومضى ، رحمه الله ، وذلك سنة سبعين وخمس مائة .

وحدثني الشيخ أبو القاسم الخضر بن مسلم بن قسيم الحموي بحماة في التأريخ المتقدم ، أن رجلا كان يعمل في بستان لمحمد بن مسعر ، رحمه الله ، أتى أهله وهم جلوس على أبواب دورهم بالمعرة ، فقال :« سمعت الساعة عجبا !» قالوا :« وماهو ؟» قال :« مر بي رجل معه ركوة طلب مني فيها ماء فأعطيته فجدد وضوءه ، وأعطيته خيارتين فأبى أن يأخذهما ، فقلت :« ان هذا البستان نصفه لي بحق عملي ، ولمحمد ابن مسعر نصفه بالملك » فقال :« أحج العام ؟ » قلت :« نعم » قال : « البارحة بعد انصرافنا من الوقفة مات وصلينا عليه » فخرجوا في اثره ليستفهموا منه فرأوه على بعد لايمكنهم لحاقه ، فعادوا وورخوا الحديث فكان الأمر كما قال .

حدثني الأجل شهاب الدين أبو الفتح المظفر بن أسعد بن مسعود ابن بختكين بن سبكتكين مولى معز الدولة ابن بويه بالموصل في ثامن عشر شهر رمضان سنة خمس وستين وخمس مائة قال :« زار المقتفي بأمر الله أمير المؤمنين ، رحمه الله ، مسجد صندودياء بظاهر الأنبار على الفرات الغربي ، ومعه الوزير وأنا

حاضر ، فدخل المسجد وهو يعرف بمسجد امير المؤمنين علي ، رضوان الله عليه ، وعليه ثوب دمياطي وهو متقلدا سيفا حليته حديد لايدري أنه أمير المؤمنين الا من يعرفه ، فجعل قيم المسجد يدعو للوزير ، فقال الوزير :« ويحك !ادع لأمير المؤمنين ، فقال له المقتفي رحمه الله : سله عما يذفع ، قال له : ماكان من المرض الذي كان في وجهه ، فإني رأيته في أيام مولانا المستظهر ، رحمه الله ، وبه مرض في وجهه » وكان في وجهه سلعة قد غطت أكثر وجهه فاذا أراد الأكل سدها بمنديل حتى يصل الطعام إلى فمه ؟ فقال القيم : كنت كما تعلم ، وأن أتردد الى هذا المسجد من الأنبار ، فلقيني انسان فقال : لو كنت تتردد الى فلان — يعني مقدم الأنبار — كما تتردد الى هذا المسجد لاستدعى لك طبيبا يزيل هذا المرض من وجهك ، فخامر قلبي من قوله شيء ضاق له صدري ، فنمت تلك الليلة فرأيت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضوان الله عليه وهو في المسجد يقول :ما هذه الخضرة ؟ — يعني خضرة في الأرض — فشكوت إليه مابي ، فاعرض عني ، ثم راجعته وشكوت إليه ما قاله لي ذلك الرجل فقال : أنت ممن يريد العاجلة ثم استيقظت والسلعة مطروحة الى جانبي وقد زال ماكان بي ، فقال المقتفي ، رحمه الله : صدق ثم قال لي : تحدث معه وأبصر مايلتمسه واكتب به توقيعا وأحضره لأعلم عليه ، فتحدثت معه ، فقال :« أنا صاحب عائلة وبنات ، وأريد في كل شهر ثلاثة دنانير » فكتبت عنه مطالعة وعنونها الخادم : قيم مسجد علي ، فوقع عليها بما طلب وقال لي : امض ثبتها في الديوان ، فمضيت ولم اقرأ منها سوى : يوقع له بذلك » وكان الرسم أن يكتب لصاحب المطالعة توقيع ويؤخذ منه مافيه خط أمير المؤمنين ، فلما فتحها الكاتب لينقلها وجد تحت « قيم مسجد علي » بخط المقتفي أمير المؤمنين — صلوات الله عليه : ولو كان طلب أكثر من ذلك لوقع له به »

وحدثني القاضي الامام مجد الدين أبو سليمان داود بن محمد بن الحسن بن خالد الخالدي ، رحمه الله ، بظاهر حصن كيفا يوم

الخميس ثاني وعشرين ربيع الأول سنة ست وستين وخمس مائة عن من حدثه ان شيخا استأذن على خواجا بزرك (١٢٩) رحمه الله ، فلما دخل عليه رآه شيخا مهيبا بهيا فقال :« من أين الشيخ ؟» قال :« من غربة » قال:« ألك حاجة ؟» قال :« أنا رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم الى ملك شاه » قال :« ياشيخ ، اي شيء هذا الحديث ؟» قال :« إن أوصلتني اليه بلغته الرسالة ، والا فأنا لاأزول حتى اجتمع به وأبلغه مامعي » فدخل خواجا بزرك على السلطان فأعلمه بما قاله الشيخ فقال : « أحضروه » فلما حضر قدم للسلطان مسواكا ومشطا وقال له :« أنا رجل لي بنات ، وأنا فقير لاأقدر على جهازهن وتزويجهن ، وكل ليلة أدعو الله تعالى أن يرزقني ماأجهزهن به ، فنمت ليلة الجمعة من شهر كذا ودعوت الله سبحانه بمعونتي عليهن ، فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرى النائم فقال لي :« أنت تدعو الله تعالى أن يرزقك ماتجهز به بناتك ؟» قلت : نعم يارسول الله ، فقال : امض الى فلان – وسماه – فمر ملك شاه – يعني السلطان – وقل له : قال لك رسول الله صلى الله عليه وسلم جهز بناتي ، فقلت : يارسول الله ، إن طلب مني علامة ما أقول له؟ قال : قل له بعلامة أنك كل ليلة عند النوم تقرأ سورة تبارك » فلما سمع ذلك السلطان فقال : هذه علامة صحيحة ، وماأطلع عليها غير الله تبارك وتعالى ، فان مؤدبي أمرني أن أقرأها كل ليلة عند النوم ، وأنا أفعل ذلك » ثم أمر له بكل ماطلبه لتجهيز بناته وأجزل عطيته وصرفه .

ويشبه هذا الحديث ما سمعته عن أبي عبد الله محمد بن فاتك المقرىء قال : كنت أقرأ يوما على أبي بكر بن مجاهد رحمه الله المقرىء ببغداد ، اذ ورد عليه شيخ عليه عمامة رثة وطيلسان وثياب رثة ، وكان ابن مجاهد يعرف الشيخ فقال له : ايش كان من خبر الصبية ؟ قال : « ياأبا بكر جاءتني البارحة ابنة ثالثة فطلبت مني أهلي دانقا يشترون به سمنا وعسلا يحنكونها به فلم اقدر

عليه ، فبت مهموما ، فرأت النبي ، صلى الله عليه وسلم ، فيما يرى النائم ، فقال : لاتغتم ولاتحزن ، واذا كان غدا فادخل على علي بن عيسى وزير الخليفة فأقره مني السلام وقل له : بعلامة اذك صليت علي عند قبري أربعة آلاف مرة ادفع لي مائة دينار عينا »

فقال ابو بكر بن مجاهد : ياأبا عبد الله في هذا فائدة ، وقطع علي القراءة وأخذ بيد الشيخ وقام فدخل به على علي بن عيسى ، فرأى علي بن عيسى مع ابن مجاهد شيخا لم يعرفه فقال : من أين لك ياأبا بكر هذا ؟ فقال يدنيه الوزير ويسمع منه كلامه ، فأدناه وقال : ماخطبك ياشيخ ؟ فقال الشيخ : ان ابا بكر ابن مجاهد يعلم أن لي ابنتين ، والبارحة جاءتني ثالثة ، فطلبت مني أهلي دانقا يشترون به عسلا وسمنا يحذكونها به ، فلم أقدر عليه ، فبت البارحة وأنا مهموم ، فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام وهو يقول : لاتغتم ولاتحزن ، إذا كان غدا فادخل على علي ابن عيسى واقره مني السلام وقل له : بعلامة أنك صليت علي عند قبري أربعة آلاف مرة ادفع لي مائة دينار عينا ، قال ابن مجاهد : فاغرورقت عينا علي بن عيسى بالدموع ، ثم قال : صدق الله ورسوله وصدقت أيها الرجل ، هذا شيء ماكان علم به الا الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ، ياغلام هات الكيس ، فأحضره بين يديه ، فضرب بيده اليه فأخرج منه مائة دينار ، وقال : هذه المائة التي قال لك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذه مائة أخرى للبشارة ، وهذه مائة أخرى هدية منا لك ، فخرج الرجل من عنده ، وفي كمة ثلاثمائة دينار »

وحدثني القائد الحاج أبو علي في شهر رمضان في سنة ثمان وستين وخمس مائة بحصن كيفا قال : «كنت بالموصل جالسا في دكان محمد بن علي بن مامة ، فاجتاز بنا رجل فقاعي(١٣٠)ضخم

غليظ الساقين فدعاه محمد وقال : ياعبد علي بالله حدث فلانا حديثك قال : أنا رجل أبيع الفقاع كما ترى ، فبت ليلة اربعاء وأنا

صحيح فانتبهت وقد انحل وسطي فلا أقدر على الحركة ويبست رجلاي ودقتا ، حتى بقيت الجلد والعظم فكنت أزحف الى وراء زين الدين علي كوجك رحمه الله ، فأمر بحملي الى داره فحملت ، وأحضر الأطباء وقال : أريد أن تداووا هذا ، فقالوا : نعم نداويه ان شاء الله، ثم اخذوا مسمارا فاحموه ثم كووا به رجلي فما حسست به ، فقالوا لزين الدين : مانقدر على دواء هذا ولا فيه حيلة ، فوهب لي دينارين وحمارا ، فبقي الحمار عندي نحوا من شهر ومات ، فعدت قعدت في طريقه ، فوهب لي حمارا آخر فمات ، ووهب لي حمارا ثالثا فمات ، فعدت الى سؤاله ، فقال لواحد من أصحابه : اخرج بهذا فارمه في الخندق ، فقلت له : بالله ارمني على وركي فاني ماأحس فيها بما يكون ، فقال : ماأرميك الا على رأسك ، فاذا رسول زين الدين رحمه الله قد جاءني فردني اليه - وكان الذي قاله من رميي مزاحا - فلما أحضروني بين يديه أعطاني أربعة دنانير وحمارا .

فبقيت على ماأنا عليه الى ليلة رأيت فيها فيما يرى النائم كأن رجلا وقف علي :و قال : قم ، قلت : من أنت ؟ قال : أنا علي بن أبي طالب ، فقمت وقفت ، فأنبهت امرأتي وقلت : ويحك ، قد أبصرت كذا وكذا ، فقالت : هاأنت قائم ، فمشيت على رجلي وزال ماكان بي ، ورجعت كما تراني ، فمضيت الى عند زين الدين الأمير علي كوجك رحمه الله فقصصت عليه منامي ورآني قد زال ماراه بي ، فأعطاني عشرة دنانير »

فسبحان الشافي المعافي

حدثني الشيخ الحافظ أبو الخطاب عمر بن محمد بن عبد الله بن معمر العليمي بدمشق أوائل سنة اثنتين وسبعين وخمس مائة قال : حكى لي رجل ببغداد عن القاضي أبي بكر محمد بن عبد الباقي ابن محمد الأنصاري الفرضي ، المعروف بقاضي المارستان ، أنه قال :« لما حججت ، بينا أطوف بالبيت اذ وجدت عقدا من اللؤلؤ فشددته في طرف احرامي ، فبعد ساعة سمعت انسانا ينشده في

الحرم وقد جعل لمن يراه عليه عشرين دينارا ، فسألته علامة ماضاع له فأخبرني ، فسلمته اليه ، فقال لي : « تجيء معي الى منزلي لأدفع اليك ماجعلته لك » فقلت : مالي حاجة الى ذلك ، ومادفعته اليك بسبب الجعالة ، وأنا من الله بخير كثير ، فقال :« ولم تدفعه الا لله عز وجل ؟» فقلت :« نعم » فقال:« استقبل بنا الكعبة وأمن على دعائي » فاستقبلنا الكعبة فقال :« اللهم اغفر له وارزقني مكافأته » ثم ودعني ومضى .

ثم اتفق انني سافرت من مكة الى ديار مصر ، فركبت في البحر متوجها الى المغرب ، فأخذت الروم المركب وأسرت فيمن أسر ، فوقعت في نصيب بعض القسوس ، فلم ازل أخدمه الى أن دنت وفاته ، فأوصى باطلاقي .

فخرجت من بلد الروم فصرت الى بعض بلاد المغرب ، فجلست اكتب على دكان خباز وكان ذلك الخباز يعامل بعض تناء تلك المدينة (١٣١) فلما كان في رأس الشهر جاء غلام ذلك التانيء الى الخباز فقال « سيدي يدعوك لتحاسبه » فاستصحبني معه ومضينا اليه فحاسبه على رقاعه ، فلما رأى معرفتي في الحساب وخطي طلبني من الخباز فغير ثيابي وسلم الي جباية ملكة وكانت له نعمة ضخمة ، وأخلى لي بيتا في جانب داره .

فلما مضت مديدة قال لي :« ياأبا بكر مارأيك في التزويج ؟» قلت :« ياسيدي انا لاأطيق نفقة نفسي ، فكيف أطيق النفقة على زوجة ؟» قال :« أنا أقوم عنك بالمهر والمسكن والكسوة وجميع مايلزمك » فقلت :« الأمر لك » فقال :« ياولدي ان هذه الزوجة فيها عيوب شتى - ولم يترك شيئا من العيب في الخلقة من رأسها الى قدمها الا ذكره لي ، وأنا أقول :« رضيت - وباطني في ذلك كظاهري ، فقال لي : « الزوجة ابنتي » وأحضر جماعة وعقد العقد .

فلما كان بعد أيام قال لي :« تهيأ لدخـول بيتـك ، ثـم أمـر لي بكسوة فاخرة ودخلت الى دار فيها التجمل والآلات ، ثم أجلست في المرتبة ، وأخرجت العروس تحت النمط فقمت لتلقيها ، فلما كشفت النمط رأيت صورة مارأيت في الدنيا أجمل منها ، فهربت مـن الدار خارجا ، فلقيني الشيخ وسـألني عن سـبب هـربي ، فقلت :« إن الزوجة ماهي التي ذكرت لي فيها مـن العيوب مـاذكرت » فتبسـم وقال : ياولدي هي زوجتك ، وليس لي ولد سواها ، وانما ذكرت لك ماذكرت لئلا تستقل ماتراه ، فعدت وجليت علي .

فلما كان من الغد جعلت أتـأمل مـاعليها مـن الحلي والجـوهر الفاخر ، فرأيت من جملة ماعليها العقد الذي وجدته بمكة ، فعجبت من ذلك ، واستغرقني الفكر فيه ، فلماخرجت من البناء استدعاني وسألني عن حالي وقال :« جدع الحلال انف الغيرة » فشكرته على مافعله معي ، ثم استولى علي الفكر في العقد ووصوله اليه ، فقـال لي :« فيم تفكر ؟» فقلت :« في العقد الفلاني ، فـاني حججـت في السنة الفلانية فوجدته في الحـرم أو عقـدا يشـبهه ، فصـاح وقـــال :« أنت الذي رددت علي العقـــد ؟» قلت :« أنا ذاك » فقال :« أبشر ، فان الله قد غفر لي ولك ، فـاني دعوت الله سبحانة في تلك الساعة أن يغفر لي ولك وأن يرزقني مكافأتك ، وقـد سلمت اليك مالي وولدي وماأظن أجلي الا وقد قرب » ثـم أوصى الي ومات بعد مديدة قريبة رحمه الله ».

الشفاء بطرق غريبة

وحدثني الأمير سيف الدولة زنكي بن قراجا ، رحمه الله ، قال :« دعانا شاهنشاه بحلب ـ وهو زوج أخته ـ فلما اجتمعنا عنده نفذنا الى صاحب لنا كنا نعاشره وننادمه خفيف الروح طيب العشرة فاستدعيناه ، فحضر ، فعرضنا عليه الشرب فقال :« أنا محتم أمرني الطبيب بالحمية أياما حتى تشق هذه السلعة ، وكان في مؤخر رقبته سلعة كبيرة ، فقلنا :« وافقنا اليوم وتكون الحمية من غد » ففعل وشرب معنا الى آخر النهار ، فطلبنا من شاهنشاه شيئا نأكله ، فقال :« ماعندي شيء فلاججناه حتى أجابنا الى أن يحضر لنا بيضا نقليه على المنقل ، فأحضر البيض ، وأحضرنا صحنا وكسرنا البيض وأفرغنا مافيه في الصحن ، ووضعنا المقلي على المنقل ليحمى ، فأشرت الى ذلك الرجل الذي في رقبته السلعة أن يشرب البيض ، فرفع الصحن على فمه ليشرب بعضه فانساب جميع مافي الصحن في حلقه فشربه ، وقلنا لصاحب الدار : عوضنا عن البيض ، فقال: والله ماأفعل ، فشربنا ، ثم افترقنا .

فانا في السحر في فراشي والباب يقرع ، فخرجت جارية تنظر من بالباب ، فاذا هو صديقنا ذلك ، فقلت أحضريه فجاءني وأنا في الفراش وقال : « يامولاي ، تلك السلعة التي كانت في رقبتي ذهبت ، وما بقي لها أثر ، فنظرت موضعها فاذا هو كغيره من جوانب رقبته ، فقلت :« أي شيء اذهبها ؟» قال :« الله سبحانه ، وما عرفت أنني استعملت شيئا ما كنت استعمله غير شربي لذلك البيض النيء» فسبحان القادر المبلي المعافي.

وكان عندنا في شيزر اخوان اسم الاكبر مظفر والآخر مالك بن عياض من أهل كفر طاب ، وهما تاجران يسافران الى بغداد وغيرها من البلاد ، ومظفر أدركه قيلة عظيمة فهو منها في

تعب ، فسار في قافلة على السماوة الى بغداد ، فنزلت القافلة بحي من أحياء العرب ، فضيفوهم بطيور طبخوها لهم ، فتعشوا وناموا ، فانتبه انبه رفيقه الذي في جانبه وقال له :« أنا نائم أو مستيقظ ؟» قال :« مستيقظ لوكنت نائما ماتحدثت » قال :« تلك القيلة قد ذهبت ومابقي لها أثر » فنظر فاذا هو قد عاد كغيره الى الصحة .

فلما اصبحوا سألوا العرب الذين أضافوهم أي شيء أطعموهم ، قالوا :« نزلتم بنا ودوابنا عازبة ، فخرجنا أخذنا فراخ غربان طبخناها لكم » فلما وصلوا بغداد دخلوا المارستان وحكوا المتولي المارستان حكايته ، فنفذ حصل فراخ غربان وأطعمها لمن به هذا المرض ، فلم تنفعه ولاأثرت فيه ، فقال :« تلك الفراخ التي اكلها كان زقها أبوها أفاعي فلذلك كان نفعها ».

ومما يشاكل ذلك ان رجلا أتى المختار بن بطلان (١٣٢) الطبيب المشهور بالمعرفة والعلم والتقدم في صنعة الطب ، وهو في دكانه بحلب ، فشكا اليه مرضه فرآه قد استحكم به الاستسقاء وكبر بطنه ، ودقت رقبته ، وتغيرت سحنته ، فقال له :« ياولدي ، مالي والله فيك حيلة ، ولابقي الطب ينجع فيك » فانصرف .

ثم بعد مدة اجتاز به وهو في دكانه وقد زال عنه ماكان به من المرض ، وضمر جوفه وحسنت حاله ، فدعاه ابن بطلان فقال :« ماأنت الذي حضرت عندي من مدة وبك الاستسقاء وقد كبر بطنك ودقت رقبتك ، وقلت لك : مالي فيك حيلة ؟» قال :« بلى » قال :« فبماذا تداويت حتى زال ماكان بك ؟» قال :« والله ماتداويت بشيء ، أنا رجل صعلوك مالي شيء ولالي من يدور بي سوى والدتي عجوز ضعيفة كان لها في دنين خل ، فكانت كل يوم تطعمني منه بخبز » ، فقال له ابن بطلان « بقي من الخل شيء ؟» قال :« نعم » قال :« امش معي ارني

الدن الذي فيه الخـل » فمشى بين يديه الى بيتـه أوقفـــه على دن الخل ، فافرغ ابن بطلان ماكان فيه من الخل فوجد في اسفله افعيين قد تهرأتا فقال له :« يابني ماكان يقدر يداويك بخل فيه أفعيان حتى تبرأ الا الله عز وجل »

وكان لهذا ابن بطلان اصابات عجيبة في الطب فمن ذلك أن رجــلا أتاه ، وهو في دكانه بحلب ، والرجل قد انقطع كلامه فلا يكاد يفهــم منه انا تــكلم ، فقـــال له :« مـــــاصنعتك ؟» قـــــال :« أنا مغربل » فقـــال :« أحضر لي نصـــــف رطـــــل خـــــل حاذق » فأحضره ، فقال :« اشربه »، فشربه وجلس لحظة فـذرعه القيء ، فتقيأ طينا كثيرا في ذلك الخــل ، فـانفتح حلقـه واستوى كلامه ، فقال ابن بطلان لابنه وتلاميذه :« لاتداووا بهذا الدواء أحدا فتقتلوه ، هذا كان قد علق بالمريء من غبار الغـربلة تـراب مـاكان يخرجه الا الخل » .

وكان ابن بطلان ملازما لخدمة جدي الأكبر ابي المتوج مقلد بـن نصر بن منقذ فظهر في جدي ابي الحسن علي بن مقلد بن نصر بـن منقذ ، رحمه الله ، وضح وهو صـبي صـغير ، فـأقلق ذلك أبـاه وأشفق عليه من البرص ، فأحضر ابن بطلان وقال له :« ابصر ماقد ظهر في جسم علي » ، فنظره وقال :« اريد خمس مائة دينار حتـى اداويه وأذهب هـذا عنه »، فقـال له جـدي :« لو كنت داويت عليا ماكنت رضيت لك بخمسس مـائة دينار » فلمـا رأى الغضـب مـن جدي ، قال : « يامولاي ، أنا خادمك وعبدك وفي فضـلك ، مـاقلت ماقلته الا على سبيل المزح ، وهذا الذي بعلي بهق الشـباب ، واذا أدرك زال عنه ، فلا تحمل منه همـا ، ولا يقـول لك سـواي :« أنا أداويه ويتسوق عليك ، فهذا يزول عند بلوغه » فكان كما قال .

وكان في حلب امرأة من وجوه نساء حلب ، يقال لها برة لحقهـا برد في رأسها ، فكانت تعمل عليه القطن العتيق والقلنوسة والمخملة والمناديل حتى تصير كأن على رأسها عمامة كبيرة وهي تستغيث من

البرد ، فأحضرت ابن بطلان وشكت اليه مرضها فقال :« حصلي في غد خمسين مثقالا من كافور رياحي عارية أو مكري من بعض الطيبيين ، فهو يعود اليه بأسره »، فحصلت له الكافور ، ثم اصبح القى كل ما على رأسها وحشا شعرها بذلك الكافور ، ورد على رأسها ماكان عليه من الدثار وهي تستغيث من البرد ، فنامت لحظة وانتبهت تشكو الحر والكرب في رأسها ، فألقى عنها شيئا شيئا مما كان على رأسها حتى بقي على رأسها قناع واحد ، ثم نفض شعرها من ذلك الكافور ، وذهب عنها البرد وصارت تتقنع بقناع واحد .

وقد جرى لي بشيزر مايقارب ذلك ، لحقني برد عظيم وقشعريرة من غير حمى وعلي الثياب الكثيرة والفرو ، ومتى تحركت في جلوسي ارتعدت وقام شعر بدني وتجمعت ، فاحضرت الشيخ أبا الوفاء تميما الطبيب فشكوت اليه ماأجد ، فقال :« احضروا لي بطيخة هندي » فاحضرت فكسرها وقال لي :« كل منها ما استطعت» قلت :«يا حكيم أنا في الموت من البرد ، والزمان بارد ، كيف آكل هذه مع بردها ؟» قال :« كل كما أقول لك » فأكلت : فما انتهى اكلي منها حتى عرقت وزال ماكنت أجده من البرد ، فقال لي :« الذي كان بك من غلبة الصفراء ماكان من برد حقيقي ».

وقد تقدم ذكر شيء من غريب الأحلام ، وقد أوردت في كتابي المترجم ب «كتاب النوم والاحلام» من ذكر النوم والأحلام ، وما قيل فيه وفي اوقات الرؤيا وفي أقوال العلماء فيها ، واستشهدت على اقوالهم بما ورد فيها من أشعار العرب ، ووسعت الشرح ، وأشبعت فيه المعنى ، فما حاجة الى ذكر شيء منه هاهنا ، لكنني ذكرت هذا الخبر واستظرفته .

كان لجدي سديد الملك أبي الحسن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ ، رحمه الله ، جارية يقال لها لؤلؤة ربت والدي مجد الدين أبا

سلامة مرشد بن علي ، رحمه الله ، فلما كبر وانتقل عن دار والده انتقلت معه . فرزقني ، فربتني تلك العجوز الى ان كبرت وتزوجت وانتقلت من دار والدي ، رحمه الله ، فانتقلت معي ، ورزقت الاولاد فربتهم ، وكانت ، رحمها الله ، من النساء الصالحات صوامة قوامة . وكان يلحقها القولنج وقتا بعد وقت ، فلحقها يوما من الايام واشتد بها حتى غاب ذهنها ، وآيسوها ، فبقيت كذلك يومين وليلتين ، ثم افاقت فقالت :« لا اله الا الله ، ما أعجب ماكنت فيه ، لقيت أمواتنا جميعهم وحدثوني بالعجائب وقالوا لي في جملة ماقالوا: « إن هذا القولنج ما يعود يلحقك » ، فعاشت بعد ذلك المدة الطويلة لم يلحقها قولنج .

وعاشت حتى قاربت المائة سنة ، وكانت محافظة لصلواتها ، رحمها الله . فدخلت اليها في بيت أفردته لها من داري وبين يديها طست وهي تغسل منديلا للصلوات ، فقلت: «ما هذا ياأمي؟» قالت: «يا بني ، قد مسكو هذا المنديل وايديهم ذفرة من الجبن ، وكلما غسلته قد فاحت منه رائحة الجبن » ، قلت «اريني الصابونة التي تغسلين بها ». فأخرجتها من المنديل فاذا هي قطعة جبن ، وهي تظن أنها صابون ، وكلما عركت ذلك المنديل بالجبن قد فاحت روائحه ، قلت: «يا أمي ، هذه جبنة ! ما هي صابونة» ، فنظرتها وقالت: «صدقت ، يا بني ، ما ظننتها الا صابونا». فتبارك الله اصدق القائلين : «ومن نعمره ننكسه في الخلق» (١٣٣)

الاطالة تجلب الملالة ، والحوادث والطواريء اكثر من ان تحصر ، والرغبة الى الله ، عز وجل في الستر فيما بقي من الحياة ، والرحمة والرضوان عند موافاة الوفاة ، فانه سبحانه أكرم مسؤول ، وأقرب مأمول .

الحمد لله وحده وصلواته على سيدنا محمد وعلى آله وسلامه .

الباب الثالث

أخبار الصيد

الباب الثالث

أخبار الصيد

توكلت على الله تعالى

وله مني جانب لا اضيعه

وللهو مني والبطالة جانب

قد ذكرت من أحوال الحرب ، وما شاهدته من الوقعات والمصافات والأخطار ما حضرني ذكره ولم ينسنيه الزمان ومره ، فان العمر طال ولزمت الانفراد والاعتزال ، والنسيان من ارث متقادم من أبينا آدم ، عليه السلام .

وأنا ذاكر فصلا فيما حضرته وشاهدته من الصيد والقنص والجوارح فمن ذلك ما حضرته بشيزر في صدر العمر ، ومن ذلك ما حضرته مع ملك الأمراء أتابك زنكي بن آق سنقر ، رحمه الله تعالى ، ومن ذلك ما حضرته بدمشق مع شهاب الدين محمود بن تاج الملوك ، رحمه الله ، ومن ذلك ما حضرته بمصر ، ومن ذلك ما حضرته مع الملك العادل نور الدين أبي المظفر محمود بن أتابك زنكي ، رحمه الله ، ومن ذلك ما حضرته بديار بكر مع الأمير فخر الدين قرا أرسلان بن داود بن أرتق ، رحمه الله .

فأما ما كان بشيزر فكان مع الوالد ، رحمه الله ، وكان مشغوفا بالصيد لهجا به وبجميع الجوارح ، ومايستكثر مايغرمه عليه لفرجته ، فإنه كان نزهته ، فليس له شغل سوى الحرب وجهاد

الافرنج ونسخ كتاب الله ، عز وجل عند فراغه من أشغال أصحابه ، وهو رحمه الله ، صائم الدهر مواظب على تلاوة القرآن ، فكان الصيد كما جاء في الخبر «روحوا القلوب تعي الذكر» ، فما رأيت قط مثل صيده وترتيبه .

وقد شاهدت صيد ملك الأمراء اتابك زنكي ، رحمه الله ، وكان له الجوارح الكثيرة ، فرأيته ونحن نسير على الأنهار فيتقدم البازدارية بالبزاة ترميها على طيور الماء وتدق الطبول كجاري العادة فتتصيد منها ما تصيد وتخطىء ما تخطىء ، ووراءهم الشواهين الكوهية (١٢٤) على أيدي البازدارية ، فاذا اصطادت البزاة وأخطات أرسلوا الشواهين الكوهية على الطيور وقد ابعدت دشت خيز (١٣٥) ، فتلحق وتصيد ، وترسل على الحجل فتلحق الحجل في طلوعها في سفح الجبل فتصيد ، فانها من سرعة الطيران على صفة عجيبة .

وشاهدته يوما ونحن في المغرقة بظاهر الموصل نسير في باننجان وبين يدي أتابك بازيار على يده باشق ، فطار ذكر دراج فأرسله عليه فأخذه ونزل ، فلما صار في الأرض فرط الدراج من كفه وطار ، فلما إرتفع انتقل الباز من الأرض أخذه ونزل وقد ثبته .

ورأيته وهو في صيد الوحش دفعات ، إذا اجتمعت الحلقة واجتمع فيه الوحش لا يقدر أحد يدخل الحلقة ، واذا خرج من الوحش شيء رموه ، وكان من أرمى الناس ، فكان اذا دنا منه الغزال رماه ، فنراه كأنه قد عثر فيقع ويذبح ، وكان أول غزال يضربه في كل صيد أحضره ، ينفذه لي مع غلام من غلمانه وأنا معه .

وشاهدته وقد اجتمعت الحلقة ونحن في ارض نصيبين على الهرماس(١٣٦) ، وقد ضربوا الخيام ، فوصل الوحش الى الخيام ، فخرج الغلمان بالعصي والعمد فضربوا منها شيئا

كثيرا ، واجتمع في الحلقة نيب فوثب في وسطها على غزال أخذه وبرك عليه ، فقتل وهو عليه .

وشاهدته يوما ونحن بسنجار وقد جاءه فارس من أصحابه فقال: «هاهنا ضبعة نائمة !» فسار ونحن معه الى واد هناك ، والضبعة نائمة على صخرة في سفح الوادي ، فترجل أتابك ومشى حتى وقف مقابلها وضربها بنشابة رماها إلى أسفل الوادي ، ونزلوا جاؤوا بها إلى بين يديه وهي ميتة .

ورأيته أيضا بظاهر سنجار وقد جلوا أرنبا ، فأمر فاستدارت الخيل حولها ، وأمر غلاما خلفه يحمل الوشق كما يحمل الفهد ، فتقدم أرسله على الأرنب ، فدخلت بين قوائم الخيل ، وما تمكن منها ، وما كنت رأيت الوشق قبل ذلك يصيد .

ورأيت الصيد بدمشق أيام شهاب الدين محمود بن تاج الملوك الطير والغزلان وحمر الوحش واليحامير ، فرأيته يوما وقد خرجنا الى شعراء بانياس وفي الأرض عشب عظيم ، فتصيدنا كثيرا من اليحامير ، وضربت الخيام حلقة ونزلنا ، فقام من وسط الحلقة يحمور كان نائما في العشب فأخذ في وسط الخيام .

ورأيت ونحن عائدون رجلا قد رأى سنجابا في شجرة ، فأعلم به شهاب الدين ، فجاء وقف تحته ورماه مرتين أو ثلاثا فما أصابه . فتركه وسار شبه المغتاظ الذي لم يصبه ، فرأيت رجلا من الاتراك جاء رماه فوسط النشابة فيه ، فاسترخت يداه وبقي متعلقا برجليه والنشابة فيه حتى هزوا الشجرة فوقع ، ولو كانت تلك النشابة في ابن آدم كان مات لوقته ، فسبحان خالق الخلق .

ورأيت الصيد بمصر كان الحافظ لدين الله عبد المجيد أبي الميمون ، رحمه الله ، جوارح كثيرة من البزاة والصقور والشواهين البحرية ، فكان لهم زمام يخرج بهم في الجمعة

يومين ، وأكثرهم رجالة على ايديهم الجوارح ، فكنت اركب يوم خروجهم الى الصيد لأتفرج بنظر صيدهم ، فمضى الزمام الى الحافظ وقال له: «إن الضيف فلانا يخرج معنا »؟ كأنه يستطلع أمره في ذلك ، فقال :«اخرج معه يتفرج على الجوارح ».

فخرجنا يوما ومع بعض البازيارية باز مقرنص بيت أحمر(١٣٧) العينين ، فرأينا كراكي ، فقال له الزمام: «تقدم ارم عليها الباز الاحمر العينين» ، فتقدم رماه ، وطارت الكراكي فلحق منها واحدا على بعد منا فحطه ، فقلت لغلام لي على حصان جيد : « ادفع الحصان اليه وانزل اغرز منقار الكركي في الأرض واكتفه واترك رجليه تحت رجليك الى أن نصلك » فمضى وعمل ما قلت له ، ووصل البازيار ذبح الكركي واشبع الباز .

فلما دخل الزمام حدث الحافظ بما جرى ، وما قلته الغلام ، وقال : «يا مولانا ، حديثه حديث صياد» ، قال :« وأي شيء شغل هذا إلا القتال والصيد؟»

وكان معهم صقور يرسلونها على البلاشيب وهي طائرة ، فاذا رأى البلشوب الصقر دار وارتفع ، والصقر يدور في جانب آخر حتى يرتفع على البلشوب ، ثم ينقلب عليه يأخذه .

وفي تلك البلاد طيور يسمونها البج مثل النحام يصيدونها أيضا ، وطيور الماء في مقطعات النيل سهلة الصيد ، والغزال عندهم قليل ، بل في تلك البلاد بقر بني اسرائيل وهي بقر صفر قرونها مثل قرون البقر وهي اصغر من البقر تعدو عدوا عظيما ، وتخرج لهم من النيل دابة يسمونها فرس البحر مثل البقرة الصغيرة وعيناها صغيرتان وهي جرداء مثل الجاموس . لها أنياب طوال في فكها الاسفل ، وفي فكها الأعلى خروق لأنيابها تخرج رؤوسها من تحت عينيها . وصياحها مثل صياح الخنزير . ولا تبرح في بركة فيها ماء وتأكل الخبز والحشيش والشعير(١٣٨) .

وكنت قد مضيت مـــع الأمير معين الدين ، رحمـــه الله ، الى عكا الى عند ملك الافرنج فلك بن فلك ، فرأينا رجلا من الجنوية قد وصل من بلاد الافرنج ومعه باز كبير مقرنص يصيد الكركي ، ومعه كلبـة صغيرة إذا أرسل الباز على الكراكي عدت تحته ، فإذا أخذ الكركي وحطه عضته فـــلايقدر على الخـــلاص منهـــا ، وقـــال لنا ذلك الجنوي : « ان الباز عندنا اذا كان ذنبه ثلاث عشرة ريشة اصـطاد الكركي ». فعددنا ذنب ذلك الباز فكان كذلك .

فطلبه الأمير معين الدين ، رحمه الله ، من الملك فأخذه مـن ذلك الجنوي هـو والكلبة وأعطاه للامير معين الدين ، فجاء معنا ، فرأيته في الطريق يثب الى الغزلان كما يثب الى اللحم ، ووصـلنا بـه إلى دمشق ، فما طال عمره بها ولا صاد شيئا ومات .

وشاهدت الصيد في حصن كيفا مع الأمير فخر الدين قرا أرسلان ابـن داود ، رحمـــه الله ، وهناك الحجـــل والزرخ(١٣٩) كثير والدراج ، فأما طير الماء فهو في الشط وهو واسع ما يتمـكن البـاز منها ، وأكثر صيدهم الأراوي ومعزي الجبـل يعملون لهـا شـباكا ويمدونها في الأودية ويطردون الأراوي فتقـع في تلك الشـباك وهـي كثيرة عندهم وقريبة المتصيد ، وكذلك الأرانب .

وشهدت الصيد مع الملك العادل نور الدين رحمه الله ، فحضرتـه ونحن بأرض حماة ، وقد جلوا له ارنبا فضربهـا بنشـابة كسـماء وقامت وسبقت الى محجر نخلته ، فركضنا خلفها ، ووقف عليهـا نور الدين . وناولني الشريف السيد بهاء الدين رحمه الله ، رجلهـا قد قطعتها النشابة من فوق العرقوب وشقت جـوفها قـرنة النصـلة فوقع منها بيت الولد ، وسبقت بعد هذا وانحجرت ، فأمر نور الدين بعض الوشاقية نزل وقلع خفافه ونخـل خلفهـا ، فمـــا وصـــل اليها ، وقلت الذي معه بيت الاولاد وفيه خرنقات « شـقة واطمـرهم بالتراب» ، ففعل ، فتحركوا وعاشوا

وحضرته يوما وقد أرسل كلبة على ثعلب ونحن على قرا حصار بأرض حلب ، فركض خلفه وأنا معه ، فلحقت الكلبة أخذت ذنب الثعلب فرجع إليها برأسه فعض خيشومها ، فصارت الكلبة تعوي ، ونور الدين رحمه الله يضحك ، ثم خلاها وانجحر. فما قدرنا عليه .

وجاءه يوما ونحن ركاب تحت قلعة حلب من شمالي البلد باز ، فقال لنجم الدين أبي طالب علي كرد(١٤٠) رحمه الله «قل لفلان – يعنيني – يأخذ هذا الباز يلعب به» ، فقال لي ، فقلت «ماأحسن له» فقال نور الدين: «أنتم في الصيد ما كنتم تزالون ، ما تحسن تصلح الباز؟» قلت: «يا مولاي ، ما كنا نصلحها نحن ، كان لنا بازيارية وغلمان يصلحونه ويتصيدون بها قدامنا» ، وما أخذت الباز.

شاهدت من الصيد مع هؤلاء الأكابر شيئا ما اتسع لي الوقت لذكره مفصلا ، وكانوا قادرين على ما يحاولونه من صيد وآلته وغيره . وما رأيت مثل صيد والدي ، رحمه الله ، فما أدري كنت أراه بعين المحبة كما قال القائل: «وكل ما يفعل المحبوب محبوب» ، ما أدري أكان نظري فيه على التحقيق ، وأنا أذكر شيئا من ذلك ليحكم فيه من يقف عليه

وذلك أن والدي ، رحمه الله ، كان قد فرغ زمانه لتلاوة القرآن والصيام والصيد في نهاره ، وفي الليل ينسخ كتاب الله تعالى ، فكان قد نسخ ستا وأربعين ختمة بخطه ، رحمه الله ، منها ختمتان بالذهب جميع القرآن ، ويركب الى الصيد يوما ويستريح يوما ، وهو صائم الدهر .

ولنا بشيزر متصيدات : متصيد الحجل والأرانب في الجبل قبلي البلد ، ومتصيد لطير الماء والدراج والارانب والغزلان على النهر في الازوار من غربي البلد .

وكان يتكلف في تسيير قوم من أصحابه الى البلاد لشري البزاة ، حتى أنه انفذ الى القسطنطينية أحضر له منها بزاة ، وحملوا الغلمان معهم من الحمام ما ظنوا أنه يكفي البزاة التي معهم ، فتغير عليهم البحر ، وتعوقوا حتى فرغ ما معهم من طعم البزاة ، فاضطروا الى ان صاروا يطعمون البزاة لحم السمك ، فأثر ذلك في اجنحتها صار ريشها ينكسر وينقصف ، فلما وصلوا بها الى شيزر كان فيها بزاة نادرة ، وفي خدمة الوالد بازيار طويل اليد في اصلاح البزاة وعلاجها يقال له غنائم ، فواصل اجنحتها واصطاد بها ، وقرنص بعضها عنده .

وكان اكثر ما يستدعي البزاة ويشاريها من وادي ابن الأحمر بالعلا (١٤١) ، فأحضر قوما من أهل الجبل القريب من شيزر من اهل بشيلي وبسمالخ وحلة عارا(١٤٢) ، وتحدث معهم في ان يعملوا في مواضعهم مصايد للبزاة ، ووهبهم وكساهم ، فمضوا وعملوا بيوت الصيد ، فاصطادوا بزاة كثيرة فراخا ومقرنصة وزرارق ، فحملوها الى الوالد وقالوا : « يا مولانا ، نحن قد بطلنا معايشنا وزراعتنا في خدمتك ، ونشتهي أن تأخذ منا كل ما نصيده وتقرر لنا ثمنا نعرفه لا تجاذب فيه» فقرر ثمن الباز الفرخ خمسة عشرة دينارا ، وثمن الزرق المقرنص نصفها ، وثمن الباز المقرنص عشرة دنانير ، وثمن الزرق المقرنص نصفها ، وانفتح للجبليين أخذ دنانير بغير كلفة ولا تعب ، انما يعمل به بيتا بحجارة ، وعلى قدر خلاقته ، ويغطيه بعيدان ويسترها بقش وحشيش ، ويجعل نافنة ، ويأخذ طير حمام يجمع رجليه على قضيب ويشدها اليه ، ويخرجه من تلك النافنة ، يحرك العود فيتحرك الطير ويفتح أجنحته ، فيراه الباز ينقلب عليه يأخذه ، فإذا أحس به الصياد جذب القضيب الى النافنة ومد يده قبض رجلي الباز ، وهو قابض الطير الحمام ، وأنزله اليه وخيط عينيه ويصبح من الغد يصلنا به ، ويأخذ ثمنه ويعود الى بيته بعد يومين .

فكثر الصيادون وكثرت البزاة حتى صارت عندنا مثل الدجاج : فيها ما يتصيد به وفيها ما يموت على الكنادر (١٤٣) من كثرتها .

وكان في خدمة الوالد بازيار وصقارون وكلابزية ، وعلم قوما من مماليكه اصلاح البزاة فمهروا فيها ، وكان يخرج الى الصيد ونحن أولاد معه في اربعة رجال ، ومعنا غلماننا وجنائبنا وسلاحنا ، فإننا ما كنا نأمن من الفرنج لقربهم منا . ويخرج معنا بزاة كثيرة من العشرة وما حولها ، ومعه صقاران وفهادان وكلابزيان ، مع أحدهما كلاب سلوقية ومع اخر كلاب زغارية ، فيوم خروجه الى الجبل لصيد الحجل وهو بعيد من الجبل يقول لنا اذا خرج الى طريق الجبل : « تفرقوا ، كل من عليه قراءة يقرأها » ، ونحن أولاد حفاظ القرآن ، فنفترق نقرأ حتى يصير الى مكان الصيد يأمر من يستدعينا فيسألنا كم قرأ كل واحد منا ، فإذا أخبرناه يقول : انا قرأت مائة آية ، أو نحوها ، وكان رحمه الله ، يقرأ القرآن كما أنزل .

فاذا صرنا في المتصيد أمر الغلمان فتفرق بعضهم مع البازيارية ، فكيف طارت الحجل كان في ذلك الجانب باز يرسل عليه ، ومعه من مماليكه وأصحابه أربعون فارسا أخبر الناس بالصيد ، فلا يكاد يطير طير ولا يثور أرنب ولا غزال الا اصطدناه ، وننتهي في الجبل نصيد الى العصر ، ثم نعود وقد اشبعنا البزاة وطرحناها على القلوت(١٤٤) في الجبل شربت واستحمت ، ونعود الى البلد بعد عتمة .

فإذا ركبنا الى طير الماء والدراج كان ذلك يوم فرجتنا ، ذقع في

الصيد من باب المدينة ثم نصل الى الازوار فيقف الفهود والصقور برا من الزور وندخل اليه بالبزاة ، فان طارت دراجة أخذها الباز ، وإن قفزت أرنب أرسلنا عليها بعض البزاة ، فان أخذها والا خرجت الى الفهود ارسلوا عليها ، وان قفز غزال خرج الى الفهود ارسلوا

عليه . فان اخذ والا ارسلوا عليه الصقور ، فما يكاد يفلت منا صيد الا بفسحة الاجل .

وفي الازوار خنازير كثيرة تحــرج ، فنركض عليهــا ونقتلهــا فيكون فرحنا بقتلها اكثر من فرحة الصــيد .

وكان له ترتيب في الصيد كأنه ترتيب الحــرب والامــر المهــم ، لا يشغل أحد بحديث مع صاحبه ولا لهم هم الا التبحر في الارض لنظر الارانب او الطير في اوكارها .

وكان قد صار بينه وبين بني روبال - تروس ولاون الارمن مــن أصحاب المصيصة وطرسوس واذنة والدروب - مصــادقة ومــكاتبة اكبر سببها رغبته في البزاة ، فكان ينفذون له كل سنة عدة من عشرة بزاة أو ماحولها على أيدي رجاله أرمن بــازيارية وينفــذون الكلاب الزغارية ، وينفذ لهم هو الحصن والطيب ، ومــن كسوة مصر ، فكان يجيئنا من عندهم بزاة ملاح نادرة فــاجتمع عندنا في بعض السنين بزاة قد جاءت من الدروب فيها باز فرخ مثل العقاب وبــزاة

دونه وجاءنا من الجبل عدة فيها باز كأنه صــقر عريض فــرخ مــا يلحق بتلك البزاة ، والبازيار غنائم يقول: «ما في هذه البــزاة كلهــا مثل هذا الباز اليحشور(١٤٥) ما يترك شيئا الا يصيده » ، ونحن لا نصدقه ، ثم أصلح ذلك الباز ، فكان كما ظن فيه من أفره البــزاة وأطيرها وأشطرها ، وقرنص عندنا وخرج من القرناص أجود ممــا كان ، وعمر ذلك الباز وقرنص عندنا ثلاث عشرة سنة ، فــكان قــد صار كأنه من أهل البيت يصــطاد الخــدمة ، لا لما جــرت بــه عادة الجوارح أن يصيدوا لنفوسهم .

وكان مقامه عند الوالد ، رحمه الله ، لا يتركه عند البازيار ، لأن البازيار إنما يحمل الباز في الليل ويجوعه حتى يصــطاد بــه وذلك الباز كان يكفي من نفسه ويعمل مــا يراد منه ، فــكنا نخرج الى

صيد الحجل ومعنا عدة بزاة فيدفعه الوالد إلى بعض البازيارية ويقول: «اعتزل به ولا ترسله بالحملة وتستر في الجبل». فكلما خلوا أبصروا حجلة لابدة من شجرة قد أعلموه بها يقول: «هاتو اليحشور» ساعة يقيم يده له قد طار من على يد البازيار ، وقع على يده بغير دعو ، ثم يستشرف برأسه ورقبته فيقف على الحجلة النائمة ويرميها بقضيب في يده فتطير ، ويرسل عليها اليحشور فيأخذها في عشرة أذرع ، وينزل اليه البازيار يذبح في رجله ويرفعه ، فيقول:«اعتزل به» فاذا رأوا حجلة أخرى لا بدة عمل بها ذلك ، حتى يصيد خمس ست حجلات ، كذا يأخذها في عشرة أذرع ، ثم يقول البازيار «اشبعه» فيقول له: «يامولاي ، ما تدعه نتصيد به؟» يقول: «يا بني ، معنا عشرة بزاة نتصيد بها وهذا قد صاد ، هذه الاطلاق تقطع عمره» ، فيشبعه ويعتزل به البازيار .

فاذا انهينا في الصيد واشبعنا البزاة وحططناها على الماء شربت واستحمت واليحشور على يد البازيار ، فاذا استقبلنا البلد راجعين ونحن في الجبل قال: «هات اليحشور» حمله على يده وسار ، إن طارت حجلة من بين يديه ارسل عليها صادها حتى يصيد عشرة اطلاق أو أكثر على قدر ما يطير له من الحجل ، وهو شبعان لا يحط منسره في مذبح حجلة ولا يذوق دمها ، فاذا دخلنا الى الدار قال: «هاتوا طاسة ماء» فجاؤوا بطاسة فيها ماء قدمها اليه وهو على يده ، رحمه الله ، فيشرب منها ، وإن كان يريد يستحم خضخض منسره في الماء ، فيدري انه يريد يستحم فيأمر باحضار جفنة كبيرة فيها ماء ويقدمه اليها ، فيطير ينزل في وسطها ويدف في الماء حتى يكتفي من السباحة ثم يطلع ، فيحطه على قفاز خشب ، قد عمل له ، كبير ، ويقرب منه منقل نار ، فيتمشق ويتدهن حتى ينشف من الماء ، ثم يضع له فروا مطويا ، فينزل إليه ينام عليه ، فلا يزال بيننا على ذلك الفرو نائما حتى يتهور الليل ، ويريد الوالد يدخل الى دار الحرم فيقول لاحدنا : «احمله» فيحمل كما هو نائم على الفرو حتى يحط الى جانب فراش الوالد رحمه الله .

وكان من عجائب هذا الباز ، وعجائبه كثيرة وأنا أذكر منها مـا يحضرني ذكره ، فان الأمد قد طال وانسـتني السـنون كثيرا مـن أحـواله ، أن كان في دار الوالد حمـام وطيور مـاء خضر واناثهـا وبيضانيات(١٤٦) من التي تكون بين البقر لتلتقط الذبان من الدار ، وكان يدخل الوالد وهـذا البـاز على يده يجلس على دكة في الدار والباز على قفاز الى جانبه فلا يطلب شيئا مـن تلك الطيور ولا يثب اليها ، ولا كأنها مما جرت عادته بصيدها .

وكانت المياه تكثر في ظاهر شيزر في الشـتاء فيصـير بـرا مـن سورها نقاع كبئار ماء وفيه الطيور ، فيأمر الوالد البازيار وغلامـا معه يخرجا الى قريب من تلك الطيور ، ويأخـذ اليحشـور على يده ويقف بـه على الحصـن يريه الطيور وهـو شرقـي البلد والطيور غربيها ،فاذا أبصرها أرسله فينزل يشف على البلد حتى يخـرج منه وينتهي الى الطيور ، فيدق له البازيار الطبل فتطير الطيور فيصـيد منها وبينها وبين موضع ارسل منه مسافة بعيدة .

وكنا نخرج الى صيد طير الماء والدراج ، ونرجع بعد عتمة نسمع صوت طيور في خلجان كبار بالقرب من البلد ، فيقول الوالد: «هـات اليحشور» ، فيأخذه وهو شبعان ويتقدم الى الطيور يدق الطبل حتى تطير الطيور ثم يرميه عليها ، فان اصاد وقع بيننا نزل اليه البازيار ذبح في رجله ورفعه ، وان لم يصد وقع على بعض أكناف النهر فمـا نراه ولا ندري أين وقع ، فنخليه وندخل إلى البلد ، ويصبح البازيار من سحر يخـرج اليه يأخـذه ويطلع بـه إلى الحصـن إلى عند الوالد ، رحمه الله ، ويقول له: «يامولاي» قد صقل هـذا الصـقيع قفاه طول الليل ، وقد أصبح يقط البولاد(١٤٧) فـاركب ابصر ايش يعمل اليوم!»

وما كان يفوت هذا الباز شيء من الصيد مـن السـمانة الى الوز السمند والأرنب ، وكان البـازيار يشـتهي ان يصـيد بـه الكراكي والحرجل ما يتـركه الوالد ويقـول: «الحـرجل والكراكي نصـيدها

بالصقور » ، وكان هذا الباز قد قصر عما نعهده من صيده سنة من السنين ، حتى أنه كان اذا ارسل واخطأ لا يجيء الى الدعو وهو عاجز ولا يستحم ولا ندري ما به ، ثم صلح عما كان من تقصيره وصاد .

وا ستحم يوما ، فرفعه البازيار من الماء وقد تفرق ريشه بالبلل عن جانبه ، واذا في جانبه سلعة في قد اللوزة ، فأحضره البازيار بين يدي الوالد وقال : «يا مولاي ، هذه التي قصرت بالباز وكانت تهلكه» ثم مسك الباز وعصرها خرجت مثل اللوزة ، وختم موضعها ، وعاد اليحشور الى الطيور بالسيف والنطع .

وكان شهاب الدين محمود بن قراجا صاحب حماة في ذلك الوقت ينفذ كل سنة يطلب الباز اليحشور يمضي إليه مع البازيار يقيم عنده عشرين يوما يتصيد به ويأخذه البازيار ويعود ، فمات الباز بشيزر.

واتفق انني كنت قد زرت شهاب الدين الى حماة ، وأصبحت يوما وأنا بحماة وقد حضر القراء والمكبرون وخلق عظيم من أهل البلد ، فسألت «من قد مات؟» قالوا : «بنت لشهاب الدين ، فأردت الخروج خلف الجنازة ، فماحكني شهاب الدين ومنعني ، وخرجوا قبروا الميت في تل صفرون ، فلما عادوا قال لي شهاب الدين : «تدري من هو الميت؟» قلت: « قالوا : ولد لك» ، قال: «لا ، والله ، بل هو الباز اليحشور ، سمعت أنه مات أنفذت أخذته وعملت له تابوتا وجنازة وقبرته ، فانه كان يستحق ذلك »

وكان للوالد ، رحمه الله ، فهدة في الفهود مثل اليحشور في البزاة ، اصطادوها وهي وحشية ، من أكبر ما يكون من الفهود ، فأخذها الفهاد وقرمها وا ستجابها(١٤٨) وكانت تركب ولا تريد الصيد ، وكانت تصرع كما يصرع المصاب بعقله وتزبد ، ويقدم اليها الخشف فلا تطلبه ولا تريده حتى إذا شمته عضته ، وبقيت كذلك مدة طويلة نحوا من سنة ، فخرجنا يوما إلى الأزوار ، فدخلت

الخيل الى الزور وأنا واقف في فم الزور ، والفهاد بهذه الفهدة قريب مني . فقام من الزور غزال وخرج إلي ، فدفعت حصانا كان تحتي من أجود الخيل أريد أرده إلى الفهدة ، وعاجله الحصان ندسه بصدره ، رماه ، فوثبت الفهدة صادته . فكأنها كانت نائمة انتبهت وقالت: «خذوا من الصيد ما أردتم!» فكانت مهما قام لها من الغزلان أخذته ، ولا يستطيع الفهاد ضبطها فتجذبه ترميه ، ولا تقف كما تقف الفهود في طردها بل وقت ان يقول «قد وقفت» تجدد عدوا او تأخذ الغزال .

وصيدنا بشيزر الغزال الادمي ، وهو غزال كبير ، فكنا اذا خرجنا بها الى العلاة والأرض الشرقية ، وفيها الغزال الأبيض ، لا تترك الفهاد يركض بها حتى يمكنها الا تجذبه ترميه ، وتغير على الغزلان كأنها كانت ترى انهم خشوف لصغر الغزال الأبيض .

وكانت هذه الفهدة دون باقي الفهود في دار الوالد ، رحمه الله ، وله جارية تخدمها ، ولها في جانب الدار قطيفة مطوية تحتها حشيش يابس ، وفي الحائط سكة مضروبة يجيء الفهاد بها من الصيد الى باب الدار يحطها وفيها المرفقة ، وتدخل الى الدار الى ذلك المكان المفروش لها فتنام فيه ، وتجيء الجارية تربطها الى السكة المضروبة في الحائط ، وفي الدار والله ، نحو من عشرين غزال ادمي وأبيض وفحول ومعزى وخشوف قد توالدت في الدار ، فلا تطلبهم ولا تروعهم ، ولا تزول عن موضعها ، وتدخل الى الدار وهي مسيبة فلا تلتفت الى الغزلان .

وشاهدت الجارية التي كانت تدور بها وهي تسرح جسمها بالمشط فلا تمتنع ولا تنفر ، ورأيتها يوما ، وقد بالت على تلك القطيفة المفروشة لها ، وهي تتلتلها وتضربها حيث بالت على القطيفة ، ولا تهر عليها ولا تضر بها .

ورأيتها يوما وقد أثارت من بين يدي الفهاد أرنبين ، وقد لحقت

الواحدة وأخذتها وعضتها بفمها وتبعت الاخرى فلحقتها وجعلت تضربها بيدها وفمها مشغول بالأرنب الاولة ، فوقفت عنها بعد أن ضربتها بيديها عدة ضربات ومضت الأرنب .

وحضر معنا في الصيد الشيخ العالم أبو عبد الله الطليطلي النحوي ، رحمه الله ، وكان في النحو سيبويه زمانه ، قرأت عليه النحو نحوا من عشر سنين ، وكان متولي دار العلم بطرابلس ، فلما أخذ الافرنج طرابلس نفذ الوالد والعم ، رحمهما الله ، استخلصا الشيخ أبا عبد الله هذا ويانس الناسخ ، وكان قريب الطبقة في الخط من طريقه ابن البواب ، أقام عندنا بشيزر مدة ونسخ للوالد ، رحمه الله ، ختمتين ثم انتقل الى مصر ومات بها .

وشاهدت من الشيخ ابي عبد الله عجبا ، دخلت عليه يوما لاقرأ عليه فوجدت بين يديه كتب النحو: «كتاب سيبويه» ، و«وكتاب الخصائص» لابن جني «وكتاب الايضاح» لأبي علي الفارسي» و«كتاب اللمع» ، و«كتاب الجمل». فقلت: «يا شيخ أبا عبد الله» ، قرأت هذه الكتب كلها؟ قال: «قرأتها؟ لا والله الا كتبتها في اللوح وحفظتها ، تريد تدري: خذ جزءا وافتحه واقرأ من أول الصفحة سطرا واحدا» ، فاخذت جزءا وفتحته وقرأت منه سطرا ، فقرأ الصفحة بأجمعها حفظا حتى أتى على تلك الأجزاء جميعها ، فرأيت منه أمرا عظيما ما هو في طاقة البشر .

هذه جملة اعتراضية لا موضع لها من سياقة الحديث .

وقد حضر معنا صيد هذه الفهدة ، وهو راكب في رجليه افدام(١٤٩) وفي الأرض شوك كثير وقد ضرب رجليه ادماهما . وهو مشغول ينظر صيد الفهدة ولا يحس بتألم رجليه ـ مشغول بما يراه من تسللها الي الغزلان وعدوها وحسن صيدها .

وكان الوالد ، رحمه الله ، محظوظا من الجوارح النادرة الفارهة ، وذلك انها كانت عنده كثيرة ثيندر منها الجارح

الفاره ، وكان عنده في بعض السنين باز مقرنص بيت احمر العينين ، فكان من أفره البزاة ، فوصل كتاب عمي تاج الأمراء أبي المتوج مقلد ، رحمه الله ، من مصر ــ و كان مقامه بها في خدمة الآمر بأحكام الله ــ يقول: « سمعت في مجلس الأفضل ذكر الباز الأحمر العينين ، والأفضل يستخبر المحدث عنه وعن صيده» ، فنفذه الوالد ، رحمه الله ، مع بازياره الى الأفضل ، فلما حضر بين يديه قال له: «هذا هو الباز الأحمر العينين؟» قال :«نعم يا مولاي» ،فقال: «أي شيء يصيد؟» قال: «يصيد السمانة والحرجلة وما بينهما من الصيد» ، فبقي هذا الباز بمصر مدة ثم أفلت وراح وبقي سنة في البرية في شجر الجميز وقرنص في البرية ، ثم عادوا اصطادوه ، فجاءنا كتاب عمي ، رحمه الله ، يقول: «الباز الأحمر العينين ضاع وقرنص في الجميز ، وعادوا اصطادوه وتصيدوا به ، وقد أرسل على الطير منه مصيبة عظيمة».

وكنا يوما عند الوالد ، رحمه الله ، وقد جاء انسان من فلاحي معرة النعمان معه باز مقرنص مكسر ريش الأجنحة والذنب في قدر العقاب الكبير ، ما رأيت قط بازا مثله وقال:«يا مولاي ، كنت اصلي الدلم (١٥٠) بالنادوف ، فضرب هذا الباز على بله في النادوف ، فأخذته وحملته إليك» ، فأخذه وأحسن إلى الذي أهداه ، ووصل البازيار ريشه وحمله واستجابه ، واذا الباز صائد مطابق مقرنص بيت قد أفلت من الأفرنج ، وقرنص في جبل المعرة ، فكان من أفره الجوارح وأشطرها .

وشاهدت يوما وقد خرجنا معه ، رحمه الله ، الى الصيد وقد استقبلنا على بعد رجل معه شيء ما نتحققه ، فلما دنا منا واذا معه شاهين فرخ من أكبر الشواهين وأحسنها وقد خمش يديه وهو حامله ، فدلاه ومسك سباقيه (١٥١) ورجليه ــ والشاهين مدلى منشور الأجنحة ، فلما وصلنا قال: «يا مولاي ، اصطدمت هذا الطير ، وقد جئت به اليك» ، فسلمه الوالد الى البازيار فأصلحه ، ووصل ما انكسر من ريشه ، ولم يخرج مخبره مثل

منظره ، كان قد أتلفه الصياد بما عمل به ، والشاهين هو الميزان أدنى شيء يعيبه ويفسده ، وكان هذا البازيار صانعا مجودا في اصلاح الشواهين .

وكنا نخرج من باب المدينة الى الصيد ومعنا جميع آلة الصيد ، حتى الشباك والفؤوس ، والمجارف والكلاليب لما ينجحر من الصيد ، ومعنا الجوارح والبزاة والصقور والشواهين والفهود والكلاب ، فاذا خرجنا من المدينة أدار شاهينين فلا يزالان يدوران على الموكب ، فاذا خرج أحدهما عن القصد تنحنح البازيار وأشار بيده الى النحو الذي يريده فيرجع والله الشاهين من وقته الى ذلك النحو ، ورأيته وقد ادار شاهينا على قطعة من الصلاصل نازلة في مرج ، فلما أخذ الشاهين طبته دق لها الطبل فطارت وانقلب عليها الشاهين ضرب رأس صلصة قطعة ، وأخذها ونزل ، فدرنا والله على ذلك الرأس ما وجدناه ، واثره قد وقع على بعد في الماء لاننا كنا بالقرب من النهر .

وقال له يوما غلام يقال له أحمد بن مجير لم يكن ممكن يركب معه :« يامولاي ، اشتهيت ابصر الصيد » قال :« قدموا لأحمد فرسا يركبه ويخرج معنا » فخرجنا الى صيد الدراج ، فطار ذكر وتنزى (١٥٢) كما جرت العادة وعلى يد الوالد ، رحمه الله ، اليحشور ، فأرسله عليه فطار مع الأرض والحشيش يضرب صدره والدراج قد ارتفع ارتفاعا كبيرا ، فقال له أحمد :« يامولاي ، وحياتك كان يتلاهى به حتى أخذه »

وكان يجيئه من بلاد الروم الزغارية : كلاب جياد ذكور وأناث ، فكانت تتوالد عندنا ، وصيدها الطير طبع فيها .

شاهدت منها جروة صغيرة قد خرجت خلف الكلاب التي مع الكلابزي ، فأرسل بازا على دراجة فبنجت (١٥٣) في حلفاء في جرف النهر ، فأرسلوا الكلاب على الحلفاء لتطير الدراجة ، وتلك

الجروة واقفة على الجرف ، فلما طارت الدراجـة وثبـت الجـروة خلفها من على ذلك الجرف فوقعت في وسط النهر ، وماتعرف الصيد ولا صادت قط .

ورأيت كلبا من هذه الزغارية وقد بنجـت حجلة في الجبـل في بنج صعب وقد دخل اليها الكلب وأبطأ ، ثم سمعنا حشكة في داخل البنج فقال الوالد ، رحمه الله :« في البنج وحش وقد قتل الكلب » ثم بعـد ساعة خرج الكلب يجر رجل ابن آوى ، وكان في البنج قد قتله وجره أخرجه الينا .

وكان الوالد ، رحمه الله ، سار الى اصبهان الى دركاه السلطان ملك شاه ، رحمه الله ، فحكى لي قال :« لما قضيت اشغالي من عند السلطان وأردت السفر ، أردت استصحب معي جارحا ، اتفرج به في طريقي ، فجاؤوني ببزاة ومعها ابن عرس معلم يخرج الطيور من البنج فأخذت صقورا تصيد الأرانب والحبارى ، واستصعبت مداراة البزاة في تلك الطريق البعيدة الشاقة ».

وكان عنده ، رحمـــه الله ، مـــن الكلاب الســـلوقية كلاب جياد ، أرسل يومـا الصــقور على الغـزلان والأرض مـــطر ثقيلة بالوحل ، وأنا معه صغير على برذون لي ، وخيلهم قد وقفـت مـن الركض في الطين ، وبرذوني لخفتي عليه مســتظهر ، وقـد صرعت الصقور والكلاب الغزال ، فقال لي :« ياأسامة الحق الغزال وانزل امسك رجليه الى أن نجيء » ففعلت ، ووصل هـو رحمه الله ، فذبح الغزال ومعه كلبة صــفراء جــواد ، يســمونها الحمـــوية صرعت الغزال ، وهي واقفة ، واذا قطعة الغزلان التي اصطدنا منهـا قـد عادت عابرة علينا ، فأخذ ، رحمه الله ، قلادة الحمــوية و خرج يهرول بها حتى رأت الغزلان ، وأرســلها عليهــا اصــطادت غزالا آخر .

وكان ، رحمه الله ، مع ثقل جسمه وكبر سنة وأنه لايزال صائما

يركض نهـاره كله ، وكان لايتصـيد الا على حصـان أو اكديش جواد ، ونحن معه أربعـة أولاده نتعـب ونكل وهـو لايضـعف ولايكل ولايتعب ، ولايقدر وشـاقي ولاصـاحب جنيب ولاحامل سلاح يقصر في الركض على الصيد .

وكان لي غلام اسمه يوسـف معـه رمحـي ودرقتـي ويجنب حصاني ، فـلا يركض على الصـيد ولايتبعـه ، فيحـرد الوالد عليه ، فعل ذلك مـرة بعـد مـرة ، فقـال له الغلام :« يامولاي ، مايذفعك أحد من الحـاضرين ،والعياذ بالله ، مثل ابنك هذا ، فـدعني أكون خلفـه بحصـانه وسـلاحه ، إن احتجته وجدته ، وأحسب أني ماأنا معكم » فما عاد يلومـه ولايذكر عليه كونه مايركض على الصيد .

ونزل علينا صاحب أنطاكية وقاتلنا ورحل عن غير صلح ، فركب الوالد ، رحمه الله ، الى الصيد وآخرهم ماأبعد عن البلد ، فتبعتهم خيلنا ، فعادوا عليهم والوالد قد أبعد عن البلد ، ووصل الافرنج الى البلد والوالد قد طلع على تل سكين (١٥٤) يراهم وهـم بينه وبين البلد ، ومازال واقفا على التل الى أن انصرفـوا عن البلد وعاد الى الصيد .

وكان رحمه الله يطرد اليحـامير في أرض حصـن الجسر فصرع منها يوما خمسة أو ستة على فرس له دهماء تسمى فـرس خـرجي باسم صاحبها الذي بـاعها ، كان اشـتراها الوالد منه بثـلاثمائة وعشرين دينارا ، فطرد آخر اليحامير ، فوقعت يدها في حفرة ممـا يحفر الخنازير فاذقلبت عليه كسرت ترقوته ثم قـامت ركضـت قـدر عشرين ذراعا وهو مطروح ، ثـم عادت وقفـت عند رأسـه تنحـب وتصهل حتى قام وجاءه الغلمـان أركبـوه ، فهـذا فعـل الخيل العربية .

وخرجت معه ، رحمه الله ، الى نحو الجبل لصيد الحجل ، فنزل

غلام له اسمه لؤلؤ ، رحمه الله ، لبعض شغله ، ونحن قريب من البلد من بكرة وتحته برذون ، فرأى ظل تركشه (١٥٥) اجفل منه فرماه واذقلت ، فركضت والله عليه وأنا وبعض الغلمان من بكرة الى بعد العصر الى أن ألجأناه الى جشار في بعض الأزوار ، وقام الجشارية مدوا له الحبل وقبضوه كما يقبض الوحش ، وأخذته وعدت والوالد ، رحمه الله ، واقف في ظاهر البلد ينتظرني مايصيد ولاينزل في داره ، فالبرانين بالوحش اشبه مما هي بالخيل .

حكى لي ، رحمه الله قال :« كنت أخرج الى الصيد ويخرج معي الرئيس أبو تراب حيدرة بن قطرميز رحمه الله – وكان شيخه الذي حفظ عليه القرآن وقرأ عليه العربية – فكنا اذا وصلنا موضع الصيد ينزل عن الفرس ويجلس على صخرة يقرأ القرآن ، ونحن نتصيد حوله ، فاذا فرغنا من الصيد ركب وسار معنا ، فقال يوما :« ياسيدنا أنا جالس على صخرة واذا حجلة قد جاءت وهي تتهذكف وهي معيية الى تلك الصخرة التي أنا عليها ، دخلت واذا الباز قد أتى خلفها وهو بعيد منها ، فنزل مقابلي ولؤلؤ يصيح : عيذك عيذك ياسيدنا ، وجاء وهو يركض وأنا اقول : اللهم استر عليها ، فقال : ياسيدنا اين الحجلة ؟ قلت : مارأيت شيئا ، ماجاءت الى هاهنا ، وترجل عن فرسه ودار حول الصخرة وطلع تحتها فرآها ، فقال : أقول الحجلة هاهنا تقول لا ، وأخذها ياسيدنا كسر رجليها ورماها الى الباز ، وقلبي يتقطع عليها ».

وكان هذا لؤلؤ رحمه الله ، اخبر الناس بالصيد ، شاهدته يوما وكانت جاءتنا من البرية أرانب جالية ، فكنا نخرج نصطاد منها شيئا كثيرا ، وكانت أرانب صغارا حمر فشاهدته يوما وقد جلى عشرة أرانب طعن التسعة بالبالة (١٥٦) أخذها ، ثم جلى أرنبا عاشرة ، فقال له الوالد ، رحمه الله ، :« دعها تقيموها للكلاب نتفرج عليها » فأقاموها وأرسلوا عليها الكلاب ، فسبقت الأرنب وسلمت ، فقال لؤلؤ : « يامولاي ، لو كنت تركتني طعنتها وأخذتها »

وشاهدت يوما أرنبا قد ثورناها وأرسلنا عليها الكلاب ، فانجحرت في ارض الخُبيبة (١٥٧) فدخلت كلبة سوداء خلفها في المجحر ، ثم خرجت في الحال وهي تتعوص (١٥٨) ثم وقعت فماتت ، فما انصرفنا عنها حتى تفسخت وماتت وتهرأت وذاك أنها لسعتها حية في المجحر .

ومن عجيب مارأيت من صيد البزاة أنني خرجت مع الوالد ، رحمه الله ، عقيب مطر قد تتابع ومنعنا من الركوب اياما ، فأمسك المطر فخرجنا بالبزاة نريد طير الماء ، فرأينا طيورا ممرجة في مرج تحت شرف ، فتقدم الوالد أرسل عليها بازا مقرنض بيت ، فطلع مع الطيور اصاد منها ونزل فما رأينا معه شيئا من الصيد ، فنزلنا عنده واذا هو قد اصاد زرزور وطبق كفه عليه ، فما جرحة ولا آذاه ، فنزل البازيار خلصه وهو سالم .

ورأيت من الوز السمند حمية وشجاعة كحمية الرجال وشجاعتها ، وذلك اننا أرسلنا الصقور على رف وز سمند ودققنا الطبول فطار ، ولحقت الصقور تعلقت بوزة حطتها من بين الوز ، ونحن بعيد منها ، فصاحت ، فترحل من الوز اليها خمسة ستة طيور يضربون الصقور بأجنحتها ، فلولا نبادرهم كانوا خلصوا الوزة وقصوا اجنحة الصقور بمناقيرهم .

وهذا ضد حمية الحباري ، فانها إذا قرب منها الصقر نزلت الى الأرض وكيف دارا ستقبلته بذنبها ، فاذا دنا منها سلحت عليه بلت ريشه وملأت عينيه وطارت ، وان اخطأته بما تفعله به أخذها .

ومن آغرب ماصاده الباز مع الوالد ، رحمه الله ، أنه كان على يده باز غطراف فرخ وعلى خليج ماء عيمة وهي طير كبير مثل لون البلشون (١٥٩) الا أنها أكبر من الكركي ، من طرف جناحها الى طرف جناحها الآخر أربعة عشر شبرا ، فجعل الباز يطلبه ، فأرسله عليه ودق له الطبل ، فطار ودخل فيه الباز أخذه

ووقعا في الماء ، فكان ذلك سبب سلامة الباز ، والا كان قتله بمنقاره ، فرمى غلام من الغلمان نفسه في الماء بثيابه وعدته مسك العيمة واطلعها ، فلما صارت على الأرض صار الباز يبصرها ويصيح ويطير عنها، وماعاد يعرض لها ، ولارأيت بازا سوى ذلك اصطادها ، فانها كما قال أبو العلاء بن سليمان في العنقاء :« ارى العنقاء تكبر أن تصادا ».

وكان الوالد رحمه الله ، يمضي الى حصن الجسر ، وهو كثير الصيد فيقيم فيه أياما ، ونحن معه نصيد الحجل والدراج وطير الماء واليحامير والغزلان والأرانب ، فمضى يوما إليه وركبنا الى صيد الدراج ، فأرسل بازا يحمله ويصلحه مملوك اسمه نقولا على دراجة ومضى نقولا يركض وراءه ، وقد بنج الدراج في حلفاء ، واذا صياح نقولا قد ملأ الأسماع وعاد يركض ، قلنا :« مالك ؟» قال :« السبع خرج من الحلفاء التي وقع فيها الدراج فخليت الباز وانهزمت » واذا السبع ايضا ذليل مثل نقولا لما سمع أجراس الباز خرج من الحلفاء منهزما الى الغاب.

وكنا نتصيد ونعود ننزل على بوشمير نهر صغير بالقرب من الحصن ، وننفذ نحضر صيادي السمك فنرى منهم العجب ، فيهم من معه قصبة في رأسها حربة لها جبة مثل الخشوت ، ولها في الجبة ثلاث شعب حديد طول كل شعبة ذراع ، وفي رأس القصبة خيط طويل مشدود الى يده يقف على جرف النهر وهو ضيق المدى ويبصر السمكة فيزرقها بتلك القصبة التي فيها الحديد فما يخطئها ثم يجذبها بذلك الخيط فتطلع والسمكة فيها ، وآخر من الصيادين معه عود قدر قبضة فيه شوكة حديد ، وفي طرفه الآخر خيط مشدود الى يده ، ينزل يسبح في الماء ويبصر السمكة يخطفها بتلك الشوكة ويخليها فيها ويطلع ويجذبها بذلك الخيط يطلع الشوكة والسمكة ، وآخر ينزل يسبح ويمر يده تحت الشجر الذي في الشطوط من الصفصاف على السمكة حتى يدخل اصابعه في

خواشيم السمكة ، وهي لاتتحرك ولاتنفر ، ويأخذها ويطلع ، فكانت تكون فرجتنا عليهم كفرجتنا على الصيد بالبزاة

وتوالى المطر والهواء علينا أياما ونحن في حصن الجسر ، ثم أمسك المطر لحظة ، فجاءنا غنائم البازيار وقال للوالد :« البزاة جياع جيدة الصيد ، وقد طابت وكف المطر ،ماتركب ؟» قال :« بلى » فركبنا فما كان بأكثر من أن خرجنا الى الصحراء ، وتفتحت أبواب السماء بالمطر ، فقلنا لغنائم :« أنت زعمت أنها طابت وصحت حتى أخرجتنا في هذا المطر !» قال :« ماكان لكم عيون تبصر الغيم ودلائل المطر ؟ كنت قلتم لي تكذب في لحيتك ما هي طيبة ولا صاحية!»

وكان هذا غنائم صانعا جيدا في اصلاح الشواهين و البزاة خبيرا بالجوارح ، ظريف الحديث طيب العشرة ، قد رأى من الجوارح مايعرف ومالايعرف .

خرجنا يوما الى الصيد من حصن شيزر فرأينا عند الرحا الجلالي شيئا واذا كركي مطروح على الأرض ، فنزل غلام قلبه واذا هو ميت وهو حار مابرد بعد ، فرآه غنائم قال : « هذا قد اصطاده اللزيق (١٦٠)».

فتش تحت جناحه واذا جانب الكركي مثقوب وقد أكل قلبه ، فقال غنائم« هذا جارح مثل العوسق يلحق الكركي يلصق تحت جناحه يثقب اضلاعه ويأكل قلبه »

وقضى الله سبحانه أنني صرت الى خدمة اتابك زنكي رحمه الله ، فجاءه جارح مثل العوسق أحمر المنسر والرجلين جفون عينيه حمر ، وهو من أحسن الجوارح ، فقالوا :« هذا اللزيق » مابقي عنده الا اياما قلائل وقرض السيور بمنسره وطار .

وخرج الوالد ، رحمه الله ، يوما الى صيد الغزلان ، وأنا معه

صغير فوصل وادي القناطر واذا فيه عبيد حرامية يقطعون الطريق ، فأخذهم وكتفهم وسلمهم الى قوم من غلمانه يوصلونهم الى الحبس بشيزر ، فأخذت أنا خشتا من بعضهم ، وسرنا في الصيد ، واذا عانة حمير وحش ، فقلت للوالد :« يامولاي ماأبصرت حمير الوحش قبل اليوم ، عن أمرك أركض أبصرهم ، فقال :« افعل » وتحتي فرس شقراء من أجود الخيل ، فركضت وفي يدي ذلك الخشت الذي أخذته من الحرامية ، فصرت وسط العانة فأفردت منها حمارا وصرت أطعنه بذلك الخشت فلا يعمل فيه شيئا لضعف يدي وقلة مضاء الحربة ، فرددت الحمار حتى رددته الى اصحابي ، فأخذوه ، وعجب الوالد ومن معه من عدو تلك الفرس .

فقضى الله سبحانة انني خرجت يوما اتفرج على نهر شيزر وهي تحتي ، ومعي مقرىء ينشد مرة ويقرأ مرة ويغني مرة ، فنزلت تحت شجرة ودفعت الفرس الى الغلام فعمل فيها شكالا وكان الى جانب النهر ، فنفرت ووقعت في النهر على جنبها ، وكلما ارادت تقوم تعود تقع في الماء لأجل الشكال ، وكان الغلام صغيرا لايقدر على تخليصها ، ونحن لانعلم ولاندري، فلما قاربت الموت صاح بنا فجئناها وهي في آخر رمق ، فقطعنا شكالها وأطلعناها ، فماتت ، وماكان الماء يصل الى عضدها الذي غرقت فيه ، وانما الشكال اهلكها .

وخرج يوما الوالد ، رحمه الله ، الى الصيد ، وخرج معه أمير يقال له الصمصام ، من أصحاب فخر الملك بن عمار صاحب طرابلس على سبيل الخدمة ، وهو رجل قليل المخبرة بالصيد ، فأرسل الوالد بازا على طيور ماء فأخذ منها طيرا ووقع في وسط النهر ، فجعل الصمصام يدق يدا على يد ويقول:«لا حول ولا قوة إلا بالله، كيف كان خروجي في هذا اليوم؟» فقلت له:«يا صمصام، تخاف على الباز أن يغرق؟» قال:«نعم قد غرق بطة هو حتى يقع في الماء و لا يغرق؟»فضحكت وقلت :«الساعة يطلع» فأخذ الباز رأس

الطير وسبح وهو معه حتى طلع به ، فبقي الصمصام يتعجب من ذلك ويسبح الله سبحانه ، ويحمده على سلامة الباز .

ومنايا الحيوان ، مختلفة الالوان ، قد كان الوالد ، رحمه الله ، أرسل زرقا ابيض على دراجة ، فوقعت الدراجة في حلفاء ودخل معها الزرق .

وفي الحلفاء ابن آوى أخذ الزرق قطع رأسه ، وكان من خيار الجوارح وأفرهها .

ورأيت من منايا الجوارح وقد ركبت يوما وبين يدي غلام لي معه باشق ، فرماه على عصافير ، فأخذ عصفورا ، وجاء الغلام ذبح العصفور في رجل الباشق ، فنفض الباشق رأسه وتقيأ دما ووقع ميتا ، والعصفور في تلفه مذبوح فسبحان مقدر الآجال .

واجتزت يوما من باب فتحناه في الحصن لعمارة كانت هناك ، ومعي زر بطانة ، فرأيت عصفورا على حائط أنا واقف تحته ، فرميته ببندقة فأخطأته ، وطار العصفور وعيني الى البندقة ، فنزلت مع الحائط وقد أخرج عصفور رأسه من نقب في الحائط فوقعت البندقية على رأسه ، فقتلته ، ووقع بين يدي فذبحته ، وماكان صيده عن قصد ولا اعتماد .

وأرسل رحمه الله ، يوما الباز على أرنب قامت لنا في زور كثير الشوك ، فأخذها وانفرطت منه ، فجلس على الأرض ، وراحت الأرنب ، فركضت أنا فرسا دهماء تحتي من جياد الخيل لأرد الأرنب ، فوقعت يد الفرس في حفرة فانقلبت علي ، فملأت يدي ووجهي من ذلك الشوك وانفسخت رجل الفرس ، ثم انتقل الباز من الأرض بعدما ابعدت الأرنب لحقها اصادها فكأنه كان قصده اتلاف فرسي وأنيتي بالوقوع في الشوك .

فأصبحنا يوما في أول يوم من رجب صياما ، فقلت للوالد ، رحمه الله :« أشــــتهي أخــــرج أتشـــاغل بــــالصيد عن الصيام » قال :« اخرج » فخرجت أنا وأخي بهاء الدولة أبو المغيث منقــذ ، رحمـــه الله ، ومعنا البـــزاة الى الأزوار فــدخلنا في سوس ، فقام لنا خنزير ذكر فـطعنه أخـــي جـــرحه ودخـــل ذاك السوس ، فقال أخي :« الساعة يكربه الجرح ويخـرج ، اســتقبله اطعنه اقتله » قلت :« لاتفعل يضرب فرسك يقتلها » نحـن نتحـدث والخنزير خرج يريد زورا آخـر ، فـالتقاه اخـي طعنه في سـنامة انكسرت فيه عالية القنطارية التي طعنه بها ، ودخل تحـت فـرس شقراء تحته عشراء محجلة شعلاء ضربها رمـاها ورمـاه ، فـأما الفرس فانفسخت فخذها وتلفت ، وأما هـو فانفكت اصبعه الخنصر وانكسر خاتمه .

وركضت أنا خلف الخنزير ، فدخل في سوس مخصب وخناث فيه باقورة نائمة مارآها من ذلك الغاب ، فقـام منهـا ثـور في صـدر حصاني فندسة ، فوقعت ووقع الحصان وانكسر لجـامه ، وقمـت أخذت الرمح وركبت ولحقته وقد رمى نفسه في النهر ، فوقفت على جرف النهر وزرقته بالرمح فوقع فيه وانكسر منه قدر ذراعين وبقيت الحربة ، وكسر الرمح فيه ،وسبح إلى ناحية النهر ، فصحنا بقـوم من ذلك الجانب يضربون لبنا لعمارة بيوت في قرية لعمي ، فجـاؤوا ووقفوا عليه وهـو تحت جـرف لايقـدر يطلع منه ، فجعلوا يرمـونه بـالحجارة الكبـار حتـى قتلوه ، وقلت لركابـي لي : « انزل اليه » فقلع عدته وتعرى وأخذ سيفه وسبح اليه تمم قتله ، وسـحب برجله وأتى به وهـو يقـول :« عرفـكم الله بـركات صـيام رجب ! استفتحناه بنجس الخنازير .

ولو كان الخنزير ظفر مثل الأسد كان اشد بأسا من الأسد ، فلقد رأيت منها خنزيرة قد أقمناها عن جريات لها ، واحد منهـا يضرب حافر فرس غلام معي بفمه وهـو في قد جرو القط ، فأخذ الغلام مـن

تركشه نشابة ومال اليه طعنه بها ، ورفعه في النشابة ، فعجبت من قتاله وضربه حافر الفرس وهو بحيث يحمل في سهم نشاب .

وكان من عجائب الصيد أننا كنا نخرح الى الجبل الى صيد الحجل ، ومعنا عشرة بزاة نتصيد بها النهار كله ، والبازيارية مفترقة في الجبل ومع كل بازيار فارسان ثلاثة من المماليك ، ومعنا كلابزيان اسم الواحد بطرس والآخر زرزور بادية وكلما أرسل البازيار على حجلة وبنجت قد صاحوا :« يابطرس !» يعدو اليهم مثل الهجين ، كذلك النهار كله يعدو من جبل الى جبل هو ورفيقه ، فاذا اشبعنا البزاة ورجعنا أخذ بطرس قلاعة وعدا خلف واحد من المماليك ضربة بها ، أخذ الغلام قلاعه وضرب بطرس ، فلا يزال يطارد الغلمان ماكأنه كان نهاره كله يعدو من جبل الى جبل .

ومن عجائب الكلاب الزغارية أنها ماتأكل الطيور ، ولاتأكل منها الا رؤوسها وأرجلها التي ماعليها لحم ، والعظام التي قد أكلت البزاة لحمها .

وكان للوالد ، رحمه الله ، كلبة سوداء زغارية يضع الغلمان بالليل على رأسها السراج ويقعدون يلعبون بالشطرنج وهي لاتتحرك ولاتزول حتى عمشت عيناها ، وكان الوالد ، رحمه الله ، يحرد على الغلمان ويقول : « قد اعميتم هذه الكلبة ! » ولاينتهون عنها .

وأهدى الأمير شهاب الدين مالك بن سالم بن مالك صاحب القلعة للوالد كلبة عروفا ترسل تحت الصقور على الغزلان فكنا نرى منها العجب .

وصيد الصقور بالترتيب ، يرسل في الأول المقدم فيعلق باذن غزال يضربه ، ويرسل العون بعده فيضرب غزالا آخر ، ويرسل العون الآخر فيفعل كذلك ، ويرسل الرابع كذلك ، فيضرب كل صقر منها

على غزال ، فيأخذ المقدم انن غزال ويفرده من الغزلان ، فتـرجع الصقور جميعها اليه وتترك تلك الغزلان التي كانت تضربها ، وهذه الكلبة تحت الصقور لاتلتفـت الى شيء مـن الغـزلان الا مـــاعليه الصقور ، فيتفق ان يظهـــر العقـــاب فتحــــل الصـــقور عن الغزال ، فيمضي الغزال ، وتدور الصقور ، فكنا نرى تلك الكلبة قـد رجعت عن الغزلان وقت رجوع الصقور ، وهي تدور تحت الصـقور في الأرض كما تدور الصقور في الهواء حلقة ، ولا تزال تدور تحتهـا حتى تنزل الصقور الى الدعو ، فحينئذ تقف وتمشي خلف الخيل .

وكان بين شهاب الدين مالك وبين الوالد ، رحمهما الله ، مـودة ومواصلة بالمكاتبات والرسل ، فنفذ اليه يوما يقـول له :« خـرجت الى صيد الغزلان فاصطدنا منها ثلاثة آلاف خشف في يوم » وذلك ان الغزلان عندهم في ارض القلعة كثيرة ، وهـم يخـرجون وقـت ولاد الغزلان خيالة ورجالة فيأخذون منها ماقد ولد تلك الليلة وقبلها بليلة وليلتين وثلاث ، يقشونها كما يقش الحطب والعشب .

والدراج عندهم كثير في الأزوار على الفرات ، واذا شـق جـوف الدراجة وأزيل مـافيه وحشي بـالشعر لاتتغير رائحتهـا أيامـا كثيرة ، ورأيت يوما دراجة قـد شـق جــوفها وأخـــرجت قانصتها ، وفيها حية قد أكلتها نحو من شبر .

وقتلنا مرة ونحن في الصيد حية خرج من جوفها حية قـد بلعتهـا صحيحة دونها بيسير ، ففي طباع جميع الحيوان اعتداء القوي على الضعيف

والظلم من شيم النفوس
فان تجد ذا عفة فلعلة لايظلم .

الخاتمة

حضر ذكر الصيد وقد شهدته سبعين سنة من عمري غير ممـكن ولامستطاع ، وتضييع الأوقات في الخرافات ، من أعظـم عوارض الآفات ، وأنا استغفر الله تعالى من تضييع الصبابة البـاقية مـن العمر ، في غير طاعة واكتساب ثواب وأجر ، وهو تبـارك وتعـالى يغفر الخطية ، ويجزل من رحمته العطية، فهـو الكريم الذي لايخيب أمله ، ولايرد سائله .

آخر الكتاب والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد نبيه وعلى آله الطاهرين أجمعين ، وسلم تسـليما ، وحسـبنا الله ونعم الوكيل وكان في آخر الكتاب مامثاله :

قرأت هذا الكتاب من أوله إلى آخره في عدة مجالس على مولاي جدي، الأمير الاجل العالم الفاضل الصدر الكامل،عضد الدين،جليس الملوك والسلاطين،حجة العرب،خـالصة أمير المؤمنين،أدام الله سـعادته ، وسألته أن يجيزني روايته عنه فأجابني إلى ذلك وسطر خطة الكريم به،وذلك في يوم الخميس ثالث عشر صفر سنة عشر وستمائة،صحيح ذلك،وكتب جده مرهف بن اسامة بن منقذ ، حامدا ومصليا .

الملاحق

أبو الحسن علي بن السلار المنعوت بالملك العادل سيف الدين

(من وفيات الأعيان لأبن خلكان)

ورأيت في مكان آخر أنه أبو منصور علي بن اسحق ، عرف بابن السلار وزير الظافر العبيدي صاحب مصر ورأيت في بعض تواريخ المصريين أنه كان كرديا زرزاريا وكان تربية القصر بالقاهرة ، وتقلبت به الأحوال في الولايات بالصعيد وغيره الى أن تولى الوزارة الظافر المذكور في رجب سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ، ثم وجدت في مكان آخر أن الظافر المذكور استوز نجم الدين أبا الفتح سليم بن محمد بن مصال في أول ولايته وكان ابن مصال من أكابر أمراء الدولة ، ثم تغلب عليه العادل بن السلار وعدى ابن مصال الى الجيزة ليلة الثلاثاء رابع عشر شعبان سنة أربع وأربعين وخمسمائة عندما سمع بوصول ابن السلار من ولاية الاسكندرية ، طالبا للوزارة ، ودخل ابن السلار القاهرة في الخامس عشر من الشهر المذكور وتولى تدبير الأمور ، ونعت بالعادل أمير الجيوش ، وحشد ابن مصال جماعة من المغاربة وغيرهم ، وجرد العادل العساكر القائه فكسره بدلاص من الوجه القبلي وأخذ رأسه ودخل به القاهرة على رمح يوم الخميس الثالث والعشرين من ذي القعدة من السنة المذكورة ، واستمر العادل الى أن قتل ، وهذا القول أصح من الأول والله اعلم .

وكان ابن مصال من اهل لك ، بضم اللام وتشديد الكاف ، وهي بليدة عند برقة من أعمالها، وكان هو وأبوه يتعاطيان البيزرة والبيطرة وبذلك تقدما ، وكانت وزارة ابن مصال نحوا من خمسين يوما وكان ابن السلار شهما مقداما مائلا الى ارباب العقل

والصلاح ، عمر بالقاهرة مساجد ، ورأيت بظاهر مدينة بلبيس مسجدا منسوبا إليه ، وكان ظاهر التسنن شافعي المذهب ولما وصل الحافظ أبو طاهر أحمد السلفي رحمه الله تعالى إلى ثغر الاسكندرية المحروس ، واقام به ، ثم صار العادل المذكور واليا احتفل به وزاد في اكرامه وعمر له هناك مدرسة فوض تدريسها اليه ، وهي معروفة الى الآن ولم ار بالاسكندرية مدرسة للشافعيين سواها ، وكان مع هذه الأوصاف ذا سيرة جائرة ، وسطوة قاطعة يؤاخذ الناس بالصغائر والمحقرات ، ومما يحكي عنه أنه قبل وزارته بزمان وهو يومئذ من آحاد الأجناد ، دخل يوما على الموفق ابي الكرم بن معصوم التنيسي وكان مستوفي الديوان ، فشكا اليه حاله من غرامة لزمته بسبب تفريطه في شيء من لوازم الولاية بالغربية ، فلما أطال عليه الكلام قال له أبو الكرم : والله إن كلامك مايدخل في أذني فحقد عليه ذلك فلما ترقى الى درجة الوزارة طلبه فخاف منه واستتر مدة،فنادى عيه في البلد وهدر دم من يخفيه . فأخرجه الذي خبأه عنده ، فخرج في زي امرأة بازار وخف ، فعرف فأخذ وحمل الى العادل فأمر باحضار لوح من خشب ومسمار طويل فألقى على جنبه وطرح اللوح تحت أذنه ، ثم ضرب المسمار في الأذن الأخرى ، فصار كلما صرخ يقول له دخل كلامي في أذنك بعد أم لا ؟ ولم يزل كذلك حتى نفذ المسمار من الأذن التي على اللوح ، ثم عطف المسمار على اللوح ، ويقال أنه شنقه بعد ذلك .

وكان قد وصل من إفريقية إلى الديار المصرية أبو الفضل عباس ابن أبي الفتوح بن يحيي بن تميم بن المعز بن باديس الصنهاجي وهو صبي ومعه أمه واسمها بلارة ، فتزوجها العادل المذكور ، وأقامت عنده زمانا ، ورزق عباس ولدا سماه نصرا ، فكان عند جدته في دار العادل والعادل يحذو عليه ويعزه ، ثم ان العادل جهز عباسا الى جهة الشام بسبب الجهاد وكان معه اسامة بن منقذ ، المذكور في حرف الهمزة فلما وصل الى بلبيس ، وهو مقدم الجيش الذي سار في صحبته تذاكرا طيب الديار المصرية وحسنها وماهي عليه ، وكونه يفارقها ويتوجه للقاء العدو ، ويقاسي النكال فأشار عليه

اسامة ، على ماقيل ، بقتل العادل ويستقل هو بالوزارة ويستريح من النكال وتقرر بينهما أن ولده نصرا يباشر ذلك اذا رقد العادل فإنه معه في الدار ، ولايذكر عليه ذلك وحاصل الأمر أن نصرا قتله على فراشه يوم الخميس سادس المحرم سنة ثمان وأربعين وخمسمائة بدار الوزارة بالقاهرة المحروسة رحمه الله تعالى ، وتفصيل الواقعة يطول ، وقيل إنه قتل يوم السبت حادي عشر المحرم من السنة المذكورة،وكان والده في صحبة سقمان بن أرتق صاحب القس ، فلما أخذ الأفضل أمير الجيوش القدس من سقمان ، كما هو مذكور في ترجمة أبيه أرتق ، وجد فيه طائفة من عسكر سقمان ، فضمهم الأفضل اليه ، وكان في جملتهم السلار والد العادل المذكور ، فأخذه الأفضل إليه ، وتقدم عنده وسماه سيف الدولة ، وأكرم ولده هذا وجعل في صبيان الحجر ، ومعنى صبيان الحجر عندهم أن يكون لكل واحد منهم فرس وعدة ، فاذا قيل له عن شغل مايحتاج أن يتوقف فيه ، وذلك على مثال الداوية والاسبتار ، فاذا تميز صبي من هؤلاء بعقل وشجاعة قدم للامارة فترجح العادل بهذه الصفات وزاد عليها بالجزم والهيبة وترك المخالطة فأمره الحافظ ، وولاه الاسكندرية وكان يعرف برأس البغل،ثم تقدم وهذا نصر بن عباس هو الذي قتل الظافر اسماعيل ابن الحافظ صاحب مصر،وقد ذكرته في ترجمته .

عباس بن أبي الفتوح الصنهاجي

(من كتاب المقفى للمقريزي)

..عباس بن أبي الفتوح يحيى بن أبي طاهر يحيى بن تميم بن المعز ابن باديس ، الحميري ، والصنهاجي :

قدم صغيرا على يدي أمه بلارة بنت القاسم مع أبيه أبي الفتوح الى الاسكندرية لما أخرجه أخوه أبو الحسن علي بن يحيى بن تميم من افريقية فأمر الخليفة الآمر بأحكام الله بإكرامه فلم تطل أيام حياته بالاسكندرية ومات .

فتزوجت بلارة بعد وفاته بعلي بن السلار الملقب بالعادل الوزير ، فسعد بها وعلا شأنه ، وشب عباس فقدمه الخليفة الحافظ لدين الله وجعله صاحب الباب .

فلما مات الحافظ في جمادى الآخرة سنة أربع وأربعين وخمسمائة واستخلف من بعده ابنه ابو المنصور اسماعيل الظافر بأمر الله ، خلع على نجم الدين سليمان بن محمد بن مصال وأقامه في الوزارة ، فأسخط ذلك المظفر علي بن السلار ، وهو يومئذ والي الغربية ، وسار فرافقه عباس وتوجه معه الى القاهرة واستقر في وزارة الظافر ، فخرج عباس بعسكر الى محاربة الوزير نجم الدين سليمان ابن مصال الى دلاص ، وقاتل ابن مصال حتى هزم من معه وحرق جامع دلاص ، وقد امتنع به قوم من لواته وكثير من السودان حتى أتلفهم ، وأسر ابن مصال وقتله وحمل رأسه ، ودخل الى القاهرة، وولده نصر بن عباس يحمل الرأس على رمح .

وأقام بالقاهرة ونعت بـ « ركن الاسلام » الى أن قوي الافرنج

ونازلوا عسقلان في البر والبحر ، فجهز العادل ابن السلار العساكر ، وسيرها مع ركن الاسلام عباس ، فخرج ومعه من الأمراء ملهم والضرغام واسامة بن منقذ في عدة .

وكان اسامة خصيصا بعباس ، فحسن له ، وقد نزلوا على بلبيس ، ان يعمل في أخذ الوزارة من العادل ، بأن يبعث ابنه ناصر الدين نصر بن عباس الى القاهرة ليتحدث مع الظافر في ذلك ، فوافق لهذا غرض عباس ، وبعث ابنه ، فكان من قتله العادل ما قد ذكر في ترجمته .

فكتب الظافر الى عباس فحضر من بلبيس وتقلد وزارة مصر بعد زوج أمه والأتراك قد استوحشوا من قتل ابن السلار ، فلم يجد سبيلا الى تلافي أمرهم ، وخرجوا يدا واحدة الى دمشق ، وبطل مسير العساكر الى عسقلان ، فسر الفرنج ماوقع بالقاهرة وقالوا لأهل عسقلان ، وهم على حصارهم · ان سلطانكم قد قتله ابنه ، فأنتم لمن تقاتلون ؟ ففترت عزائمهم عن القتال الى أن أخذ الفرنج عسقلان .

واستبد عباس بأمر الدولة وضبط الأمور وأكرم الأجناد ، وأحسن الى الأمراء الى أن قتل ابنه نصر بن عباس الظافر ، فصعد العباس الى القصر يوم الخميس على العادة وجلس في مقطع الوزارة ينتظر الخليفة الظافر حتى طال جلوسه فاستدعى بمفلح زمام القصر وقال له : ان كان لمولانا شغل عدنا اليه في الغد .

فمضى الزمام وهو حائر ، وأعلم أخوي الظافر يوسف وجبريل بالقصة ، فما شكا في قتل الظافر ، فعاد اليه ، وكان من اقامته عيسى بن الظافر ونعته بالفائز ، ماذكر في خبره ، فظن أن الأمر قد استقام له ، فأتاه مالم يحتسبه ، وأخذ أهل القصر في اعمال الحيلة عليه ، فاختلف عليه الأمراء والسودان ونافروه لما اشتهر من قتل

ابنه نصر بن عباس الخليفة الظافر ، وهاجت الفتنة وصارت العساكر أحزابا ، ولبسوا سلاحهم ، فخرج عباس لقتالهم في يوم الاثنين عاشر ربيع الأول سنة تسع وأربعين وخمسمائة وكسرهم وقتل منهم جماعة .

فبعثت عمة الفائز إلى طلائع بن رزيك والي الأشمونيين والبهنسى تستدعيه لأخذ ثأر أخيها الظافر ، فحشد وسار من منية بني خصيب ، فبعث إليه عباس عسكرا في عاشر ربيع الآخر نزل على اطفيح فخالف عرب اطفيح على عباس ولحقوا بطلائع وهو على أبويط ، فسار بهم الى دهشور (١٦١) فاضطرب عباس وانحل عنه الناس يريدون لقاء طلائع ، وناكده أهل القاهرة بحيث انه مر في يوم فألقي عليه من طاق في الشارع هاوون ، ورمي مرة بقدر قد ملئت بطعام حار ، فقال :« مابقي بعد هذا من شيء » وهم بالفرار فوجد ابواب القاهرة مغلقة .

ثم دبر أمره وخرج ومعه ابنه نصر ، وأسامة بن منقذ ، ومعهم جميع أموالهم ، فأخذ طلائع القاهرة، ونهبت دور عباس وولده وأتباعه .

وسار عباس على طريق أيلة ، فبعثت عمه الفائز الى الفرنج بعسقلان تعلمهم الحال وتبذل لهم المال ، فخرجوا الى عباس وقاتلوه ، ففر عنه أسامة بن منقذ ومعه أصحابه ، وبقي يقاتل حتى قتل يوم الثلاثاء سادس عشر ربيع الآخر سنة تسع وأربعين وخمسمائة ، واسر ابنه نصر وحمل الى القاهرة .

وحكي ان عباسا جلس للمنادمة ، فلما أخذت الكأس منه قال : تبا لمن يعتقد امامة هؤلاء ، ويقول أنه لايكون امام الا بوصية ، والله لقد قتلت الظافر ولاعلم له بذلك حتى يوصي ، وقد استعرضت أقاربه كالغنم اهانة وذبحا ، وقدمت هذا الملقب

- ٥٧٦٨ -

بالفائز ، وعمره خمس سنين ، وعلى يدينا ذهبت دولتهم بالمغرب ، وكذلك تذهب بالمشرق ، فقتله الله وقتل ولده الظافر .

الحواشي والهوامش

حواشي المدخل إلى كتاب الاعتبار

١ ـ لعله أراد صريع الغواني مسلم بن الوليد .
٢ ـ ليسا في ديوانه المطبوع
٣ ـ ليست في ديوانه .
٤ ـ ديوان أسامة بن منقذ ـ ط . القاهرة ص ١٥٠ .
٥ ـ ديوانه ص ٩٤
٦ ـ ديوانه ص ٣٠٢
٧ ـ ليست في ديوانه .
٨ ـ ليست في ديوانه .
٩ ـ ديوانه ص ١٥٣
١٠ ـ ديوانه ص ١٥٣
١١ـ ليس في ديوانه .
١٢ ـ ديوانه ص ٣٥٦ .
١٣ ـ ديوانه ص ٢٥٣ .
١٤ ـ ديوانه ص ٢٥٧ .
١٥ ـ ديوانه ص ٢٥٥ .
١٦ ـ ديوانه ص ٢٢٨ .
١٧ ـ ديوانه ص ١٥٣ مع فوارق .
١٨ ـ ليست في ديوانه .
١٩ ـ ديوانه ص ٢٤٧ .
٢٠ ـ ديوان أبي فراس ـ ط . دمشق ١٩٨٧ ص ٣٢٥ .
٢١ ـ ديوانه ص ١١٠ .
٢٢ ـ ديوانه ص ١٠٩ ـ ١١٠ .
٢٣ ـ ليسا في ديوانه
٢٤ ـ ديوانه ص ٥٥ .
٢٥ ـ ديوانه ص ٢٦٥ .
٢٦ ـ ديوانه ص ٢٥٠ .
٢٧ ـ ديوانه ص ٢٤١ .
٢٨ ـ ديوانه ص ٣١
٢٩ ـ ديوانه ص ٧١
٣٠ ـ الحسين بن علي المغربي ، من أشهر رجالات السياسة والادب في مصر والشام والجزيرة والعراق في القرن الخامس ، توفي سنة ٤١٨ هـ ، له ترجمة جيدة في بغية الطلب لابن العديم .
٣١ ـ ديوانه ص ٣ . مع فوارق .
٣٢ ـ ديوانه ص ٤٦ ـ ٤٧ مع زيادات كبيرة .

٣٣ _ ديوانه ص ١٢ _ ١٣ مع زيادات كبيرة .
٣٤ _ ديوانه ص ١٥٨ .
٣٥ _ ديوانه ص ١٣٠ .
٣٦ _ ديوانه ص ٣٠ .
٣٧ _ ديوانه ص ٢٤ .
٣٨ _ ديوانه ص ٩٠ مع فوارق .
٣٩ _ ديوانه ص ٧٤ مع فوارق .
٤٠ _ ديوانه ص ٣٠١ .
٤١ _ ديوانه ص ٢١ .
٤٢ _ ديوانه ص ٣٠٢ .
٤٣ _ ديوانه ص ٩٥ مع فوارق .
٤٤ _ ديوانه ص ٢١٢ .
٤٥ _ ديوانه ص ٢٣٦ .
٤٦ _ ديوانه ص ١٠٦ .
٤٧ _ ديوانه ص ٢٧٩ مع فوارق .
٤٨ _ ديوانه ص ٣٠١ _ ٣٠٢ .
٤٩ _ في هامش الاصل : هذا النصف بعينه لابي تمام _ واوله : لاتنكري عطل الكريم من الغنى انظر ديوان ابي تمام _ ط . دار المعارف ٣٠ ص ٧٧ .
٥٠ _ هو حصن زياد أوخربوط ، ورد ذكره في نصوص موسوعتنا اكثر من مرة .
٥١ _ المخراق : السيف .
٥٢ _ في هامش الاصل :

كاننا انا قوس وهي لي وتر
ارمي بها عن بنات الهم والهرم

٥٣ _ في هامش الاصل :اخذه من قول الصابي :

والعمر مثل الكاس ير
سب في اواخره القذى

٥٤ _ ديوانه ص ٥٠ مع فوارق .
٥٥ _ ديوانه ص ٢٥٩ .
٥٦ _ زهير بن أبي سلمى ، وابن سنان هو هرم بن سنان الذي أكثر زهير من مدحه .
٥٧ _ مطموس بالاصل .
٥٨ _ جاءت اسرة آل الصوفي العربية من حلب إلى دمشق وتسلم زعماء منها رئاسة دمشق ودخلوا احيانا بصراعات مع حكام الدولة البورية ، التي كان معين انر من اخر المتحكمين فيها .
٥٦ _ ضمن اسامة اجزاء من قصيدة المتنبي المشهورة التي قالها في عتاب سيف الدولة :

واحر قلباه من قلبه شبم
ومن بجسمي وحالي عنده سقم .

٦٠ _ كان طمان من رجالات زنكي وقد هرب منه والتجأ إلى دمشق .
٦١ _ وردت الأبيات العشرة الاولى من هذه القصيدة في الديوان المطبوع في باب الغزل ص ٤٠ _ ٤١ .
ووردت الأبيات الباقية في باب المكاتبات ص ١٤٦ _ ١٤٨ ، كل ذلك مع فوارق .
٦٢ _ وزير صلاح الدين ، عبد الرحيم بن علي البيساني .

٦٣ ـ تشوروا : خجلا .

٦٤ ـ انظر ما تمثل به الصحابي سعد بن معاذ يوم الخندق .

لبث قليلا يدرك الهيجا حمل

ما احسن الموت إن حان الاجل

انظر سيرة ابن هشام ، تحقيقي ط . بيروت ١٩٩٢ ص ٧٠٩ .

٦٥ ـ للقطامي وهو لقب لشاعر كثير اسمه عييم بن شييم ، له ترجمة في الاغاني ـ ط . دار الكتب ٠ ٢٤ ص ١٧ ـ ٥٠ ، انظر بيته :

إنا محيوك فاسلم ايها الطلل

وإن بليت وإن طالت بك الطيل

ص ٢٠

٦٦ ـ في شرح ديوان زهير ، ط . القاهرة ١٩٤٤ ص ٢٨٠ « عنا » .

٦٧ ـ تقدم ذكر هؤلاء جميعا في الجزء الاول من المدخل ، ومن اجل هذا انظره في ديوان ابن حيوس ج ٢ ص ٦٠٦ مع بعض الفوارق .

٦٨ ـ ديوانه ص ١١٤ مع فوارق كبيرة .

٦٩ ـ الدر باب طائر ، ودرب حبيب ببغداد قرب نهر معلى .

٧٠ ـ تاريخ دمشق لابن القلانسي ص ١٨٤ مع فوارق ببعض الالفاظ .

٧١ ـ ديوان ابن حيوس ٠ ١.ص ٢٠ ـ ٢١ .

٧٢ ـ من اسماء الراية : الصليب .

٧٣ ـ حاجب بن زراره رهن كسرى قوسه حتى يعطيه طعاما يغيث به قبيلته .

٧٤ ـ مختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ٠ ٧ ص ٢٧٦ .

٧٥ ـ نسبة الى حصن كيفا . مدينة من ديار بكر (الانساب للسمعاني) .

٧٦ ـ لم اجده بهذا اللفظ ، انظر كنز العمال : ٣ / ٥٩١٢ .

٧٧ ـ ليس بالانساب ، أو التحبير للسمعاني .

٧٨ ـ مازال يحمل هذا الاسم على طريق دمشق خان ارنبة ، يبعد عن خان أرنبة / ١٥ / كم وعلى مسافة ٤ كم منه معسكر الطلائع .

٧٩ ـ تاريخ ابن عساكر : ٢ / ٣٥٢ ـ ظ ـ ٣٥٣ و .

٨٠ ـ لم يصلنا .

٨١ ـ اي صريع الغواني مسلم بن الوليد .

٨٢ ـ طلائع بن رزيك وزر في القاهرة لمدة سبع سنوات (١١٥٤ ـ ١١٦١ م) وكان من اصل ارمني . انظر النجوم الزاهرة : ٥ / ٣٤٥ .

٨٣ ـ هدمت شيزر بفعل الزلزلة وقتل اهله بها ايام نور الدين سنة ١١٧٠ م .

٨٤ ـ الخريدة ـ قسم شعراء الشام : ١ / ٤٩٨ ـ ٤٩٩ .

٨٥ ـ كتاب الاعتبار ط . برنستون ١٩٣ : ١٣٤ .

٨٦ ـ ليس بديوانه . انظر الخريدة : ١ / ٥٢٩ .

٨٧ ـ ديوانه ط . القاهرة : ٥٥ .

٨٨ ـ الخريدة : ٣ / ٥٠٢ ـ ٥٠٣ .

٨٩ ـ ليسا في ديوانه . وطبع أيضا في القاهرة في الجزء الثاني من كتاب نوادر المخطوطات لعبد السلام هارون .

٩٠ ـ طبع كتاب العصا بحماه وطبع أيضا بالقاهرة في الجزء الثاني من كتاب نوادر المخطوطات لعبد السلام هارون .

٩١ ـ الخريدة : / ٥٠٠ .
٩٢ ـ المصدر نفسه : ١ / ٤٩٩ ـ ٥٠٠ .
٩٣ ـ ديوانه : ١٠٩ .
٩٤ ـ الخريدة : ١ / ٥٠١ / ٥٠٢ .
٩٥ ـ ديوانه : ٢٠٩ ، وبداية البيت الاول فيه « أنا تا ....» .
٩٦ ـ ليست هذه الابيات في ديوانه .
٩٧ ـ ديوانه : ١١٨ .
٩٩ ـ ليست في ديوانه
١٠٠ ـ ديوانه : ٢٧٧ .
١٠١ ـ التكملة لوفيات النقلة : ١ / ١٥٨ ـ ١ (٥١)
١٠٢ ـ الغرارة الوعاء ـ الكيس ـ الكبير للحبوب وغير ذلك .
١٠٣ ـ أي أسامة .

حواشي كتاب الاعتبار

١ ـ هو ابو بكر بن بشر الجزري .
٢ ـ لعل اسمه كان « بندكت » .
٣ ـ صلاح الدين محمد اليغسياني صاحب زنكي وكان لذلك واليه على حماه .
٤ ـ فيما تقدم من نصوص تاريخ دمشق لابن القلانسي موضح لاوضاع هذه المدينة وذلك بالاضافة للدراسة المتقدمة عن الدولة البورية في المدخل .
٥ ـ ديوان اسامة بن منقذ ـ ط . بيروت عالم الكتب ص ٢١٩ ـ ٢٢٠ .
٦ ـ مرجح أن هذه النسبة إلى أمير الجيوش بدر الجمالي . انظر ترجمته في ملاحق الجزء الاول من المدخل .
٧ ـ الاسكندرية والبحيرة .
٨ ـ أي المسؤول عن ادارة القصور الخلافية .
٩ ـ في شرقي مصر .
١٠ ـ من قبائل الشمال الافريقي كانت في أطراف مصر .
١١ ـ بلدة في الصعيد . معجم البلدان .
١٢ ـ هو شجر السدر . معجم اسماء النباتات .
١٣ ـ اي مدخل أو دهليز .
١٤ ـ اي اتخذ ديوانا سجل فيه مرتزقة من الجند .
١٥ ـ نسبة الى دبيق ، وهي بلدة قرب دمياط .
١٦ ـ الإسقلاطون قماش من الكتان موشى والمستجب من فراء السنجاب ، والدمياطي حرير أو كتان مقصب اشتهرت به دمياط .
١٧ ـ واحة بين فلسطين ومصر .
١٨ ـ فارسية تعني صمغ الشجر ، ولعلها كانت من معدن شابه الكهرمان .
١٩ ـ حسمى جبال بين بين العقبة وسيناء . معجم البلدان .
٢٠ ـ السر قسار هو الجزء الذي يقبض عليه الراكب من اللجام : معجم الالفاظ التاريخية في العصر المملوكي لمحمد احمد دهمان ـ ط . دمشق ١٩٩٠ .
٢١ ـ في منطقة البتراء ، وهناك دراسات اردنية معاصرة تذهب إلى أن أصحاب الكهف عاشوا في هذه المنطقة لا في افسوس ـ جنوب تركيا ، كما هو رائج .
٢٢ ـ اي أطولهم .
٢٣ ـ بلدة على بعد ٢٦ كم شمال غربي الخليل . معجم بلدان فلسطين .
٢٤ ـ قامت يبنى على رابية تبعد عن البحر مسافة ٧ كم ، وكانت محطة للقطار بين فلسطين ومصر . معجم بلدان فلسطين .
٢٥ ـ لعباس ترجمة جيدة انتزعتها من المقفى للمقريزي والحقتها في آخر الاعتبار .
٢٦ ـ لعلها من أنواع البغال السفرية أو التنقل .
٢٧ ـ كانت ولايته منية أبي الخطيب ، وهي مدينة كبيرة على شاطىء النيل في الصعيد الادنى . معجم البلدان .
٢٨ ـ من أحياء القاهرة في شرقيها ، نالت اسمها من سكانها من برقة .
٢٩ ـ استغضب .
٣٠ ـ اي شاة .
٣١ ـ اي وعدنا الا نؤذيهم إذا عدنا .
٣٢ ـ المويلح قرية وقعت إلى الشمال الشرقي من يافا . معجم بلدان فلسطين .

٣٣ ـ المرجح هنا الرهوان ، وهو البرزون اللين الظهر في السير ، من الرهو وهو السير السهل .
٣٤ ـ انظر تاريخ دمشق لابن القلانسي .ط ، دمشق ١٩٨٣ ص ٣٩٨ ، ٤٢٧ .
٣٥ ـ حيث المكتبة الظاهرية حاليا في دمشق.
٣٦ ـ انظر تاريخ دمشق لابن القلانسي ص ٤٢٧ .
٣٧ ـ ركن الدين مسعود الاول (٥١٠ ـ ٥٥١ هـ / ١١٦ ـ ، ١١٥م) .
٣٨ ـ افاد من هذه المكتبة وليم رئيس اساقفة صور لدى كتابته تاريخ اعمال امراء الشرق ، ثم تاريخ الاعمال المنجزة فيما وراء البحار ، وقد ترجمته الى العربية .
٣٩ ـ لعل هذا كان عام ٥١٧ هـ . انظر تاريخ دمشق لابن القلانسي ص ٣٣٥ .
٤٠ ـ أورد أسامة هذه الحكاية في كتابه لباب الادب ـ ط . القاهرة ١٩٨٧ ص ١٨٧ ـ ١٨٨ وهي غريبة فالمتداول أن إصابة الاشتر بالشتر تمت اثناء فتوح الشام لدى قطع الدروب إلى اسية الصغرى للمرة الاولى . انظر بغية الطلب لابن العديم ـ ط . دمشق ١٩٨٨ ج ١ ص ٥٦٩ ـ ٥٧١ .
٤١ ـ ناقل مناقلة : هو بين العدو والخبب . القاموس .
٤٢ ـ أي التف .
٤٣ ـ القنطارية قناة الرمح أو الرمح كله .
٤٤ ـ لم ترد هذه الابيات في ديوان عنترة المطبوع .
٤٥ ـ شمالي الاثارب ، وسيرد هذا في نص ابن العديم .
٤٦ ـ انظر سورة آل عمران ـ الايتان : ٢٦ ـ ٢٧ .
٤٧ ـ على مقربة من حماه الى الشمال الغربي منها .
٤٨ ـ قرب بارين تتبع محافظة حماه .
٤٩ ـ سترة سميكة تقوم مقام الدرع .
٥٠ ـ كسماء : اي سهم حربي أو ماض . القاموس .
٥١ ـ احد قرني حماه الى الشمال منها .
٥٢ ـ في الغاب قرية اسمها الان جوبة كرد لعلها هي .
٥٣ ـ كان هذا سنة ٥١٧ هـ. انظر تاريخ دمشق لابن القلانسي ص ٤٢٧ .
٥٤ ـ ديوان قيس بن الخطيم ـ ط . دار صادر بيروت ١٩٦٧ ٨٨ .
٥٥ ـ انظر لباب الاداب ص ٢٠٨ ويوم الحديقة من ايام والاوس والخزرج في الجاهلية .
٥٦ ـ هو وليم جوردان ـ انظر ما تقدم في تاريخ دمشق لابن القلانسي .
٥٧ ـ من شعراء ما قبل الاسلام اسمه سهل بن شيبان .
٥٨ ـ أي خنجر .
٥٩ ـ الخشت من انواع الحراب .
٦٠ ـ في محافظة حماه قرب محردة في احواز شيزر .
٦١ ـ ديوان المتنبي ط . بيروت ١٩٦٩ ص ٢٠٣ قوله :
لعل عتبك محمود عواقبه
فربما صحت الاجسام بالعلل

٦٢ ـ سورة البقرة ـ الاية : ٢١٦ .
٦٣ ـ قرب برقعيد قريبة من الموصل بين جزيرة ابن عمر ونصيبين . معجم البلدان .
٦٤ ـ مرض يفقد الطائر ريشه .
٦٥ ـ النباج : الشديد الصوت ، والنبجة : الاكمة . القاموس .

- ٥٧٧٦ -

٦٦ ـ ندس برجله الارض : ضربها .

٦٧ ـ الباقورة : جماعة من البقر ، والجزيرة كانت في وسط العاصي ، والجلالي من روافد العاصي .

٦٨ ـ اي مسرعة .

٦٩ ـ لعل : كلمة طمع واشفاق . القاموس .

٧٠ ـ قطاة الدابة : عجزها او ما بين الوركين .

٧١ ـ لعل رسم اسمه باللاتينية Pedravant

٧٢ ـ المراد كما هو مرجح « التريمسة » قرية الى الغرب من حماه ، تابعة لمحردة في احواز شيزر .

وفي تاريخ دمشق لابن القلانسي ص ٣٨٣ « تل ابن معشر » اي العشارنة حاليا ، اوالتريمسة تقع في سهل العشارنة وتبعد عن محردة ١٦ كم نحو الشمال الغربي . المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري .

٧٣ ـ يحيط بالتريمسة عدة تلال عرف اشهرها بتل الدروع .

٧٤ ـ اي مقدم وجهه .

٧٥ ـ موزا « موزة » حذاء ذو ساق طويلة .

٧٦ ـ كذا من باب المبالغة مع انه قال قبل قليل شهرين .

٧٧ ـ على مقربة من شيزر بناه المنقذيون قبل الاستيلاء على شيزر .

٧٨ ـ على مقربة من قلعة المضيق في منطقة الغاب غربي حماه .

٧٩ ـ الخشت فارسية تعني الحربة او السهم .

٨٠ ـ من اهل كفر طاب ، هو من شعراء الخريدة ـ قسم بلاد الشام ١٠ ص ٥٧٣ ـ ٥٧٤ . ترجم له ايضا ابن عساكر وياقوت والسيوطي في بغية الوعاة ، توفي سنة ٥٥٣ هـ . .

٨١ ـ صاحب قلعة جعبر .

٨٢ ـ محمود بن نصر بن صالح ، صاحب حلب ، انظر ما تقدم حوله في الجزء الاول من المدخل .

٨٣ ـ في ارمينية . معجم البلدان .

٨٤ ـ اسفونا الان تل اثري في جبل الزاوية ، ناحية كفر نبل ، منطقة معرة النعمان ، محافظة ادلب مساحة التل ٢٥٠ هكتار ماتزال بقايا القلعة ماثلة عليه المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري .

٨٥ ـ اي نشيط .

٨٦ ـ الفرلة : مخاط كل ذي حافر . القاموس .

٨٧ ـ تشابرا في الحرب : تقاربا . القاموس .

٨٨ ـ ما يزال موقع الباشورة في حماه معروفا يحمل الاسم نفسه ملاصقا للسفوح الشرقية للقلعة .

٨٩ ـ من روافد العاصي .

٩٠ ـ البراق : تركية معناها السلاح .

٩١ ـ انظر قوله تعالى في سورة نوح ـ الاية : ١٤ : « وقد خلقناكم اطوارا » .

٩٢ ـ اي راعي الخيل .

٩٣ ـ اي مدير المطبخ .

٩٤ ـ في هذا اشارة الى شيخ الجبل المسؤول عن الحشيشية من الاسماعيلية النزارية في المنطقة .

٩٥ ـ تعرف الان باسم معرزاف، وهي تابعة لناحية محردة .

٩٦ ـ كان حصنا مكينا الى الجنوب الغربي من معرة النعمان . معجم البلدان .

٩٧ - اصطلاح ما يزال يستخدم في حماه يراد به وعاء منسوج من القطن (جوال) تـوضع فيه الحبوب وسواها .
٩٨ - الفهد المخطط
٩٩ - هو محمد بن ابي محمد بن محمـد ، ولد في صـقلية عام ٤٩٧ هـ ، ومـات في حمـاه عام ٥٦٥ هـ صنف عدة كتب نشر منها كتاب انباء نجباء الابناء - بيروت ١٩٨٠ .
١٠٠- قلت : سريع ، ورمينا فوقا : رشقا . القاموس .
١٠١ - البشت : عباءة .
١٠٢ - اي رأس خنجر .
١٠٣ - يعرف حصن صهيون الآن باسم قلعة صلاح الدين ، وبلاطنس الى الجنوب منها .
١٠٤ - اي يستطلع .
١٠٥ - قرب منبع نهر ابراهيم في لبنان .
١٠٦ - اناء واسع كالبرميل .
١٠٧ - اي وجده ناعما .
١٠٨ - اي Viscount
١٠٩ - في غربي سلمية منطقة تل سلحب اسمها تل دبين . المعجم الجغـرافي للقـطر العـربي السوري .
١١٠ - عامل زنكي على حلب .
١١١ - الباشة : الحلقة .
١١٢ - ندس : قذف .
١١٣ - نجب في سيره : جد واسرع .
١١٤ - خان عذراء والقطيفة .
١١٥ - في ديار بكر . معجم البلدان .
١١٦ - من حصون ديار بكر .
١١٧ - شعر ذنب عجل البحر .
١١٨ - على مقربة من إربل .
١١٩ - ليس في ديوانه المطبوع .
١٢٠ - أجرت المرأة : أباحت نفسها بأجر . القاموس .
١٢١ - لم ترد هذه القصيدة في ديوانه المطبوع .
١٢٢ - ديوانه ص ٢٥٥ .
١٢٣ - ليست في ديوانه المطبوع .
١٢٤ - ليست في ديوانه المطبوع .
١٢٥ - ليست في ديوانه المطبوع .
١٢٦ - سورة النحل - الاية : ٥٣ .
١٢٧ - هي ايضا اسعرت ، في ديار بكر .
١٢٨ - هو ابن الجوزي صاحب المنتظم وغيره من الكتب
١٢٩ - اي الوزير نظام الملك . انظر ترجمته في ملاحق الجزء الاول من المدخل
١٣٠ - الفقاع شراب يحضر من الشعير .
١٣١ - اي صاحب املاك كبيرة في المدينة .
١٣٢ - كان في حلب أيام ثمال بن صالح ، له رحلة نقل عنها ابن العديم في بغية الطلب ، وياقوت والقفطي حين ترجم له في اخبار الحكماء ص ١٩٢ - ٢٠٨ .
١٣٣ - سورة يس - الاية : ٦٨ .
١٣٤ - اي الجبلية ، فكوه بالفارسية : جبل .

١٣٥ ـ دشت بالفارسية : واد ، صحراء ارض وسيعة ، وخيز : وقوف . نهوض ، ارتفاع ، رفرفة .

١٣٦ ـ من روافد نهر الخابور

١٣٧ ـ القرنصة سقوط الريش ، فاذا شرع الباز في القرنصة ينبغي ان يفرد له بيت لايدخله الغبار والدخان ، لهذا يفرش حوله الصفصاف .

١٣٨ ـ يدعوها المصريون الان « السيد قشطه » .

١٣٩ ـ على هامش الاصل : « وهو الطيهوج » .

١٤٠ ـ ابن علم الدين علي كرد صاحب حماه .

١٤١ ـ قرب منطقة القدموس .

١٤٢ ـ ماتزال القرى تحمل الاسماء نفسها ، وهي تابعة لناحية عين الشرقية ـ منطقة جبلة ـ محافظة اللاذقية .

١٤٣ ـ الكذر : مجثم البازي . القاموس .

١٤٤ ـ جمع قلت ، وهي النقرة في الارض ، يستنقع فيها الماء .

١٤٥ ـ اي الصائد . القاموس ـ مادة حشر .

١٤٦ ـ من انواع طيور الماء . انظر البيزرة لبازيار العزيز الفاطمي ـ ط . دمشق ١٩٨٨ ص ٥٦ .

١٤٧ ـ اي يقطع الفولاذ .

١٤٨ ـ انظر البيزرة ص ١١٨ ـ ١١٩ .

١٤٩ ـ استرخاء . القاموس .

١٥٠ ـ شيء يشبه الحية . القاموس .

١٥١ ـ سباقا البازي : قيداه .

١٥٢ ـ وثب .

١٥٣ ـ بنجت : اختبات .

١٥٤ ـ قرية في سهل العشارنة تتبع منطقة محردة في محافظة حماه ، وتبعد عن محردة ١٢ كم باتجاه الغرب .

١٥٥ ـ كنانة أو جعبة .

١٥٦ ـ البالة : حربة أو سكين طويلة ، تعريب كلمة « بالا » التركية .

١٥٧ ـ اي الحبل من الرمل اللاطيء بالارض ، وسهل بين حزنين .

١٥٨ ـ اي تتلوى .

١٥٩ ـ طائر يشبه مالك الحزين .

١٦٠ ـ لعله من انواع البازي ، أو انه تصحيف : « الزرق » انظر البيزرة ص ٧٩ .

١٦١ ـ اطفيح وأبويط وبهشور من قرى الصعيد الادنى على النيل . معجم البلدان .

المحتوى